

طبع بمعونة من وزارة المعارف العراقية

# الأدب في ظل بني بؤس

تأليف

مكي غناوي الزهيري

ماجستير في الآداب ( M.A. ) من جامعة فؤاد الأول

١٩٤٩ - ١٣٦٨ هـ

مطبعة الأمانة ٥٨ شارع الفجالة بمصر

## الإهداء

إلى :

أساتذتي الأجلاء في مصر العزيزة الخالدة . . .

ومدرسي الكرام في الوطن المحبوب . . .

إلى :

هؤلاء الذين يفتنون زهرة العمر في بناء نهضتنا العسكرية .

أهدى هذا الجهد المتواضع .

مع أسمي آيات الإجلال والإكبار ؟

محمود غناوى الزهيرى

Türkiye Diyanet Vakfı	
İslâm Araştırmaları Merkezi	
Kütüphanesi	
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bölümü	
Demirbaş No:	2959
Tasnif No:	892.7 ZAH-E



# تقديم

بقلم حضرة العالم المحقق أستاذنا الكبير أحمد الشمايب

أستاذ الأدب العربي بجامعة فؤاد الأول

- ١ -

إذا كان الأصل في الحياة العلمية أن تدرس مسائلها دراسة موضوعية يضطر فيها الدارس بمقتضى منهجه أن يتحاشى عواطفه ومزاجه، أو يجردها من ملابساتها الزمانية والمكانية والشخصية حرصاً على تحقيق هذه الموضوعية في دقة وصفاء... فإن الأصل في الحياة الأدبية أن تدرس نصوصها، نقداً أو تاريخاً، درساً متصلًا بالزمان، والمكان، والأدباء، يضطر فيه الباحث بطبيعة منهجه أن يستلهم عواطفه ومزاجه ليستطيع عرضهما كما أنشئت جامعة بين المقومات التي كونتها ذاتية كانت أو موضوعية... ذلك أن هذه النصوص الأدبية نفسها إنما كانت ثمرة ذلك التفاعل بين طبيعة الأديب الذي أنشأها وبين هذه البيئة التي احتوتها طبيعة أو زمانية أو ثقافية أو نحوها مما يؤثر في موضوعات الأدب وأساليبه حتى إذا صدرت هذه النصوص كانت ذلك الفن الذي تناصرت على تكوينه كل هذه العناصر الداخلية والخارجية.

وكان على دارس هذه النصوص، إذاً، أن يردّها إلى عناصرها هذه أمينا معتمداً على ذوق سليم، وثقافة عريضة، ومواهب عالية، إذ هي وسيلته التي بها ينقد الأدب ويؤرخه... ذلك هو الأصل العام لهذه الدراسات الأدبية التي تنتهي إلى إدراك جمال الأدب، وتفسيره، ثم وصف هذا الأدب وصفاً ينتهي ليكون تاريخ الأدب.

(ب)

- ٢ -

هذه الدراسات الأدبية ، كما رأيت ، متصلة حتما بالأدباء ، وبالبيئات التي احتوتهم ، وبالآزمنة التي عاشوا فيها وخضعوا لمقوماتها ، ولعل بعض الناس قد نغم عليهم ذكر الزمن في هذا الدرس ومقدار صلته بالأدب ، إنشأ ، ونقداً ، وتاريخاً ، فكان لا بد من إشارة إلى هذه الصلة وبيان منزلة الزمان حين يرد ذكره في هذا المعرض .

لم يقل أحد ، وهو يردد كلمة الزمن في نقد الأدب وتاريخه : إنه يقف به عند هذه الشهور والسنين الفلاسكية المجردة التي يتعاقب فيها الليل والنهار وكفى دون ملابسات ما ، بل الزمن في أبسط صلاته بالأدب يحدد الأطوار الفنية التي تتعاقب أو تتعاصر فتسكون سلسلة أو صفحات أدبية يكون منها تاريخ الأدب عامة كما يكون فيها وفي كل منها طائفة من الخصائص التي يمتاز بها كل طور من أطوار الأدب .

وفي كل طور نجد البيئة والأديب يتفاعلان دائماً فيشمران لنا هذا الأدب الذي ندرسه . نعم وفي حدود البيئة الواحدة يتدخل الزمن فيحدد أطوارها الفنية تحديداً مقاربا على كل حال .

ولذلك كان نقادو الأدب ومؤرخو نقده يضعون نصب أعينهم دائماً سير الأدباء ، وبيئاتهم ، والأطوار الزمنية التي تقاموا فيها ليستطيعوا الإنصاف في الحكم الفني والتاريخي جميعاً ، ولذلك أيضاً أخذ مؤرخو الأدب العربي بمسألة العصور الزمنية أولاً حينما كان الأدب أقرب إلى الوحدة ، ولا سيما في صياغته ، وذلك في حياة الأدب الأولى ، في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر العباسي الأول ، وهم لا ينسون خلال ذلك درس

## (ج)

اليئات الأدبية والعلمية وخصائصها في ثنايا تلك العصور وإن لم تكن قد بلغت من الخطورة مبلغها فيما بعد ذلك من عصور .

حتى إذا كان القرن الرابع وقويت الآداب القومية وظهر أثر اليئات واضحا متميزا وبخاصة في الفنون الأدبية وصياغتها أخذ المؤرخون يؤرخون الأدب - بعد هذه النظرة الزمنية العامة - على أنه أدب أقاليم وأوطان أو بيئات كمصر والشام والعراق، والأندلس، وغيرها، ثم يلاحظون في كل إقليم أو بيئة أطوارها التاريخية، وبيئاتها الفرعية، ومدارسها الهامة وهكذا، يرتد الأمر كله، وفي كل حالة إلى أطوار الأدب نفسه كما تملئها دراسته الفنية فيرصدها الدارس ناقدراً أو مؤرخاً دون أن يقف بعيداً فيملي عليه ما ليس من طبيعته وحياته . . . فهذه مسألة دراسة الأدب عصوراً وبيئات .

- ٢ -

فإذا تجوزنا بعض الشيء، أو حققنا بعض الشيء كان الزمن الأدبي هو هذا التطور نفسه الذي يتخذ من الجنس، والثقافة، والدين، والسياسة، والاقتصاد والاجتماع والبيئة، عناصر ومقومات يكون بها حلقات التاريخ الأدبي وطبقات الأدباء، فإذا بنا أمام شعوب تخضع هذه المقومات المتطورة فتثمر لنا أدبا ذا أطوار متعاقبة لكل طور سماته التي يسمي من أجلها عصر النهضة، أو الجاهلية، أو العباسيين، أو ملوك الطوائف، أو الفاطميين في مصر، والحمدانيين في الشام .

والزمن بهذا التجوز أو التحقيق أوسع أفقاً، وأعمق معنى، وأقرب إلى طبيعة هذه الدراسات النقدية والتاريخية، ففيه المكان والجنس، والثقافة، وفيه الحاضر والماضي، وفيه - وهو الأهم - التطور، والحركة،

والحياة ، والتاريخ . . . فيه هذا التواصل أو التوالد الذي ينتظم الحضارة كلها  
والكون كله ، أفليس من الإنصاف ، إذاً ، أن نعرض عن تلك القشور التي  
يقف عندها اللغظيون ونلقى ذلك الزمن الأدبي كما هو معني ، وعملا ،  
ومقومات لها آثارها في التاريخ والاجتماع ؟

وهب أننا وقفنا عند البيئة وحدها وأغلقنا دوننا الأبواب والنوافذ ،  
أيمكن أن نتلقاها ساكنين تتبين من جنباتها مقومات الأدب وخصائصه  
دون أن نعود - في سبيل ذلك - إلى الماضي ، الماضي البعيد والقريب ، ودون أن  
ننتقل منها فنفتح الأبواب لنصل إلى غيرها من البيئات ؟

أكان الأدب العربي في مصر زمن الفاطميين نتاج مصر وحدها زمن  
الفاطميين ؟ كلا ، هناك فيه ، بل أكثره ، جاهلي ، وإسلامي ، وعراقي ،  
ومغربي انتهى إلى مصر مع الزمن . . . أكانت دراسة مصر زمن الفاطميين  
تم دون أن توازن بغيرها من الأقاليم والأوطان العربية ؟ كلا ، وإلا  
سجننا أنفسنا ، وترنا درسنا .

أليس الزمن تراث الماضي يتحدر متطورا ملونا بهذه العوامل الفعالة  
فلا يكاد يستقر في مكان ما حتى تدفعه عوامل الزمن إلى الاستحالة والحياة  
جامعا بين التليد والطريف من أسباب هذه الحياة ؟ هذا هو الزمن إن صح  
تجوزنا أو تحقيقنا ، وهذه هي آثاره العريضة ، فهل ضاق بالبيئة أو  
أنكرها ؟ كلا ، ألم يشتملها فتصبح دراستها زمنية جزئية ؟ ولكن كما نرجو -  
دراسة متحركة ، حية ، عميقة ، شاملة متصلة بسواها وإلا فعلينا العفاء .  
فإذا سألت عن الأدب الأول أيام نشأ وحى ، أين كان زمنه الغابر ،  
وتطوره المتحرك ؟ قلنا لك : إن هذه النشأة الأولى إنما كانت هي كذلك ثمرة  
تطور ثقافي بعيد الماضي ، كثير الخلفات ، متحرك الخصائص ، تناول البيئة ،

والجنس ، والثقافة ، والدين ، واعتمد على الأسباب التي تحين الحياة وتسير بها قدما دون أن تقف حتى بين جدران البيئة الواحدة.

— ٤ —

ونعود فنقول: إذا كانت هذه الحياة الأدبية تقتضى دارس النصوص أن يعنى بالزمان ، والمكان، والأشخاص ليستطيع نقد هذه النصوص وتاريخها فقد نشأت في ظل هذا الأصل مناهج دراسية شتى: منها ما يتصل بالنص ذاته لمتبين ما فيه من أسباب القوة والجمال وهي دراسة نقدية خالصة تعنى بالجانب الفني أصالة وإن لم تستغن عن تعرف ملائسات هذا النص أدبيا، أو مكانا، أو زمانا، ومنها ما يتصل بالفن الأدبي كله من حيث إنه صبور متباعدة للتعبير عن شعور خاص تتغير بواعثه ومظاهره على مر الأيام وتباين العوائل، فهي تاريخ الفنون الأدبية، ودراسة تتصل بالأشخاص من حيث إنهم المصدر المباشر للآثار الأدبية، فلا بد إذا من تعرف سيرهم، ونفسياتهم، وأمزجتهم ومدى ما تفاعلوا مع بيئاتهم، وهي دراسة عرضة لمن يتناولها، عميقة شاملة، ودراسة تتصل بالأدب جملة، في بيئة من البيئات أو طور من الأطوار، أو في جميع الأطوار... هي تاريخ الأدب كله أو بعضه يصفه اندارس فيضع له هيكلًا عامًا أو عدة هياكل منهجية ليخلص من ذلك إلى أدب عام في إقليم أو صبور منه متقاربة في عدة أقاليم أو صبور متباينه بحكم البيئات، أو أطوار متعاقبة على مر العصور... كل ذلك وهو غارق في ذلك المعنى الزمني القائم على التطور كما بينا من قبل.

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك طبعاً - وكان تاريخ الأدب العربي طويلا، عريضا، عميقا، فقد اقتضت دراساتها الجامعية أن نتناوله



من كل وجه ، وأن نوزع ميادينه ومسائله وعلومه بين الأساتذة والدارسين ، فكان في كلية الآداب كرسى الأدب العربى العام الذى يشرف على هذه الدراسات ، ويرقبها ، ويوجهها ، وتفرع منه كرسى الأدب المصرى الوسيط الذى أخذ يعنى بالأدب المصرى منذ الفتح الإسلامى إلى عصرنا الحديث ، ثم أنشئ كرسى الأدب العربى الحديث باسم المرحوم أحمد شرقى لتناول الأدب من بده هذه النهضة الحديثة فى الأقطار العربية ، ونحن الآن بصدد إنشاء كرسى للأدب الأندلسى ... وهكذا حتى يتم لنا تمثيل وتمثل هذه الجوانب الدراسية جملة وتفصيلا .

- ٥ -

على هذا الأصل العام أخذت الدراسات وجهتها فى كلية الآداب أو فى قسم اللغة العربية منها ، بدأت وثيدة تخططر بأناة وثقة وجد وتوفيق ، حتى إذا استقامت سيقانها أخذت تنسع آفاقها وترامى مقوماتها ، وتنفع بجميع الدراسات فى أقسام الكلية ومعاهدها وقد توافد علينا الطلاب من بلاد الشرق العربى والغرب العربى ، ومن الشرق الإسلامى ، ونحن نغتنب أشد الاغتباط ، والطلاب فرحون معنا بهذه الصلات الأدبية النبيلة التى هى خليقة أن تبعث ما كان لنا من ماض مؤتلف مشتجر العواطف والقلوب ، مشترك الثقافة والآداب ، وأن تقدم لنا جميعاً وللإنسانية تراناً حضارياً عتيداً ، وعوناً على التقدم صادقاً رفيع البناء .

لذلك أخذ قسم اللغة العربية فى كلية الآداب طلاب الدراسات العليا من سائر الأقطار العربية بالالتفات إلى أوطانهم الخاصة والعناية بها ووقف بحوثهم ، ما استطاعوا ، على تاريخها الأدبى فالعراقيون والشاميون

( ز )

والحجازيون والتونسيون والهزود والسودانيون وغيرهم ، كل يتخذ من تاريخ أدب اللغة العربية في بلاده مسألة أو موضوعا يكون بحته للماجستير أو الدكتوراه ، وقد استجاب الطلاب لهذا التوجيه فرحين ، واستبشر الأساتذة بذلك مطمئنين إلى أن ذلك التوزيع في الدراسات يفيد الأدب ذاته أولا ، ويفيد الأبحاث والدراسات الجامعية ثانياً ، ويفيد تلك الأقاليم في خدمة ثقافتها وحضارتها ثالثاً ، ويكون من تلك الأبحاث حين تستوى وتكمل مادة لتأريخ أدب اللغة العربية في كل عصوره وأقاليمه كما يكون في هذا التراث المنسق المدروس ما يفيد في توجيه الأدب الحديث إن شاء ، ونقداً ، وتاريخاً .

- ٦ -

هذه بعض الخواطر التي خطرت لي وأنا أحاول تقديم هذه الرسالة للطالب العراقي السيد « محمود غناوى الزهيرى » ، وهى رسالته للماجستير فى الآداب ، ومن موضوع هذه الرسالة أولاً ، ثم موضوع رسالته للدكتوراه ثانياً - نقائص جرير والفرزدق - ترى أن الطالب الكريم كان من أسرع زملائه استجابة لتوجيه الكلية ، ومن أشدهم براً بوطنه الخاص وتاريخه الأدبى ، ومن أراضاهم نهوضاً بقسطه من هذا الواجب العلمى الذى تفرضة على أفرادها أسرتنا الجامعية .

وإذا كانت مهمتى هى تقديم هذه الرسالة فقد فعلت إذ بينت الأصل الذى قامت عليه ، وموضوعها من تاريخ الدراسة الجامعية ، ومقدار صلتها باتجاه كاتبها وشعوره بمسئوليته نحو وطنه الخاص العراقى ، والعام العربى ، وأما ما فيها من معارف فأمر من شأنك أنت ، تقرأه وتقدره ولا أحب

## (ح)

أن أحول بينك وبينه بطول هذا التقديم الذي لا يعدو أن يكون تمهيداً  
أضعه بين يديك مفتاحاً لهذه الفصول التي تلقاك بعد حين .

أما إذا كنت تريد أن أصل بين هذه الفصول وبين ما قدمنا من تمهيد  
فأقول لك إن الطالب الكريم قد تحرى لموضوع رسالته القرن الرابع  
الهجرى حين أخذت الآداب القومية أو الإقليمية الإسلامية تمتاز خصائصها  
وتشتد آثار البيئة فيها ، وكان الأدب البويهى لذلك عنوان موضوعه ، فلاحظ  
تأثره بعوامل البيئة ، والجنس والزمان ، وكان الزمان عنده عبارة عن  
المقومات الأدبية التي انحدرت إلى هذه الفترة التاريخية ( ٣٢١ - ٤٤٧ هـ )  
من خلال القرون التي سبقتها إسلامية وغير إسلامية ، فاستقرت في العراق  
وفارس ، والجزبال ، والأهواز ، وكانت من غير شك تطوراً لذلك الأدب  
العربى الأصيل في إحدى صورته التي لم تثبت على حالها ، ولم تنفصل عن  
سوابقها ولو احقها بمقتضى ذلك التطور الذى المعروف .

والموضوع كما ترى عريض يقتضى بحثاً عريضاً يفيض به أكثر من  
شخص في مثل هذا المقام الجامع ، ولسكن كانبنا احتاط فقصر بحته على  
الأدب الخاص من وجهه ، ثم وقف عند معالمة البارزة من وجه آخر فدرسها  
درسا دقيقا موقفا أميناً . ولو طأوع نفسه وخضع لأفق الرسالة الواسع  
وما تستوجب من استقصاء لا نثق من الجهد ، والوقت ، شسيتنا كثيراً .  
أما منهجه الذى رسمه لهجته فقد وفق في تطبيقه توفيقاً جيداً في ضوء  
النصوص التي اختارها ووقف عندها لتسكون أحكامه عليها سليمة صحيحة ،  
ومن طرف ما عني به حقاً تنبيهه إلى العامل الاقتصادى ووضعه في مقدمة  
العوامل الاجتماعية التي أثرت في موضوعات الأدب وعناصره أيام  
البويهيين .

( ط )

كذلك عنى عناية موفقة جديدة فبين مقدار تأثير الأدب بالتقاليد والرسوم  
والمشاعر ، والأفكار ، والأمزجة التي كان أثرها في الأدب مباشراً ليظفر  
من وراء ذلك بخصائص الإقليمية الأدبية عصر آل بويه .  
وقد استشار طائفة صالحه من المراجع العامة التاريخية والأدبية ، والخاصة  
من دواوين الشعر والرسائل والمقامات والمختارات .

ثم انتهى من بحثه إلى بيان الخصائص الأدبية في عصر البويهيين ، فشرح  
هذا الطور من تاريخ الأدب العربي في حدود هذه الدولة وانتهى إلى مرحلة  
يحسن السكوت عليها سكوتاً علمياً موفقاً كريماً .

— ٧ —

أما بعد فيجب أن أقول للعراق الشقيق: هذا أحد بنوك الأبرار المجدين  
المتواضعين الذين يشتغلون في صمت وبرادة من السفساف وتنزه عن الدنيا،  
يقدم إليك بحثه الأول موفقاً في منهجه ومادته ، وإن رسالته هذه أول  
محاولة علمية منظمة في هذا المجال بلغتنا العربية على ما أذكر ، وقد جعلها  
خطوة أولى تليها خطوات تكون أشد توفيقاً ، في خدمة تاريخك الأدبي  
وحضارتك العامة ، وإنك حين بعثته ليملك في الدرس والتلمذة ،  
كان من خيار مبعوثيك درسا ، وخلقا ، وفناء في النهوض بما يكلفه ، وإعماله  
يكون ، إن شاء الله ، من بين ذلك الرعيل الأول الذي يبني الجامعة العراقية  
أو كلية الآداب .

ويجب أن أعرف للجامعة المصرية ، ولقسم اللغة العربية من كلية الآداب  
ذلك الجهد الحظير ، والبلاء المضني الذي اضطلع به في إقرار هذه المناهج  
العلمية السديدة في دراسة أدب اللغة العربية دراسة شاملة ، عميقة ، مستقيمة ،

(ى)

وفى إشاعة هذه المناهج فى بلاد الشرق العربى ، فتلك فىما أرى هى المهمة  
الكبرى لجامعتنا حتى الآن وبعد الآن .

ويجب أن أعرف للشرق العربى والغرب العربى استجابته لدعوة الجامعة  
المصرية ورسالتها حتى رأينا من ذلك ومن غيره نهضة أصيلة تستيقظ ،  
ووحدة أدبية تتحقق ، وأملا فى مجد يأتلف من ماض جليل . . . ومستقبل  
ناهض مجيد .

أحمد الشايب

القاهرة فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٩

# مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم

وبعد، فقد كان من نتائج انهيار المملكة الإسلامية وتجزئها أوائل القرن الرابع أن قامت دول وإمارات على أنقاضها في مختلف الأقاليم الإسلامية، وقد كانت هذه الدول والإمارات تبني حياتها السياسية والاجتماعية والروحية على أساس جديد، استمدت مادة بنائه مما ورثته عن الإسلام، ومما ورثته عن أسلافها قبل الإسلام، ومما أملته عليها طبيعة بلادها، محاولة في هذا البناء أن تلائم وتوافق بين عناصره المختلفة وبين الظروف الخارجية، حتى إذا تحقق لها ما كانت تصبو إليه من كيان سياسي واجتماعي وروحي كان لها من الأدباء الذين نشأوا في ظلها من استطاعوا أن يصوروا في أدبهم جوانب حياتها المادية والروحية.

هذا ولما كان الأدب كائناً حياً يتأثر بالعوامل السياسية والاجتماعية والطبيعية ويستجيب لها ويتلون بلونها، فإنه من الطبيعي أن يكون النتاج الأدبي الجديد في ظل هذه الدول والإمارات المستقلة مختلفاً بين إقليم وآخر من حيث الخصائص الفنية والأنواع والأغراض، بقدر ما كان بين هذه الأقاليم من اختلاف في درجات الحضارة والثقافة وفي صور الحياة الاجتماعية والأنظمة السياسية والأحوال الطبيعية فكان من أثر ذلك نشوء الأدب القومية في هذا العصر، تلك الآداب التي تجلت فيها آثار الشخصية الإقليمية بوضوح. وآية ذلك تلك الطواهر الأدبية الجديدة التي ظهرت في إقليم دون آخر أو التي ظهرت في إقليم ثم انتقلت منه إلى غيره، مثال ذلك ظهور الخطب الدينية في حلب، وظهور الموشحات في الأندلس، وظهور

(ل)

المقامات وشعر التسول والادب المكشوف والأسلوب المحلى بانسجع  
والبديع في فارس والعراق .

على أننا لسنا أول من أدرك هذا التمايز والاختلاف بين الآداب  
الإقليمية، وإنما سبقنا إليه بعض القدامى ، إذ لاحظوا بعض الظواهر  
الأدبية والمذاهب الفنية تنشأ في إقليم معين وتحت ظروف معينة فعملوها  
بعلل تتصل بالحياة السياسية والاجتماعية وأحوال الأقاليم الطبيعية ، فابن  
خلكان مثلاً يعلل ظهور الخطب الدينية في حلب بكثرة الحروب والغزوات  
التي كان يشنها سيف الدولة على الروم (١) ، والشعالي يعلل الجزم القوال فصاحة  
في الشعر الشامي بقرب أهل الشام من خطط العرب واختلاطهم بأهل الحجاز،  
ويعلل أيضاً الركة والضعف والفساد في الشعر العراقي بأنها أثر من آثار مجاورة  
الاعاجم والمداخلة معهم . (٢)

وبدلنا على تبلور فكرة الإقليمية في الأدب عند الشعالي أنه أدار فصول  
كتابه ( يتيمة الدهر ) على أساس الأقاليم ، بل على أساس المدن ، وبذلك  
كان أول من طبق هذه النظرية تطبيقاً عملياً .

هذا ، ولما كانت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول قد جرت في الأعوام  
الأخيرة على تشجيع دراسة الآداب القومية إلى جانب تشجيعها الدراسات  
العربية فإن رأيت من المناسب أن اختار « الأدب البويهى » موضوعاً  
لرسالة الماجستير ، لأطبق فيه نظرية « الإقليمية في الأدب » على ما انتجه  
أدباء فارس والعراق من شعر [ونثر في ظل بني بويه وفي داخل حدودهم  
السياسية من عام ٣٢١ إلى عام ٤٤٧ هـ

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٥٦ (٢) يتيمة ١ : ٦٠

(م)

وقد درست هذا الأدب ، بمعناه الخاص ، على أساس نظرية معرفة لدى نقاد الأدب ومؤرخيه ، تذهب إلى أن الأدب مرآة تركز فيها صور الحياة الاجتماعية والسياسية والطبيعية أو أنه - أى الأدب - تصوير دقيق لمظاهر الحياة وإفصاح عما تثيره هذه المظاهر في نفس الإنسان من أهواء وخليجات ونزعات ، وعبارة أقرب إلى الإيجاز : إنه رجوع وصدى للبيئة العامة . ودراستي هذا الأدب على هذا الأساس استطعت - إلى حد كبير - أن أعين وأحدد المميزات الشخصية للأدب في ظل بسنى بويه في فارس والعراق ، تلك المميزات التي اكتسبها من بيئته الطبيعية والسياسية والاجتماعية ، من هذه المميزات ما يتصل بظهور فنون أدبية جديدة مستقلة ، ومنها ما يتصل بازدهار فنون أدبية قديمة ، ومنها ما يتصل بظهور الزخرفة اللفظية في الأسلوب والمبالغة المفرطة في المعاني ، ومنها ما يتصل بظهور الأدب الشعبي وازدهاره .

ولهذا كان لا بد لي من أن ألم بالبيئة العامة في المملكة البويهية لاستعين بها على فهم أو تفسير الظواهر الأدبية التي ازدهرت أو التي جددت أيام البويهيين فقد كان هناك كثير من الظواهر الأدبية لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا إذا علل بعامل متصل بالسياسة أو بالاجتماع أو بالطبيعة وسيجد القارى في فصول هذا البحث أمثلة كثيرة لذلك . وقد جعلت هذا البحث مبنياً على قسمين وخاتمة ، تحدثت في القسم الأول عن البيئة العامة فألمت بمظاهر البيئة الطبيعية والسياسية والاجتماعية تمهيداً للكلام على الحياة الأدبية في العصر البويهى وتحدثت في القسم الثانى عن أثر البيئة العامة فى حياة الأدب والأدباء وما أنتجت من فنون أدبية ، فظهر لى بعد البحث أن الأدب العربى قد تأقلم فى فارس والعراق أيام البويهيين كنتيجة لتأثر الأدباء ببيئتهم العامة تأثراً قوياً ، إذ سيطرت هذه البيئة على مشاعر الأديب البويهى وعواطفه وأفكاره فوجهته



## (ن)

كما تشاء وتهوى بحيث إنه أصبح لا يملك من أمره شيئاً ، ولهذا سنراه ، وهو تحت تأثير البيئة الطبيعية ، إما معجباً بالرياض والزهور والمياه والشلوج يتغنى بجمالها وفتنتها وسحرها ، وإما ساخطاً على الحر والبرد والأمطار والحشرات يشكو أذاها وقسوتها . وسنراه ، وهو تحت تأثير البيئة السياسية إما خاضعاً لذوى النفوذ والسلطان متملقاً لإيامهم ، متمرعاً تحت أقدامهم ، ممتدحاً أفعالهم ، مرضياً رغباتهم ، وإما نائراً بهم ، ناقماً عليهم ، منتقداً حكمهم ، ذاماً سيرتهم . وسنراه أيضاً ، وهو تحت تأثير البيئة الاجتماعية ، إما ناعماً ، مترفاً ، يغنى أنعاماً مرحة في نعيمه وترفه وزهوره ، وإما بانساً محروماً يغنى أحياناً حزينته في بؤسه وفقره وحرمانه .

ولهذا كانت أغراض الأدب التي أنتجها هذا الأديب تفجماً وشكوى ، وتسولاً واستجداءً ، ومجوناً وخلاعة ، ونوادير ومسليات وطرائف ، وديوانيات وإخوانيات ، وأوصافاً للأشياء العارضة ول مناظر الطبيعة الفاتنة وغير الفاتنة وكانت أيضاً مديحاً وهجاء ورثاء .

ثم تحدثت في الخاتمة عن الخصائص الفنية التي امتاز بها هذا الأدب عن غيره من الآداب الإقليمية الأخرى ، ممثلة في هذا الأسلوب المحلى بالسجع والبديع المبني على المبالغة والتحويل ، وفي هذا الأسلوب الذي يمتاز بالبساطة والسذاجة .

وبعد ، فهذه محاولة لدراسة الأدب البويهى على أساس إقليمى ، توخيت فيها الإيجاز ورسمت فيها الخطوط الأساسية التي سار فيها الأدب زمن بنى بويه ، معترماً العودة إلى هذا الموضوع متى سنحت الفرصة الملائمة لالتناوله بالبحث على نطاق واسع إن شاء الله ؟

محمود غناوى الزهبرى

## الفهرس

### القسم الأول في البيئة العامة

#### الباب الأول

الفصل الأول - البيئة الطبيعية : الأقاليم التي قامت عليها الدولة البويهية ، حدودها ، مناخها ، طبيعة أرضها ، نباتاتها ، فواكهها .  
١٢ - ٣

الفصل الثاني - الحالة السياسية : انهيار المملكة الإسلامية على يد العناصر الأجنبية ، ظهور بني بويه ، نسبهم ، تكوين دولتهم ، استيلاؤهم على العراق وفارس والجيل والأهواز ، تشييعهم وأثره في موقفهم من الخلفاء ، الحالة الإدارية في عهدهم ، نزعاتهم الفارسية ، استخدامهم الفرس في مناصب الدولة الكبرى .  
٢٥ - ١٣

الفصل الثالث - الحالة الاجتماعية : تأثير الحياة الاجتماعية بالتراث الشرقي القديم ، تسرب العادات والتقاليد والأنظمة الفارسية وغيرها إلى المجتمع الإسلامي بعد الفتح العربي ، الظواهر الاجتماعية التي أدت إلى تفسخ المجتمع البويهي ، الحالة الاقتصادية ، الأغنياء والفقراء وأثر الغنى والفقير في حياة الناس .  
٥٥ - ٣٦

### القسم الثاني في أثر البيئة العامة في الأدب البويهي

#### الباب الأول - أثر البيئة الطبيعية

تمهيد - أثر الطبيعة في أعضاء الإنسان وأخلاقه وحياته النفسية

(ع)

وفي إنتاجه الأدبي، تأثر أدباء النهضة الإيرانية بدينتهم الطبيعية قبل العصر البويهي، ثورة أبي نواس وأضرابه من شعراء الفرس بمناهج الشعر القديم وتعليقها، انتكاس حركة التجديد على يدي أبي تمام والبحترى في القرن الثالث وتعليل ذلك، قيام الإمارات الإسلامية وظهور الآداب الإقليمية، تأثر أدباء العصر البويهي بدينتهم الطبيعية وعزوفهم عن الشعر الجاهلي والجزيرة العربية.

٧٠ - ٥٨

الفصل الأول - الطبيعة الصامتة : الرياض والمياه والحر والبرد والرياح والسحب والأمطار والثلوج والفواكه وأثرها في أدباء العصر البويهي .

١٠٢ - ٧١

الفصل الثاني - الطبيعة الحية : الحيوان والطيور والحشرات المؤذية وأثرها في أدباء العصر البويهي .

١١٢ - ١٠٢

الباب الثاني - أثر الحالة السياسية

نظرة عامة - تأثر الأدباء بحالة مجتمعه السياسية والاجتماعية، تصوير الأدباء لحياة الطبقة الأرستقراطية وإهمال الطبقة العامة، اتساع مجال الأدب وتنوعه في العصر البويهي وتعليل ذلك.

١١٧ - ١١٢

الفصل الأول - صلة الأدب بالسياسة في القرن الرابع : أثر السياسة في الأدب، التنافس بين الملوك والوزراء في العواصم الإسلامية

## (ف)

حول تشجيع الأدباء والعلماء واستخدامهم في المناصب  
الحكومية ، تحليل ذلك . ١١٨ - ١٢٥

الفصل الثاني - أثر بني بويه في الأدب : تشجيع ملوك آل بويه ووزرائهم  
للأدب والعلم والفلسفة ، تعدد البيئات العلمية والأدبية  
بتعدد العواصم ، عضد الدولة ، ابن العميد ، الصاحب ،  
ابن سعدان ، الوزير المهلب ، سابور بن أردشير ، وأثرهم  
في الحياة الفكرية . ١٢٦ - ١٣٦

الفصل الثالث - الأدب الرسمي : الرسائل الديوانية ، شعر المديح ،  
استخدامهما في الدعاية الحكومية وتضليل الشعب عن  
الواقع ، أشهر الكتّاب والشعراء الذين احتشدوا في  
قصور الملوك والوزراء ، الأدب المعارض لهذا الأدب  
الرسمي . ١٣٧ - ١٥١

الفصل الرابع - أثر الروح الفارسي في الأدب : إحياء الرسوم الفارسية  
في هذا العصر ، ليلة القوود ، تقديس الملوك ، حب  
الفخفخة والعظمة ، الأعياد ، أثر ذلك في الأدب ،  
الأدباء الذين قاوموا هذا اللون من الأدب ، بديع الزمان  
الهمذاني والشريف الرضي . ١٥٢ - ١٦٩

الفصل الخامس - أثر الشيعة في الأدب : تشجيع البويهيين لظاهرة التشيع ،  
الطقوس الشيعية الغالية ، أثرها في الأدب ، أشهر أدباء  
الشيعة في هذا العصر ، الطقوس السنوية الغالية وأثرها في  
الأدب ، أشهر أدباء السنة . ١٧٠ - ١٨٧

(ص)

## الباب الثالث - أثر الحالة الاجتماعية

١٨٨ - ١٩٩

تمهيد -

الفصل الأول - أدب النعيم : البيئات المترفة ، التأنق في الطعام ، وصف الأطعمة ، التأنق في مجالس الشراب ، وصفها ، أثرها في كثرة المقطعات الشعرية ، الإخوانيات ، ازدهارها في ظل بني بويه وتعليقه . ١٩٠ - ٢٠٨

الفصل الثاني - أدب الحرمان : الكدية والمكدون ، بنو ساسان ، أشهر شعراء الصعاليك ، الأحزف العكبري ، وأبو دلف الخزرجي ، المقامات ، تطورها ، مبدعها ، آراء القدماء والمحدثين في ذلك ، مناقشة هذه الآراء ، دلالة المقامات على الحياة الاجتماعية ، أدب الشكوى من الظلم والفقر والزمان ، أشهر الأدباء الشاكين . ٢٠٩ - ٢٤٧

الفصل الثالث - أدب المجون : طغيان المجون على المجتمع البويهى ، أدب الخمر والغناء ، انهالك الناس في شرب الخمر وسماع الغناء ، تعليق ذلك ، الغزل بالغلمان والجوارى ، شيوعه بين العامة والخاصة ، أشهر الشعراء الذين تغزلوا بالغلمان والجوارى ، أدب المقاذر والفحش ، أشهر الشعراء الما جنين في زمن بني بويه ، ابن الحجاج ، ابن سكرة ، تعليق طغيان المجون على المجتمع البويهى . ٢٤٨ - ٢٩٠

(ق)

خاتمة في خصائص الأدب البويهى - خصائص الأدب البويهى الرفيع ،  
التألق في الأسلوب والمبالغة في المعاني ، تعليل ذلك . خصائص الأدب  
البويهى الشعبي .

٢٩١ - ٣٠٤





## الباب الأول

### الفضل الأول

#### البيئة الطبيعية

كانت دولة بني بويه تسيطر على أربعة أقاليم هي : إقليم الأهواز وإقليم الجبال . وإقليم فارس . وإقليم العراق ، ومعنى ذلك أنها كانت تشتمل على معظم الهضبة الإيرانية والسهول المجاورة لها .

وعلى هذا كان يحدها من الجنوب البحر الهندي وخليج فارس . ومن الشرق إقليم كرمان . ومفازة خراسان ، ومن الشمال جرجان وطبرستان ومن الغرب أذربيجان والموصل وبادية العراق . بيد أن نفوذ البويهيين كان يمتد في بعض الأحيان إلى ما وراء هذه الحدود تبعاً لقوة جيوشهم وضعف أعدائهم من السامانيين في خراسان ، والزياريين في طبرستان ، والحمدانيين في الموصل والجزيرة الفراتية ، ولا سيما في عهد أعظم ملوكهم عضد الدولة ( ٣٦٥ - ٣٧٢ ) الذي وحد المملكة تحت سلطانه ، ثم أضاف إليها طبرستان وجرجان والموصل وكرمان وعمان .

\*\*\*

وتتألف هذه البلاد التي قامت عليها الدولة البويهية ( ٣٢١ - ٤٤٧ ) من منطقة جبلية وأخرى سهلية ، وهما بالرغم من اختلافهما في شكل الأرض



وخصائص المناخ وأنواع النباتات، تسكونان وحدة جغرافية متصلة الأجزاء فهده السهول التي تبدو أول وهلة غريبة عن الجبال المتاخمة لها ما هي إلا أثر من آثار السيول المنحدرة من أعالي تلك الجبال المشرفة عليها، إذ تحمل معها الأتربة إلى البحر فتتراكم فيه فإذا مياهه تنحسر على مر السنين عن أرض سهلة مستوية، قوية الخصب والثمار .

ولعل تشابه الحضارات التي قامت في هذه البقعة من الأرض، وتأثر بعضها ببعض هما من أقوى الأدلة على وجود هذه الوحدة الجغرافية فليس من شك في أن حضارة سومر كانت أساسا لحضارة بابل وآشور في العراق، وأن هذه الحضارات مجتمعة كانت أساسا لحضارة فارس القديمة وأن حضارة فارس هذه كانت أساسا للحضارة الإسلامية فيما بين النهرين .

ونحن إذ نحاول الآن أن نلم بأحوال هذه البلاد الطبيعية لا بد لنا من أن نقسمها قسمين :

أولهما : الهضبة الإيرانية ، وثانيتها : سهول العراق وخوزستان .  
أما الهضبة الإيرانية فإنها تتكون من سلسلة جبال تمتد من الشمال إلى الجنوب بانحدار تدريجي حتى تنتهي بالسهول الضيقة على شواطئ الخليج الفارس والبحر الهندي . وفي هذه المنطقة ترتفع الجبال الشاهقة في الجوار آلاف من الأقدام عن سطح البحر حيث تنخفض درجة الحرارة ويبرد الجو إلى درجة عظيمة ، وحيث تتحول السحب إلى ثلوج تسقط على قن الجبال وعلى سفوحها وأوديتها فتتراكم طبقات فوق طبقات وذلك في فصل الشتاء . ومن الطبيعي أن تلقى الكائنات الحية تحت وطأة هذا الطقس القاسي ألوانا من المشقة والعناء ، فتقف الحقول والمزارع من النباتات ، وتتعري الأشجار من الورق ، وتهجر الطيور أوطانها إن استطاعت إلى الهجرة سبيلا

وتلوذ الحيوانات بالكهوف والغيران. أما الانسان وهو أوسع هذه المخلوقات حيلة وأقواها على مغالبة الطبيعة ، فانه يلجأ الى الدثار والنار والبيوت لعلها تحميه من البرد والبرق والرعد والسيول والعواصف الهوج ، ولكنه مع ذلك يتشقق وجهه من البرد ويسيل أنفه ، وتخضر أطرافه وتنهافت دوابه وتوكف سطوح بيته<sup>(١)</sup>

وقد عرفت هذه المنطقة بشدة البرد وكثرة الثلوج ولا سيما همذان فهي موصوفة من بين بلدان الجبل بشدة البرد حتى كثر الشعر في وصفها فمن ذلك قصيدة طويلة لأحمد بن بشار شاعر همذان تصور ما كان يعانيه أهل الجبال من عذاب شديد في فصل الشتاء الطويل نذكر منها هذه الآيات (٢)

قد آن من همذان السير فانطلق	وأرحل على شعث شمل غير متفق
أرض يعذب أهلها ثمانية	من الشهور كما عذبت بالدهق <sup>(٣)</sup>
ثلثي حياتك ماتتها بنافعة	الا كما انتفع الجروض بالرمق
إذا ذوى البقل هاجت في بلادهم	برد وغلقت الأبواب بالغلق
أما الغنى فمحصور يكابدها	طول الشتاء مع اليربوع في نفق
يقول أطبق وأسبل يا غلام فقد	خشيت أجمد من برد ومن دهق <sup>(٤)</sup>
والمملقون بها سبحان ربهم	ماذا يقاسون طول الليل من أرق
تنسد أبوابهم بالثلج فهم ولهم	دون الرتاج رتاج غير منطبق

\* \* \*

هذا في فصل الشتاء أما في فصل الربيع فقد تتغير الأحوال ويتبدل وجه الأرض ، ذلك أن حرارة الشمس في هذا الفصل تقوى وتزداد ، فيخف

(١) المقدس : أحسن التقاسيم ص ٣٨٤ (٢) البلدان لابن الفقيه ٢٣١

(٣) الدهق : خشبتان يهنيق بهما على ساق المذنين

(٤) الدهق الريح الشديدة يصحبها ثلج والكلمة فارسية

البرد ، ونذوب الثلوج وتنبعث الحياة في السمكائنات من جديد ، فاذا الاتساق يسعى والحيوان يدب ، والطيير تنطلق والنبات يتنفس بعد ركود طويل ، فتكثر المروج الخضراء ، والغابات المورقة ، والرياض الزاهرة ، حتى قال أحد الهمذانيين مقتخراً على واسطى : « فاذا جاء الربيع فلنا الجنان المتصلة والرياض الخضرة والأنوار الحسنة والأمياه المطردة والأرواح الطيبة والمواضع النزهة ثم لنا من الأنوار والزهر والرياض والغدران ما لا يكون في بلادكم ولا يعرف عندهم حتى لقد جهد ملوككم وكتابكم وذوو النعمة منكم أن ينبتوه عندهم في جناتهم وبساتينهم ، فلم ينبت منهم شيء مثل الزعفران والزردلال ... الخ (١) »

وكما أكثر الشعراء في وصف الشتاء كذلك أكثروا من وصف الربيع ولا سيما ربيع إروند :

ألقى الربيع على إروند هاخلعها	خضراً وخلعته البيضاء قد نزعا
للماء فيه خير رجوع نغمته	في الروض ترجيع نشوان اذا سجعا
اذا الشمال عليه جر أذيله	حسبته سوق عطر بينها وضعها
فانظر الى بطن أورند البهي ترى	بابا من الفردوس قد شرعا (٢)

والربيع في هذه المنطقة الجبلية ما هو الا مقدمة لفصل الصيف الجميل الذي يعتدل فيه الهواء وينمو فيه الزرع ويدر الضرع ويشمر الشجر .

ولجمال الصيف في هذه البلاد كان ملوك الفرس القدماء يشتمون في العراق ويصطافون في همذان ( اكباتانا ) (٣) ، لأنها « تقع في واد خصيب رائع المنظر ترويه مياه الثلوج الذائبة التي تنحدر اليه من المرتفعات وقفن

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٥

(١) البلدان لابن الفقيه ص ٢٢٥

(٣) الحضارة الاسلامية تأليف متز ٢ : ٣٥٠

## الجبال ، (١)

ولا يفوتنا أن نذكر بعض ما قال المقدسي في هذا الاقليم الجبلي فقد وصفه بأنه : « اقليم حشيشه الزعفران ، وشراب أهله العسل والألبان ، وأشجاره الجوز والإيتان ، نزيه بهي ، خصيب ، وله شان ، به الرى الجليلة وهمدان والسكرية النفيسة أصهبان ، لا حر به ولا براغيث ، ولا ذبان ولا أفاعى ، ولا عقارب ولا ديدان ، فى الصيف جنة وروضة وبستان » (٢)

أما جنوب الهضبة الايرانية فقد كان يسمى قديما اقليم فارس ويجعله الجغرافيون القدماء ثلاث مناطق « سرود (٣) وجروم » وما بينهما ، وقد بنوا تقسيمهم هذا على ما لاحظوه من اختلاف المناخ بين أجزاء هذا الاقليم فالسرود باردة حتى ليلبغ من شدة البرد فيها أن لا ينبت عندهم شىء من الفواكه سوى الزرع ، والجروم حارة بحيث يلبغ من شدة الحر فى الصيف الصائف ألا يثبت عندهم شىء من الطيور .

أما المدن التى فى المنطقة الفاصلة بين السرود والجروم فقها ما فيها من النباتات والأشجار مثل فسا وجور وشيراز وسابور والنوبندجان وكازرون . ولما كان هذا الاقليم مختلفا فى طقسه وفى تضاريس أرضه أصبح غنيا بمنازله وفواكه وحبوبه .

قال المقدسي فى وصفه : « اقليم ترابه معادن وجباله مشاجر وشوكه العزروت... به نخل واترج وزيتون وأقصاب وعكوب وجوزولوزوخرنوب وبه المنازه المذكورة والقصبات المشهورة والمدن الطيبة كفسا وشعب بوان

(١) قصة الحضارة الفارسية ترجمة الدكتور ابراهيم امين ص ٤

(٢) احسن التقاسيم ص ٣٨٤

(٣) اعلمهما من كلمتى « سرد بمعنى بارد » و « كرم بمعنى حار »

وسابور ونوبندجان ودارا مجرد الجليلة الشأن ، ولا يخفى فضل سيراف وأرجان ، وباصطخر العجائب والبنيان وقد جلت جور على البلدان بما ورد وأسباب ..

ثم قال . « ففارس اقليم طيب ، كثير الخيرات ومعدن التجارات ، وسئل يوما : كيف وجدت فارس ؟ قال . وجدتها أشبه الاقاليم بالشام لأنها تجمع أصداد الثمار .»

ووصف كورة سابور فقال : (١) « كورة زريهة قد اجتمع في البستان الواحد منها : النخل والزيتون والأترنج والخرنوب والجوز واللوز والتين والعنب والسدر وقصب السكر والبسنفج والياسمين . وترى الأنهار جرية والثمار دانية والقرى ممتدة تمشى الفراسخ تحت ظل الأشجار .»  
العراق وخوزستان :

كان العراق قديما يشتمل على ست كور فقط هي السكوفة والبصرة وواسط وبغداد وحوان وسامراء . وقد حدده الاصطخرى من الشرق بخط يمر من هذه البلاد على الترتيب وهي : تسكريت - شهرزور - حلوان - سيروان - صيمرة - الطيب - السوس - جى ثم البحر . وحدده من الغرب بخط آخر يمر بهذه الأماكن على التوالي : بادية البصرة وسوادها وبطائحها ثم واسط فالسكوفة . فالانبار فتسكريت .

ويتألف هذا الاقليم من سهل منبسط . ذى تربة خصبة صالحة للزراعة طول العام . تسقيه شبكة واسعة من الأنهار والروافد والنهيرات والجداول وكانت دجلة والفرات وأكثر الأنهار المتفرعة منهما صالحة للملاحة وكان يجري عليها كثير من أصناف القوارب الشديدة الاختلاف ، وقد أضيف

(١) احسن التقاسيم ص ٢٢٠

عليها في القرن الرابع الطيارات والحديديات التي كانت ترسو على أبواب كبار العمال . وكان صياح الملاحين الى جانب صوت آلات رفع الماء مما تمتاز به بلاد العراق (١)

وكانت أكبر شبكة من النهرات توجد شرقي البصرة وقد أحصيت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة وعشرين ألف نهر تجرى فيها الزواريق، وتكثر في هذه المنطقة من اقليم العراق غابات النخيل تتخللها الأنهار المتقاطعة، وكانت هذه النخيل تمتد الى مسافات كبيره على هيئة خطوط مستقيمة .

ومن الظواهر الطبيعية التي تتأثر بها هذه البقعة مد الماء وجزره مرتين في اليوم ، فاذا جاء المد من البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل البساتين والجنان ، واذا جزر الماء عنها خلت منه البساتين والنخيل (٢) . قال المقدسي والجزر والمد أعجوبة على أهل البصرة ونعمة يزورهم الماء في كل يوم وليلة مرتين ويدخل الأنهار ويسقى البساتين ويحمل السفن الى القرى ، فاذا جزر أفاد أيضا عمل الأرحية لأنها على أفواه الأنهار . (٣)

وقد تزداد مياه دجلة والفرات وروافدهما على أثر ذوبان الثلوج في منطقة الجبال أوائل الربيع ، فتطغى هذه المياه على السهول ، فتغرقها وتحولها الى مستنقعات وبحيرات لا سيما بين واسط والبصرة حيث يتشعب دجلة ثلاث شعب تنصب كلها في مستنقعات وآجام تسمى البطائح . وكانت هذه البطائح من الأسباب المهمة التي أدت الى عذم استتباب الأمن في جنوب العراق خلال القرن الرابع الهجري ، ذلك أنها كانت الملجأ الآمن الذي

(١) متز ٢ : ٣٢٣ . (١) مسالك الممالك للاصطخري ص ٨٠ ، ٨١

(٢) أحسن القاسيم ص ١٢٤

يعتصم به اللصوص وقطاع الطرق من أمثال عمران بن شاهين الذي غلب على تلك النواحي حتى تجرأ أصحابه على جند السلطان وصاروا يطالبون القواد والعمال بحق المرصد والخفارة ، وبالرغم من أن معز الدولة أرسل إليه الجيوش لتأديبه أكثر من مرة ، فإنه استطاع أن يهزمها شر هزيمة بحيث اضطر معز الدولة الى مصالحته واجابة كل مطالبه ، فقلده البطائح عام ٣٢٩هـ . أما مناخ العراق على وجه العموم فهو من النوع « القارى » الذى يكون فيه الفرق بين حرارة الصيف وحرارة الشتاء كبيراً جداً ، كما يكون فيه الفرق بين حرارة الليل وحرارة النهار كبيراً أيضاً وذلك لأن العراق يقع تحت تأثير الرياح الغربية الجافة الآتية من ناحية الصحراء .

ولذلك كان صيفه ذا حرارة شديدة وسموم لافح أشبه شئ بلمهيب النار ولشدة حرارته يلجأ الناس صيفاً الى استعمال الخيش والمراوح أو الاعتصام بالسرايب الأرضية أكثر ساعات النهار ولشدة حرارته أيضاً تهجر بعض الطيور أرض العراق فلا تعود لئله إلا فى أواخر الخريف ، ولكن هذا الطقس الحار المزعج الذى يستمر أكثر ساعات النهار لا يلبث أن ينقلب الى طقس لطيف ، وادع هادىء ، فى أثناء الليل فترى السماء صافية والنجوم لامعة ، والنسيم عليلاً . وعند ذاك تبدأ الأعصاب التى أنهكها حر النهار فتستيقظ النزوات الكامنة فى النفوس تبتغى الرى والاشباع .

قال المقدسى (١) : « هوام هذا الاقليم مختلف ، فبغداد وواسط وما دخل فى هذا التصقع بلد رقيق الهواء ، سريع الانقلاب ، ربما توهج فى الصيف وأذى ، ثم انقلب سريعاً ، والكوفة بخلافه ، ويكون بالبصرة حر عظيم غير أن الشمال ربما هبت فطاب » .

(١) احسن التقاسم ص ١٢٥

وقال أيضا : «وقرأت في أخبار البصرة : عيشنا في البصرة عيش ظريف  
إن هبت شمال فنحن في طيب وريف ، وإن كان جنوب فإننا في كنيف ،»  
وذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٧٨ أن الوباء قد وقع في البصرة والبطائح  
من شدة الحر فمات خلق كثير حتى امتلأت منهم الشوارع .

وأما شتاء العراق فعلى العكس من صيفه تماما ، فهو بارد شديد البرودة  
لاسيما في الليل ، إذ تنخفض درجة الحرارة الى ماتحت الصفر فتتجمد قطرات  
الندى وغدران المياه فتكسو الأرض وما عليها من أشباح ثوبا أبيض تنعكس  
عنه أشعة الصباح في لمعان وبريق .

قال المقدسي : « وربما جمد الماء في البصرة وجميع بغداد ، (١) . ولذلك  
نرى الناس شتاء يستعينون بالنار وبالملابس الكثيرة وبالأغطية الثقيلة  
ليتقوا شر هذا البرد الشديد ، ولكنهم - مع ذلك - إذا خرجوا من مساكنهم  
عند الصباح يسعون في طلب الرزق ، تحمر وجوههم وتخضر أناملهم ويصعب  
عليهم الكلام والحركة .

وفي هذا الفصل يتلبد الجو بالغيوم في كثير من الأحيان فتسقط الأمطار  
الغزيرة وتتألق البروق وتهدر الرعود ، وقد تكون مصحوبة بالرياح العاتية  
التي تقتلع الأشجار وتهدم البيوت في بعض الأحيان .

وبين هذا الصيف القائل وهذا الشتاء البارد اللذين يستأثران بأكثر  
أيام العام ، فترتان قصيرتان من الزمان يعتدل فيهما الجو ويأطف  
هما فصلا الربيع والخريف ، فالربيع على قصره قد حياه الله جمالا رائعا  
لكثرة رياضه وجنانه .

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٦



ويظهر أن اختلاف المناخ وخصوبة التربة وتوافر المياه قد كانت سببا  
في تنوع الأثمار والحيوانات والطيور والحشرات وكثرتها . . .  
أما خوزستان :

فهو عبارة عن سهل ضيق يقع بين البحر والعراق وفارس والجيل ، تشق  
أكثره الأنهار التي تجري في جميعها السفن ، وتغلب على طقسه الحرارة ،  
فليس فيه موضع يجمد فيه الماء ، ولا يقع فيه الثلج ، ولا يخلو من النخيل .  
وهو كثير الثمار والارزاق وقصب السكر والانجاص والرطب والاترنج  
والعنب والرمان والحبوب والحشرات المؤذية كالبق والبراغيث والذباب  
والعقارب . . . الخ

هذا مجمل الأحوال الطبيعية للبلاد البويهية . ترى ماذا كان أثرها في أدب  
هذه الحقبة ؟

ذلك ما سنتناوله في فصل آت .



## الفصل الثاني

### الحالة السياسية

- ١ -

ليس جديداً إذا قلنا إن الدولة الإسلامية قد بسطت نفوذها على أقطار من الأرض كثيرة تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً من حيث اللغة والدين والثقافة والعادات والتاريخ وأحوال الأقاليم .

وليس جديداً أيضاً إذا قلنا إن هذه الشعوب التي أظلمها الإسلام قد تقاربت مؤثرة ومتأثرة بعضها ببعض بحكم الجوار والامتزاج والاشترك بمظاهر سياسية وأخرى اجتماعية بحيث يتخيل لدارس تاريخها في القرنين الأول والثاني أن الفروق القومية قد تلاشت واندرت ، وأن هذه الشعوب قد أصبحت أمة واحدة بدليل أن الرأي العام في هذه المملكة المترامية الأطراف كان يستنكر كل حركة سياسية أو دينية أو فكرية تخرج على النظام القائم وكان يصفها بأشنع الأوصاف .

فاذا تمرد زعيم في صقع من الأصقاع قيل إنه مارق أو خبيث أو ناجم، وإذا جام إنسان ما بفكرة جديدة تخالف المألوف عند الناس رمى بالإلحاد والزندقه وإذا تناول شاعر معنى لم يطرقه شاعر قبله قامت قيامة النقاد عليه، فأبو نواس فاسق خليع وأبو تمام خارج عن عمود الشعر . . . وهكذا .

وليس غريباً أن يكون الأمر كذلك ، فهذه الشعوب المختلفة قد أخذت تتكلم لغة واحدة أو كادت ، وتدين بدين واحد . وتخضع لنظام سياسي

واجتماعي معين ، اشتركت في بنائه جميع الشعوب حتى إنه كان يعز على تلك الأمة الاسلامية أن يمس هذا النظام بسوء . . . فالخلافة منصب مقدس عند هؤلاء المسلمين ، وأمير المؤمنين رمز تجتمع فيه معاني الاسلام ، طاعته واجبة وعصيانه يثير سخط الناس على العاصي .

وإذن فقد كان من المتوقع أن يبقى هذا النظام قائما ، وأن تظل هذه الشعوب متماسكة الى أجل طويل . ولكن ما كاد القرن الثالث يشرف على نهايته حتى رأينا الوحدة الاسلامية يدب فيها الضعف والانحلال فاذا هي متصدعة ، واذا هي منقسمة على نفسها وحدات سياسية مستقلة أو كالمستقلة ترى ما سبب ذلك ؟

أما المؤرخون فإنهم يوردون لذلك أسبابا لا تخرج في مجموعها عن ضعف خليفة أو سوء تدبير وزير أو طموح وال أو دعوة لمذهب أو طغيان قائد أو نحو ذلك . فالمؤرخون على هذا يجعلون الأشخاص - كعاداتهم - محورا للأحداث السياسية . أما نحن فلا نريد أن نفهم التاريخ على هذا النحو وإنما نريد أن نفهمه على أنه مظهر من مظاهر الامم النفسية والمادية تتركز فيه رغباتها وآمالها وآلامها أيضا .

أريد أن أقول . إن سبب هذا الانقسام في الدولة الاسلامية يرجع في الدرجة الاولى الى الشعوب التي لا يمكن أن تفقد خصائصها القومية التي تكونت على مدى الأجيال بمجرد خضوعها للسلطان الاجنبي ردحا من الزمن ، إذ ليس من المحقول أن تسير أية أمة من الامم في وجهة تأبأها أو تحيا حياة روحية لم تفهمها أو تتذوق الحياة بذوق غير ذوقها

لذلك نرى هذه الشعوب تنتهز كل فرصة للإفصاح عن مشاعرهم المكبوتة بنشئ الوسائل منذ اللحظة الاولى التي فقدت فيها كيانها السياسي ، اذ كانت

تحس في نفسها حاجة للانفصال والاستقلال ، فلما ضعفت السلطة المركزية في بغداد وجدت هذه الشعوب الفرصة الملائمة فثارت وانفصلت واستقلت . وتلك نتيجة حتمية ، بل ضرورة لا بد منها لكل دولة مترامية الأطراف تسيطر على شعوب متباينة في الحضارة والتراث القومي وأحوال الاقليم .

\* \* \*

ونحن إذ نحاول أن نرسم الخطوط الرئيسية للحياة السياسية والاجتماعية في عصر بني بويه الذين ينتسبون إلى الأمة الفارسية نرى لزماً علينا أن نتبع النشاط السياسي والاجتماعي للعنصر الفارسي في ظل الحكم العربي باختصار لنرى كيف قامت الدولة البويهية الفارسية من جهة ، وكيف أثر الفرس في بناء الوحدة الاسلامية سياسياً واجتماعياً من جهة أخرى .  
ولسكننا قبل ذلك نود أن نعرف من هم آل بويه ؟ ولمن ينتسبون ؟ ، وكيف كانوا يعيشون قبل أن يؤول اليهم السلطان ؟ فنقول :

إن بني بويه هؤلاء من الديلم الذين كانوا يسكنون البلاد الواقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر ، وهم شعب بدوي يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة وقلة المبالاة كما يقول الاصطخري (١) ، وكانوا وثنين بالرغم من أن بلادهم قد افتتحها المسلمون منذ عهد عمر بن الخطاب (ض) ، ذلك أنهم استمروا خاضعين للحكم الاسلامي مع بقائهم على وثنيتهم فلم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . غير أنهم دخلوا الإسلام منذ أن حل بينهم الحسن بن علي الأطروش الذي لبث فيهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام وينشر بينهم المذهب الزيدي ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم ، فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبني لهم المساجد .

(١) مسالك الممالك ص ٢٠٣

وكان ذلك أول القرن الرابع الهجري . (١)

أما أسرة آل بويه الديلية فإنها لم تسكن معروفة لدى المؤرخين قبل التوسع الديلي . وكل ما يعرفه المؤرخون عنها هو أنها تبدأ بأبي شجاع بويه الذى كان رجلاً فقيراً يعيش هو وأولاده الثلاثة على صيد السمك واحتطاب الحطب . فقد ذكر ابن خلكان أن معز الدولة كان أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، وقد اعترف بذلك بعد أن أصبح ملكاً . (٢)

ثم إن بويه لفقره أدخل أولاده فى خدمة قواد الديلم جنوداً مرتزقة فتقلب بهم الأحوال حتى أصبحوا ملوكاً قد خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد بعد ما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة . ومنذ ذلك الحين أصبح لهذه الأسرة التى أسسها الإخوة الثلاثة : على والحسن وأحمد ، أبناء بويه ، مكانة مرموقة فى التاريخ الإسلامى .

ولسكنهم على ما يظهر لم يكتفوا بما تهبأ لهم من مجد حديث بل حاولوا أن يصلوه بمجد قديم ، فأوحوا الى بعض السكتاب بأن يخترعوا لهم مآثر قديمة ، وأن يخلقوا لهم نسباً مشرفاً يصلهم بملوك الفرس القدماء ليجمعوا المجد من أطرافه ، فنشأ من أجل ذلك اختلاف بين المؤرخين حول نسب البويهيين فمنهم من ينسبهم إلى الملك الساسانى بهرام جور ، ومنهم من يرفض هذه النسبة ويرجعهم الى كبير وزرائه مهران نرسى ، ومنهم من يبالغ فى تمجيدهم حتى يلحقهم بالآلهة . غير أن الثقة من المؤرخين القدامى يؤكدون لنا أن آل بويه أول أمرهم لم يكونوا ذوى مآثر ، كما لم يكونوا ذوى نسب فى الملك عريق ، وإنما كانوا من دهماء الناس ، فقد كان أبو شجاع بويه وأبوه وجده

(١) ابن الاثير ٦ : ١٤٦ والنجوم الزاهرة ٣ : ١٨٥

(٢) وفيات الاعيان ١ : ٥٦

كأحد الرعية الفقراء ببلاد الديلم .

من ذلك ماحدثنا به صاحب تجارب الأمم عن ركن الدولة إذ قال :  
« . . . وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم مالا يمكن أحداً  
تلافيه وردم عنه ، وكان مضطراً إلى فعل ذلك ، لأنه لم يكن من أهل بيت  
الملك ، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمثل جميع أمره ، وإنما يرأس  
عليهم بسياحة كثيرة كانت فيه ومساحة في أشيائها لا يحتملها أمير عن أمور ، »  
وكذلك يذهب كاتب مادة ( بويه ) في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن  
شجرة نسب الأسرة البويهية « في مجموعها ليست سوى محاولة لتمجيد هذه  
الأسرة »

ومهما يكن فإن مسألة انتساب البويهيين إلى ملوك الفرس هي من نسج  
الخيال ، ومن وحى الغرور الذي يصيب الأسرحين ترتفع من الضعة والخمول  
إلى ذروة المجد والعظمة . وذلك أمر ليس مقصوراً على بني بويه وخدمهم  
دون غيرهم ، بل هو أمر مألوف تلجأ إليه الأسر كما تلجأ إليه الأمم ، إذ  
يحاول أن تمجد ماضيها باختلاق المآثر لأسلافها وانتحال الأساطير حول  
أبطالها ، لكي يكون هذا الماضي مناسباً لحاضرها المجيد ، مدفوعة إلى ذلك بما  
كان سائداً - وما يزال - في المجتمعات من أن السيادة وقف على العناصر  
العريقة في النسب دون غيرها . وتلك ميزة من ميزات المجتمع الطبقي الذي  
ينقسم الناس فيه إلى سيد ومسود ، وشريف ومشروف ، فإذا قدر لأسرة  
وضيعة في مثل هذه المجتمعات أن تنهض وترتقى ، فتصل إلى المجد والسلطان  
حاولت أن تنتحل لنفسها نسبا عربياً لتبرر سيادتها على الناس نظرياً كما تبررته

(١) تجارب الأمم ٦ : ٢٧٩

عملياً بالقوة أو الدهاء أو المكر أو غيرها، وذلك ما حصل بالضبط بالقياس إلى الأسرة البويهية والأسرة الفاطمية وغيرهما من الأسر التي لم تزلت المجد كبراً عن كبار كما يقولون .

إن الأمة الفارسية حينما تغلب عليها العرب عسكرياً ، كانت لها دولة ثابتة الأركان ، وحضارة عريقة في القدم ، فليس من المعقول أن تنسى هذا الماضي المجيد ، وتحيا حياة جديدة لم تعرفها ولم تألفها ، ولذلك نراها منذ خضعت للحكم العربي في صراع متصل مع الغالبين في ميدان الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وقد كان صراعاً معقداً ، ذا ألوان مختلفة كما كان طويل الأمد .

ومظاهر هذا الصراع واضحة كل الوضوح حتى في العصر الأموي حين كان العرب أقوياء وحين كانت سياستهم قائمة على جيوش عربية وعصبية عربية .

وقد ظهر ذلك في موازرتهم لكل ساخط، وفي انضمامهم لكل ثائر على الحكم الأموي ، فمن ذلك أنهم انضموا إلى المختار الثقفي وإلى عبد الرحمن بن الأشعث في ثورتيهما على الدولة الأموية في العراق ، كما انضموا إلى الحارث بن سريج حين ثار في خراسان .

ثم أنهم لم يياسوا بعد أن أخفقت هذه الثورات وأمثالها في تقويض السيادة العربية، بل نراهم ينضمون إلى الدعوة العباسية ويحتضنونها منذ البداية ويغذونها بأموالهم وأرواحهم، حتى استطاعوا آخر الأمر أن يقيموا الدولة العباسية بجيوشهم الفارسية التي انحدرت من هضبة إيران فاكنسحت دولة

بنى أمية ومحت آثارها في شيء كثير جداً من الشدة والقسوة والفظاعة .  
ولاشك أن الفرس كانوا يقصدون من وراء ذلك أن يحققوا بعض  
أهدافهم القومية بما سيكون لهم من كلمة مسموعة وسلطان نافذ في إدارة هذه  
الدولة الجديدة ، وهكذا كان .

ذلك أن بني العباس قد اعترفوا بفضل الفرس عليهم ، فاعتمدوا عليهم  
وعهدوا إليهم بإدارة دولتهم ، فكان منهم الوزراء والحجاب والكتاب وقادة  
الجيش ، وبذلك أصبحت الدولة العباسية تحت نفوذهم الإداري والعسكري  
والفكري .

أما موقف العباسيين من العرب فقد كان مشوباً بالحنزروالاحتياط وسوء  
الظن ، الأمر الذي أضعف مركز العرب في الدولة يوماً بعد يوم ، لا سيما  
في الناحية الحربية ، التي هي أخص ما كان يميز العرب عن سواهم من الأقوام  
بحيث لا نجد في زمن المأمون قائداً عربياً معروفاً .

ولسكن الفرس على ما يظهر كانوا يطمعون في أكثر مما نالوا في ظل  
بني العباس من مكانة ونفوذ ، فلما لم تتحقق هذه الأطماع لجأوا إلى السكيد  
والدس والمؤامرات ضد الدولة التي أقاموها بأيديهم ، فتعرض كثير من  
زعمائهم وقادتهم للبطش والتنكيل من جانب الخلفاء اليقظين ، من ذلك  
قتل أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال وهما من مؤسسي هذه الدولة ومن  
ذلك أيضاً نسكبة آل المورياتي وآل برمك وغيرهم من الوزراء .

ولعل آخر مظهر من مظاهر النزاع الممنوع بين العرب والفرس في عهد  
بني العباس تلك الفتنة المعروفة بين الأمين والمأمون ومن ورائه الفرس ،  
التي انتهت بمقتل الأمين وانزمام حزبه ، وبذلك أحرز الفرس انتصاراً حريياً  
آخر على خصمهم العرب بعد انتصارهم على جيوش الأمويين من قبل .



وليس من شك في أن محاولات الفرس السكثيرة لقلب الدولة العباسية وإخفاق هذه المحاولات وانتهاؤها بنسكبة القائمين بها، قد أدت كلها إلى سوء ظن متبادل بين بني العباس والفرس، مما دفع هؤلاء إلى أن يقوموا بثورات مسلحة ضد الخلافة العباسية، وذلك حين قام بابك الخرمي في أول القرن الثالث بحركة عنيفة ضعفت أركان الخلافة وأقضت مضجعها حينئذ من الدهر .

ويدلنا على مبلغ خطورة هذه الحركة، تلك الانتصارات الباهرة التي أحرزها بابك على جيوش الخلافة، والتي كان من نتائجها أن دخل الياأس قلوب العساكر الخليفة وقوادها فلم تعد تثق بنفسها ولم يعد الخليفة يثق بها .

وقد توفي المأمون وفي قلبه حسرة مما أصابه من الفشل في حروبه مع بابك ومن خوفه على زوال دولة كان من أعظم خلفائها، فلما شعر بدنو أجله دعا إليه أخاه المعتصم، وألح عليه أن يداوم على حرب البابكية بحزامة وصرامة وجليد. (١)

وبعد أن توفي المأمون تولى أخوه المعتصم أمور الخلافة، فوجد نفسه إزاء خطر فارسي داهم يهدد ملكه بالزوال، فماذا يفعل ؟ .

أيعتمد على العرب وقد ضعفت ثقة الخلفاء بهم منذ عهد طويل ؟ أم يعتمد على الفرس وقد رفعوا علم الثورة والعصيان على الدولة، فضلا عن أن تاريخهم مع أسلافه سلسلة من المؤامرات والدسائس ؟ لا شك أن الحزم يقتضيه أن يفكر في حل سليم لهذه الأزمة الشديدة التي حاقت به، فهداه تفكيره إلى أن يصرف النظر عن الفرس والعرب جميعاً، ويتوجه إلى بلاد الترك يستكثر من شراء غلمانها، ويؤلف منهم جيشاً قوياً، استطاع به أن يعيد الأمن إلى نصابه، إذ قضى على بابك وثورته كما قضى على بقية الثورات.

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام تأليف بندلي الجوزي ١ : ١٣

ولكن هؤلاء الأتراك سرعان ما أصبحوا مصدر قلق واضطراب للدولة، مما جعل الخليفة المتوكل على أن يحاول أن يتخلص منهم ويعيد الدولة سيرتها الأولى فعزم على الفتك بهم، ولكنهم أحسوا بالمؤامرة فخرجوا بقتله وقتل وزيره .

وقد كان قتل المتوكل بيد الأتراك أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين منذ أن تأسست الخلافة العباسية إلى هذا التاريخ، ولهذا يعتبر نقطة تحول في حياة الخلفاء الذين أصبحوا بعد ذلك العوبة بيد الأتراك يخلعونهم، ويقتلونهم ويعذبونهم أنواع العذاب .

فهذا الخليفة المعتز، ظل الله على الأرض، يضيق ذرعا بهؤلاء الجنود فيحاول الحد من غطرستهم، ولكنهم يهاجمون في داره ويسحبون من رجله ويضربون بالدابيس ويحرقون قميصه، ثم يقامون في الشمس تلفحه حرارتها، فيرفعون رجلا ويضعون أخرى وتتداوله في أثناء ذلك أيدي الجنود باللطم وهو يتقى بيديه، ثم يمنع من الطعام والشراب ويدخلون في سرداب ويسدوا به بالحصص حتى يموت . كل هذا كان يجري بين سماع الشعب وبصره وهو غير قادر على أن يفعل شيئا لهذا الخليفة المنكود غير التفجع وسفح الدموع :

عين لا تبخل بسفوح الدموع      واندي خير فاجع مفجوع  
خاناه الناصح السفهيه ونالت      ه أكف الردي بحتف سريع  
بكر الترك ناقين عليه خلعتة ، أفديه من مخلوع  
قتلوه ظلما وجورا فالفو      ه كريم الأخلاق غير جزوع  
كذلك كان الخلفاء في عهد الأتراك بين قتل وسجين ومسمول ومحجور عليه .  
أما أمور الدولة التي سيطروا عليها فقد كانت تسير من سوء إلى أسوأ  
ذلك أنهم كانوا منهمكين بالدسائس والمؤامرات فيما بينهم، فأهملوا شؤون

الدولة وتركوها نهبا للظالمين من أمراء الأطراف بحيث لم يبق للخلافة أيام الرضى (٣٢٢ هـ) إلا بغداد. فقد كانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدى، وفارس والرى وأصبهان والجيل في أيدي بنى بويه، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وديار بكر وديار مضر في أيدي بنى حمدان، وأصبحت مصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب و إفريقية في يد عبد الرحمن الناصر، وخراسان في يد نصر بن أحمد، واليمامة والبحرين في يد القرمطى، وطبرستان وجرجان في يد الديلم. (١)

على أن حال الخلافة في بغداد قد ازدادت سوءاً على سوء في عهد الرضى إذ عجز الوزراء عن إدارة شئون البلاد لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة مما دعا الرضى الى استمالة « ابن رائق » ثم سلم إليه مقاليد الأمور ولقبه « أمير الأمراء » وفوض إليه تدبير المملكة بحيث صارت الأموال تحمل إليه فيتصرف بها كما يرى ويطلق لنفقات الخليفة منها ما يريد، فبطل منذ يومئذ أمر الوزارة، فلم يسكن الوزير ينظر في أمر النواحي أو الدواوين أو الأعمال، ولم يسكن له غير اسم الوزارة فقط، والحضور في أيام المواكب إلى دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكناً، ثم تدخل بعد ذلك أمير الأمراء بتعيين الوزراء وعزلهم. (٢)

ولسكن هذا التدبير لم ينقذ الخلافة ولا الشعب من الفوضى، إذ نافس ابن رائق على إمرة الأمراء كثير من القواد مثل بجكم التركي وابن البريدى وناصر الدولة الحمدانى وتوزون وابن شيرزاد، فكان من نتائج هذا التنافس حروب دامية وفوضى شاملة، أصيب الشعب في أثنائها بكثير من الخطوب

(١) ابن الأثير ٨ : ١١٢ ودبوان العبر لابن خلدون ٣ : ٤٠١

(٢) تجارب الامم ٥ : ٣٥٢، والفخرى ص ٩، ٢

والأهوال التي أفاضت بها كتب التاريخ . ولم تنته هذه الفترة الصاخبة التي أطلق عليها المؤرخون فترة « أمير الأمراء » إلا باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ ، وبذلك انتهت سلطة الخلفاء الزمنية ولم يبق لهم إلا السلطة الروحية على تلك المملكة الواسعة . ولا شك أن هذا مصير محتوم لكل دولة تعتمد على عناصر ليست من جنسها في حياتها السياسية والإدارية والحربية .

أما الفرس فإنه لم يهدأ لهم بال منذ أن حل الأتراك محلهم في تدبير أمور الدولة فخره وهم من مراكزهم وسلطانهم في عاصمة الخلافة ، ومنذ أن قضوا على ثورتهم المسلحة أيام بابك الخرمي ، لهذا نراهم يفتنمون فرصة انشغال الأتراك بالمؤامرات والدسائس والحروب الأهلية في العراق فيعدون أنفسهم لثورة استقلالية كبرى أعظم من سابقتها في بلاد الفرس ، فأسندوا القيادة إلى رجل قدير هو يعقوب بن الليث الصفار لما رأوا من تديبه وحسن سياسته وقيامه بأمرهم فأنشأ دولة فارسية ( ٢٦٤ - ٢٩٠ ) كانت من القوة بحيث هددت عاصمة الخلافة بالاحتلال ولولا تضافر جيوش السامانيين وجيوش الخلافة للقضاء عليها لاستطاعت أن تثبت دعائم الاستقلال الفارسي منذ ذلك الحين . (١)

ولسكن الفرس لم يياسوا بعد أن أخفقوا في كفاحهم الطويل ، وما كان ينبغي لهم أن يياسوا ، فقد احتفظت لهم مناطق إيران الجبلية في الشمال بأقوام ما تزال محتفظة بميزاتها البدوية وبقدرتها على خوض المعارك . أولئك هم الديلم الذين كانوا بمثابة قوة مدخرة لميقات يوم معلوم ، فلما حل هذا الميقات

(١) راجع كتاب تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم حسن

أوائل القرن الرابع انساحت جيوشهم التي لم يفقدها نعيم الحضارة، كما أفقد جيوش الخلافة، شجاعته وخشونتها، نحو الجنوب فاحتلت فارس وبلاد الجبل والأهواز والعراق في فترة وجيزة، فكان من آثار ذلك ظهور دولة بني بويه التي حققت للفرس استقلالهم بعد أن كلفوا من أجله مناطويلا.

وذلك أن أولاد أبي شجاع بويه حينما قام الديلم بتوسعهم وفتحهم كانوا جنوداً مرتزقة في جيش ماكان بن كالي، ولكنهم ارتقوا بسرعة إلى مرتبة الأمراء، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا إلى قائد ديلمى آخر هو مرداويج بن زيار الذي خرج على أسفار بن شيرويه، واستولى على بلاد جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان وقم، والكرج، فزاد نفوذه حوالي عام ٣٢٠، وتجنب إلى الرعية، وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكبر قواده، وامتدت سلطته إلى حدود العراق وأسس الدولة الزيارية، وعزم أن يستولى على بغداد وينقل الدولة إلى الفرس ويبتل دولة العرب.

وقد رحب مرداويج أول الأمر بانحياز أولاد بويه إليه فنخلع على عليّ والحسن، ثم ولي علياً بلاد الكرج، كما ولي بقیة القواد الذين انحازوا إليه من جيش ماكان، ثم ندم على ذلك فأمر أخاه وشمكير - وكان في الري - أن يمنع هؤلاء القواد من المسير إلى أعمالهم، ولكن علياً خرج من الري قبل أن يعلم وشمكير بهذا الأمر، وكان ذلك بتدبير الوزير الحسين بن محمد الملقب بالعميد، فلما وصل بلاد الكرج أحسن معاملة الناس وكسب محبة القواد بالمال فأطاعوه، وحينذاك قويت نفسه فقصده أصبهان واستولى عليها، ثم بقي بعد ذلك هو وشمكير يتنازعا ن أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والري وغيرها حتى تم للحسن بن بويه

الاستيلاء عليها بعد حروب طويلة .

ثم خطر ببال علي بن بويه أن يستولى على الأهواز والعراق ، وشجعه على ذلك ضعف قوة الخليفة ببغداد ، فسير أخاه الأصغر أحمد بن بويه إلى الأهواز فاستولى عليها بعد أن هزم بجحيم الرائقى ، ثم سار إلى واسط فاحتلها ومنها سار إلى بغداد بعد أن كاتبه الخليفة ، فلقبه ابن شيرزاد والأتراك ، ولكنه تغلب عليهم فهربوا إلى الموصل ، واحتل ببغداد عام ٣٣٤ وكان الخليفة بها يومئذ هو المستكفى بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منها لصاحبه ، هذا بالخلافة وذلك بالسلطنة . ولقب الخليفة عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة ولقب الحسن صاحب الرى وبلاد الجبل ركن الدولة ، ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة ، وأمر أيضا أن تضرب ألقابهم وكنائهم على النقود ، وبذلك أصبح بنو بويه أصحاب الأمر والنهى فى بغداد .

وهكذا استطاع بنو بويه ، دون غيرهم من قراد الفرس ، أن يؤسسوا دولة فارسية ذات ثلاث عواصم كبرى هى الرى وشيراز وبغداد ، إذ كان تحت حكمهم أربعة أقاليم وهى العراق ، وفارس ، وبلاد الجبل ، والأهواز . ويرجع ذلك إلى ما اتصف به هؤلاء الإخوة الثلاثة من الدهاء والمكر والمهارة الجنديّة ، وإلى قدرتهم على جمع المال وادخاره لوقت الحاجة ، وإلى حسن معاملتهم للأسرى ومباغتتهم فى مداراة جندهم وقوادهم ، وأخيرا إلى ما كان بينهم من تضافر وثيق وطاعة تامة .<sup>(١)</sup>

يتبين لنا مما تقدم أن الدولة البويهية تمتاز عن غيرها من دول الفرس بإنها لم تنشأ عن الدولة العباسية كما نشأت الدولة الطاهرية والسامانية مثلا ،

(١) الحضارة الإسلامية ١ : ٣٢ وما بعدها

وإنما قامت بها أمة قد فتحت جزءاً كبيراً من المملكة الإسلامية بالسيف وأخضعته لسلطانها أكثر من مائة عام ، معتمدة على جيوش فارسية وتركية تدين لها بالولاء والطاعة ، ولهذا فلا نعجب إذا وقف ملوك آل بويه من الخلفاء موقفاً يخالف موقف أسلافهم من الخلفاء الأولين كل الاختلاف ، فقد كان الفرس يدينون للعرب بالولاء وينظرون إليهم نظرة المسود إلى السيد أما الآن وقد أصبحوا هم السادة فإنه من الطبيعي أن تنعكس الآية فيصبح السيد مسوداً ، ويزول ما كان في نفوس الفرس من احترام الخلفاء وتقديسهم ، فكان من أثر ذلك أن حجر آل بويه على الخلفاء وانتقصوا حقوقهم وجردهم من كل سلطان .

وبالإضافة إلى ما تقدم نلاحظ أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد غضبوا الخلافة من مستحقيها ، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم على الطاعة والاحترام ؛ فقد مر بنا أنهم أخذوا أصول التشيع عن الحسن بن علي الأطروش ولهذا فكر معز الدولة حينما دخل بغداد أن ينقل الخلافة إلى العلويين ويزيل خلافة العباسيين ، ولكنه خشى أن يتعرض سلطانه للخطر إذا ما قامت خلافة علوية يطعها الجند ويعترف بها الديلم فيكونون أداة في يد الخليفة العلوي يستغلها متى شاء ، يدلنا على ذلك مارواه ابن الأثير من أن معز الدولة « استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين ، والبيعة للمعز لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال : « ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحاجين دمه ، ومتى أجالست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة

خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ، فأعرض عن ذلك . فهذا كان من أعظم الأسباب في زوال أمرهم ونهيمهم ، مع حب الدنيا وطلب التفرد بها ،<sup>(١)</sup> ولاسكن بالرغم من أن الخلفاء لم يكن لهم في عهد بني بويه أمر ولا نهى ولا وزير ، وإنما كان لهم كاتب يدبر إقطاعاتهم وإخراجاتهم فإنهم لم يسلموا من عسف البويهيين وسوء معاملتهم ، ففي سنة ٣٣٤ ذهب معز الدولة إلى دار الخليفة ، وذهب إليها سائر الناس على رسمهم فلما جلس المستسكفي على سريره ووقف الناس على مراتبهم دخل الأمير معز الدولة فقبل الأرض على رسمه ثم قبل يد المستسكفي ووقف بين يديه يحدثه ثم جلس على كرسي فتقدم اثنان من الديلم ومدا أيديهما إلى المستسكفي وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده فدها إليهما فجزباه بها وطر حاه إلى الأرض ووضع اعمامته في عنقه وجراه . فنهض معز الدولة واضطرب الناس وارتفعت الزعقات وافتتنت دار السلطان وضربت الأبواق . وساق الديليمان المستسكفي بالله ماشيا إلى دار معز الدولة حيث خلع وسملت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة.<sup>(٢)</sup> ولاسكن حال المطيع هذا لم تكن أحسن من حال سلفه ، فقد ساهمه معز الدولة وابنه بختيار ذلا وإهانة ، ثم زاد بختيار على ذلك فصادره على أربعمئة ألف درهم ، فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك ، فشاع بين الناس من العراقيين وحجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر ، فلما قبض بختيار المال صرفه في مصاحبه ، ثم خلع المطيع وولى أمور الخلافة ابنه الطائع.<sup>(٣)</sup> ولما ملك عضد الدولة وكان جباراً طاغية ، ساءت العلاقة بينه وبين الطائع فأمر بحذف اسمه من الخطبة مدة شهرين ثم حملة على أن يأمر بضرب

(١) الكامل لابن الأثير ٦ : ٣١٥ (٢) تجارب الأمم ٦ : ٨٦

(٣) نفس المصدر ٦ : ٣٠٧ وابن الأثير ٧ : ٤٥



الدياباب أمام داره ثلاث مرات في اليوم ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، مع أن ذلك كان من الأمور التي انفرد بها الخليفة دون غيره .

وفي سنة ٣٨١ احتاج بهاء الدولة إلى المال فدبر خلع الطائع وصادر أمواله (١) ، وفعل به مثلما فعل معز الدولة بالمستكفي بالله . وكان الشريف الرضى من شهود هذه الحادثة فقال فيها قصيدته الثنوية التي مطلعها :

لواعج الشوق تخطيهم وتصميني واللوم في الحب ينهام ويغريني

ثم جاء بعد الطائع ، القادر بالله ثم القائم بأمر الله ، ولكن سلطان بني بويه على الخلفاء قد ظل كما كان عليه من قبل ، بل ازداد استهتارهم بالخليفة حتى إن جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥) نزل ذات يوم وهو على سكر وصعد إلى بستان دار الخلافة وعقد فيه مجلس شرابه وغنائه ، فلما عرف الخليفة ذلك شق عليه وأزعجه ، وهدد بمفارقة البلد. (٢)

وهكذا ازداد أمر الخلافة إدباراً في عهد بني بويه ، وذهبت حرمة الخلفاء ولم يبق لهم من الأمر شيء . ولو قارنا حالهم مع بني بويه بحالهم مع الأتراك لظهر لنا الفرق كبيراً بين الحالين ، فقد كانوا - على عهد الأتراك - يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل ، والحرمة قائمة ببعض الشيء ، ولكن منذ أن تولى معز الدولة إمرة الأمراء في بغداد زال ذلك جميعه (٣) ثم أن ثوار دار الخلافة كانوا قبل بني بويه هم الذين يخلعون الخلفاء ويقتلونهم ، أما الآن ، بعد قدوم الديلم ، فقد صار الخليفة يعامل أمام الناس جميعاً معاملة سيئة لا تراعى له فيها حرمة ولا يعرف له فيها قدر. (٤)

ذلك موقف آل بويه من الخلفاء ، أما موقفهم من الشعب فقد كان

(١) ابن الأثير ٧ : ١٤٧ (٢) الحضارة الإسلامية ١ : ٢٤٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٣١٥ (٤) الحضارة الإسلامية ١ : ٢٤٠

أسوأ من ذلك بكثير، ذلك أن سياستهم لم تكن أفضل من سياسة من سبقهم من الحكام إن لم تكن أسوأ منها، فهذا الجمهور البائس الذي أنهكته الكوارث والمحن إثر الحروب الدامية في فترة « أمير الأمراء » وما قبلها ، كان يطمع في ظل هذه الدولة الجديدة في إزالة معالم الظلم والجور ، أو يحلم بإصلاح ما أفسدته سياسة الحكام السابقين من مرافق حياته العامة ، أو يأمل — على الأقل — في حياة يسودها الهدوء والاطمئنان . ولا غرابة في ذلك فإن مثل هذه الآماني الحلوة كثيرأ ما تداعب أخيلة الناس حينما تؤذن ظروف الحياة بانقلاب سياسي أو اجتماعي . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث لأن مصلحة الطبقة الحاكمة تتعارض دائماً مع المصلحة العامة .

وإن تاريخ الانقلابات ليحدثنا أنه ما من ثورة سياسية أو اجتماعية إلا ابتعدت عن أهدافها الأولى ، فاجتنت ثمارها فئة محدودة العدد من الناس . وإذن فلا بد أن تجرى الأمور وفق ما يريده لها ولالة الأمور ... فلا عدل ولا استقرار ولا طمأنينة .

ذلك أن بني بويه قد شغلتهم الحروب في الخارج والداخل — إلا قليلاً — فن حروب مع الحمدانيين والسامانيين والزياريين، إلى حروب بين الترك والديلم وبين السنة والشيعة ، وبين أمراء البيت البويهي بعضهم مع بعض ، فصرفتهم هذه الحروب المتصلة عن الاهتمام بشئون بلادهم ، وحملتهم على الانقياد لرغبات جندهم وقوادهم فبالغوا في مداراتهم وإرضائهم بالمال تارة ، وبإقطاعهم الضياع تارة أخرى حتى نفد المال وخربت الضياع فاضطروا آخر الأمر إلى « استخراج الأموال من غير وجوها وإلى مصادرة العامة أو قرض من الخاصة أو حيلة على من يتهم بيسار كائنا من كان ، (١) »

(١) تجارب الامم ٦ : ٢٨٠

فركن الدولة ، وهو من أعظم ملوك آل بويه ، كان مع فضله على أقرانه من الديلم على طريقة الجند المتغلبين ينعم بما يتجمل له ، ولا يرى النظر في عواقب أمره وعواقب أمور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم مالا يمكن أحداً تلافيه ، كما كان لا يستجيب إلى عمارة فواحيه خوفاً من إخراج درهم واحد من الخزانة ، ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت ،<sup>(١)</sup>

ثم إنه كان يرى أن دولته مقرونة بدولة الأكراد ، فلذلك لا يمنعهم من العيث ولا يطلق يد حماة الأطراف في قصدهم ويرضى أن يقال له : قطعت القافلة وسيقت المواشي ، فيقول : لأن هؤلاء أيضاً - يعني الأكراد - يحتاجون إلى القوت .

ومعز الدولة أمير العراق كان لا يأبه كثيراً بحقوق رعيته ، فلها شغب عليه الديلم شغباً قبيحاً وطالبوه بالأموال اضطر إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها ، وأقطع قواده وخواصه وأتراكة ضياع السلطان وغيرها .

وكان يسامح الوزراء المقطعين ويقبل منهم الرشى ، فانتسح الخرق حتى صار الرسم جارياً بأن يخرب الجند إقطاعاتهم ويعتاضوا عنها بما يحتارون ويتوصلون إلى حصول الفضل والفوز بالربح ... حتى فسدت المشارب وبطلت المصالح ، وأنت الجوائح على التماء ورقت أحوالهم ، فمن هارب جال ، ومظلوم صابر لا ينصف ، ومستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطع طيماً من شره ، فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين وأحى أثر الكتابة والعمالة<sup>(٢)</sup>

(١) تجارب الامم ٦ : ٢٧٩ (٢) نفس المصدر ٦ : ٩٦ ، ٩٩

وعز الدولة بختيار بن معز الدولة كان يجب أن يقضى أوقاته في الصيد والاكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة، فإذا وقتت أموره قبض على وزيره واستبدل به ، ثم طمع في إقطاعات كبار الحاشية والقواد فتغيروا عليه واضطربوا حتى أرغموه على أن يستجيب لرغباتهم ، فضمن لهم جميع ما التمسوه وإزاحة العليل فيه ، ولم يتسع لذلك حولا لبعضه فاضطر إلى مناظرة وزرائه على الاحتياال لهذا المال والنظر في جمعه من أين كان وكيف كان ، فلها بلغ الأمر بوزيره أبي الفضل الشيرازي هذا المبلغ ولم تبق له حيلة في درهم يأخذه من وجهه عدل إلى طلب الأموال من الوجوه المذمومة التي تقبح الأحدثوة بها وتحرم ولا تحل في شيء من الأديان . (١)

أما عضد الدولة بن ركن الدولة ( ٣٦٧ - ٣٧٢ ) فقد وجد متسعا من الوقت صرفه في العمل على النهوض بمرافق البلاد بقدر ما في طاقته فعمد إلى تشجيع القراء والعلماء ، وشيّد المساجد والبيمارستانات وغيرها من المنشآت العامة ، وأصلح القنوات والآبار فامتلات بالمياه ، كما خصص جزءا من أموال الدولة للترفيه عن الفقراء . (٢)

واسكنه - كما يقول الأستاذ متر - لم يكن أبالرعيته ، بل ظل الحاكم الأجنبي عنهم ، فهو كالراعي الذي يحسن العناية بمنه لينتفع منها بأكبر نصيب . وفي آخر أيامه أحدث رسوما جائرة ، وزاد الرسوم القديمة ، وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق . (٣)

ومها يكن فقد كان عضد الدولة أعظم مملوك هذه الأسرة شأنا ، إذ

(١) تجارب الأمام ٦ : ٢٢٢ وما بعدها

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بويه

(٣) الحضارة الإسلامية ١ : ٤٧

اتسعت الدولة على عهده ووصلت إلى أوج عظمتها وقوتها ، بحيث دخلت في حوزته البلاد الممتدة من بحر الخزر إلى كرمان و عمان ، وهي العراق وفارس والأهواز وبلاد الجبل وجرجان والموصل وديار ربيعة وديار بكر ، فلا عجب إذا لقب نفسه بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام . (١)

ولكن أمد هذه الفترة التي سادها الرخاء النسبي والسلام المؤقت لم يطل لأن الدولة بعد وفاته قد عادت إلى التدهور والاضمحلال إذ سرعان ما دب الخلاف والشقاق بين أمراء البيت البويهى حول الملك فنشبت بينهم الحروب وأنهكت قواهم ، فزاد من أجل ذلك نفوذ الأتراك وتدخلوا في سياسة الدولة حتى إنهم كانوا يولون سلاطين آل بويه ويعزلونهم ، ثم نصبت الموارد وقل المال حتى اضطر جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥) إلى بيع نيبابه وآلاته في الأسواق . فكان ذلك كله من الأسباب التي أضعفتهم وعجلت بملكهم إلى الزوال على يد السلاجقة عام ٤٤٧ هـ

وكان لسياسة بنى بويه أسوأ الأثر في العراق خاصة ، إذ قامت الفتن الطائفية ، وثار الجند واشتبك بعضهم مع بعض ، فانتشرت الفوضى وعم الاضطراب ، وساد الفرع قلوب الأهلين ، فقد أدى تعصب بنى بويه للشيعة إلى أنهم أرغموا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعة .

ولهذا كانت الحروب الأهلية مستمرة بدون انقطاع طوال عهدهم بين الشيعة والديلم من وجهة ، وبين أهل السنة والأتراك من جهة أخرى ، ففي سنة ٣٦٢ هـ احترق السكرخ حريقاً عظيماً وكان سبب ذلك أن صاحب المعونة قتل عامياً ، فثار به العامة والأتراك فهرب ودخل دار بعض الأتراك فأخرج منها مسحوباً وقتل وأحرق ، وفتحت السجون فأخرج من فيها ، فركب الوزير

(١) الحاضرة الإسلامية تأليف متر : ٤٢

لأخذ الجناة وأرسل حاجبا له يسمى صافيا في جمع لقتال العامة بالسكرخ وكان شديد العصبية للسنية فألقى النار في عدة أماكن من السكرخ ، فاحترق حريقا عظيما ، وكان عدة من احترق سبعة عشر ألف إنسان وثلاثمائة دكان وكثير من الدور وثلاثة وثلاثين مسجداً ومن الأموال ما لا يحصى (١)

وهكذا اضطرب جبل الأمن ، وقامت الفتن ، ونشبت الحرائق ، وسفكت الدماء ، في عهد بني بويه . وهذا ابن مسكويه يحدثنا عن ذلك فيقول :

« وانبسطت العامة وأغار بعضها على بعض ، وظهرت الأهواء المختلفة والنيات المتعادية ، وفشا القتل حتى كان لا يعدم كل يوم عدة قتلى لا يعرف قائلوهم ، وإن عرفوا لم يتمكن منهم ، فانقطعت مواد الأموال وخربت النواحي المتباعدة بخراب دار المملكة ، وظهر في كل قرية رئيس منها مستول عليها ، وتباغوا بينهم وحصل السلطان صفر اليدين والرعية هالكون والدور خراب والأقوات معدومة والجند متهارجون » . (٢)

أما عمال البويهيين وقضاتهم فقد ساروا بالناس سيرة السنور في الفأر كما قال الخوارزمي في إحدى رسائله ، ذلك لأنهم كانوا عرضة للعزل ، فلا يكي يستردوا ما بذلوه من الرشى للوزراء والملوك لا بد لهم من أن يعسفوا ويطلبوا في استخراج الأموال ، حتى قال فيهم بديع الزمان : إن هؤلاء العمال ليعلقون المال كما تعلق النار الذبال ، والنار لا تذر القليل وإن احتيل لها بما احتيل ، حتى تطفأ وإطفاء العامل قتله .

وقال ابن مسكويه (٣) : « ولما أنس أهل واسط بقرب عز الدولة منهم

(٢) تجارب الأمم ٦ : ٢١٤

(١) ابن الأثير ٧ : ٤٩

(٣) نفس المصدر ٦ : ٨٧

وطال مقامه بينهم تظلموا إليه سرّاً ولقيه نفر منهم فأعلموه أنه - أى العامل -  
قد أخرج بلادهم وأفقرهم وظلمهم وغشهم وصادرهم وملك عليهم ضياعهم  
وأنه استحل منهم ما حرم الله . . . ،

وقال ابن الجوزى (١) : « وكان سابور وزير بهاء الدولة يكثّر الولاية  
والعزل فولى بعض العمال عكبراً فقال له : أيها الوزير كيف ترى ؟ استأجر  
السفينة مصعداً ومنحدرآ ؟ فتبسم وقال : امض ساكتاً »

وما يدل على سوء إدارة بني بويه واستهتارهم بحقوق الشعب ، واستخفافهم  
بأموال الدين أنهم ضمنوا القضاء والحسبة والشرطة لمن يشاء .

فقد ذكر ابن الأثير : (٢) أن أبا العباس بن أبي الشوارب قدولى قضاء القضاء  
وضمن أن يؤدي كل سنة مئتي ألف درهم ، وهو أول من ضمن القضاء وكان  
ذلك في أيام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع  
لله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء  
ثم ضمننت بعده الحسبة والشرطة ببغداد .

وقد ظهر في ملوك آل بويه فظاظة الطبع وقلة الميالة وحب المال ، تلك  
الصفات التي أشرنا إليها من قبل ، فعاقبوا وزراءهم بالقتل والقبض والمصادرة  
أحياء وأموالاً (٣) وصادروا الأغنياء في أموالهم (٤) وغلبوا العوام على دورهم  
وضياعهم ، وانجلى أكثر الناس من جورهم . (٥)

ومن أمثلة ذلك أن معز الدولة قد قبض أموال المهلبى بعد وفاته وكل ما  
كان له ، وأخذ أهله وأصحابه وحاشيته حتى ملاحه ومن خدمه يوماً واحداً

(١) كتاب الظراف والمتاجنين ص ٩١ (٢) الكامل لابن الأثير ٦ : ٣٦٠

(٣) نفس المصدر ٧ : ٦ (٤) - نفس المصدر ٧ : ١٠٢

(٥) - أحسن التقاسيم ص ٢٩٩

فقبض عليهم وحبسهم ، فاستعظم الناس ذلك واستتبعوه .

وكذلك فعل فخر الدولة بأهل الصاحب مثلها فعل معز الدولة بأهل المهلب . قال ابن الأثير (١) : فلما توفي - أي الصاحب - أنفذ فخر الدولة من احتياط على ماله وداره ، ونقل جميع ما فيها إليه فقبض الله خدمة الملوك ، هذا فعلهم مع من نصح لهم ، فكيف مع غيره ؟ !  
وقتل عضد الدولة أبا الفتح بن العميد وابن بقرية ، ونسكب الصابي وأبا أحمد الموسوي ومحمد بن عمر العلوي وصادرهم في أموالهم واعتقلهم في السجن سنين .

وقد تأثر البويهيون بما ورثوه عن أسلافهم الفرس من حب الفخفخة والعظمة ، فتلقبوا بأعضخم الألقاب التي تذكرنا بيهود الأكاسرة من مثل - شاهنشاه الأعظم ، والسلطان الأعظم مالك الأمم - ووصلوا نسبهم بملوك الأكاسرة ، وأوعزوا إلى الصابي أن يؤلف كتابا في مآثرهم مع أنهم كانوا من عامة الناس ، بل من فقراهم ، فقد مر بنا أن بويه كان صيادا للسماك ، وأن معز الدولة كان يحتطب الحطب ويحمله على رأسه .

وهكذا أحاطوا أنفسهم بمظاهر العظمة والأبهة ، وبالغوا في ذلك حتى أرغموا الخلفاء على الخروج لاستقبالهم ، فساروا بالناس سيرة كسروية أشاعت في نفوسهم ذلا وخضوعا ورهبة ، فسبحوا بمحمدهم والثناء عليهم نفاقا ورياء ، ثم إنهم شجعوا العادات الفارسية واختاروا وزراءهم من الفرس إلا نادرا ومع ذلك كله فقد أحسنوا صنعا باختيارهم أكفأ الوزراء والكتاب لإدارة دولتهم ، فقد امتاز هؤلاء الوزراء كابن العميد والصاحب والوزير المهلب وسابور وغيرهم بالقدرة الإدارية والحربية والبلاغية ، فبأوا لهضة علمية وأدبية ازدهرت في عواصم الأقاليم وفي أرجاء البلاد .

(١) ابن الأثير ٧ : ١٦٩



## الفصل الثالث

### الحالة الاجتماعية

لقد كانت الهضبة الإيرانية وما جاورها من سهول ، منذ القديم ، ملتقى شعوب مختلفة ، ومنبت حضارات متباينة ، قد اختلطت وتمازجت على الأيام فخلقت ترانا مثقلا بالآفات الاجتماعية قد ورثته الحضارة الإسلامية فيما بعد ، وكان هذا التراث يتمثل في مجموعة من العادات والتقاليد والأنظمة والأفكار ، قدر لها أن تتسرب إلى المجتمع الإسلامي بالتدريج عن طريق الأمم الأجنبية التي دخلت في الإسلام ، فكانت من الأسباب التي عملت على انهياره وتفسخه في القرن الرابع .

وذلك أن العرب حينما فتحوا هذه البلاد كانوا يحملون معهم رسالتهم الدينية التي تدعو إلى المساواة في الحقوق والواجبات والإخاء بين جميع المسلمين على اختلاف قومياتهم وطبقاتهم الاجتماعية . الأمر الذي حمل تلك الشعوب المغلوبة على أمرها على أن تدخل في دين الله أفواجا تقتربا من الفاتحين ، وأملا في المنفعة . وطمعا في أن يكونوا مواطنين في ظل الدولة الإسلامية ، لهم من الحقوق ما للعرب ، وعليهم من الواجبات ما عليهم . ولهذا لم يكذب ينتهى القرن الأول ويبدأ القرن الثاني حتى رأينا هذه الشعوب الأجنبية ولا سيما الفرس ، تشترك في إدارة الدولة وفي بناء المجتمع الإسلامي ، إذ كان منها القواد والجيوش والوزراء والعمال ، وكان منها العلماء والفقهاء والأدباء أيضا ، وبخاصة بعد أن قامت دولة بني العباس التي اعتمدت

على العنصر الفارسي في بث دعوتها وتشبث سلطانها دون العنصر العربي .  
وبذلك أصبحت الحياة السيامية والاجتماعية والفكرية تحت سيطرة الفرس ،  
فيكان من الطبيعي أن يتسرب كثير من عاداتهم وأفكارهم وأنظمتهم القديمة  
إلى المجتمع الإسلامي ، فمن ذلك : تسرب المعتقدات الفارسية القديمة وغيرها  
إلى الدين الإسلامي عن طريق بعض الفرق الإسلامية ، فالسبئية مثلا كانت  
تعتقد بأن جزءا آلهيا قد تجسد في الإمام علي ، ثم في خلفائه الأئمة من بعده .  
وهذا اعتقاد مبني على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهية .

والكيسانية كانت تعتقد بوجود انفراد الإمام بتأويل الشريعة حتى  
انتهت إلى القول بضرورة طاعته إذ أن طاعته لم تكن إلا طاعة للقانون  
الإلهي ، فسادما ذهب إليه من التأويل والقول بأن لكل ظاهر باطنا على تسرب  
الكثير من العقائد غير الإسلامية إلى هذه الفرق الدينية - تلك العقائد التي  
انتقلت إليها عن المجوسية والمانوية والبوذية وغيرها من الديانات التي كانت  
سائدة في آسيا قبل ظهور الإسلام .

وهكذا نشأ من اختلاط هذه العقائد بالإسلام مذاهب جديدة طالما  
كانت تظهر فيها العقائد الإسلامية تغمرها الأمواج المتلاطمة من الخرافات  
والبدع .

ومن ذلك أن الخليفة العباسي في بغداد قد أحيط بهالة من التقديس من  
جانب العناصر الفارسية الغالية التي أدعت له الربوبية ، كما فعل الراوندية مع  
المنصور حين « خرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأن  
جعفر ، أنت أنت ، يعنون أنت الله ،

ولاشك أن هذه الأفكار التي نشأت في بيئات غير عربية إنما كانت  
بقية من عبادة الملوك ، تلك العبادة التي كانت مشهورة عند قدماء الفرس

بعد أن خالطها بعض العقائد الإشرافية ، والتي لا يبعد أن تكون قد انتقلت إليهم عن طريق الديانة البابلية القديمة . (١)

فكان من أثر ذلك أن اعتبر الخلفاء العباسيون أنفسهم ظل الله على الأرض ، كما اعتبروا إرادتهم متممة لإرادة الله ، فابتعدوا بذلك عن الأسلوب الديموقراطي في الحكم الذي امتاز به عهد بنى أمية والخلفاء الراشدين ، مقلدين في ذلك ملوك الفرس في الاستبداد والانفراد بالحكم والاحتجاب عن الشعب الذي لم يكن يراهم إلا نادراً .

ومن ذلك أيضا انتشار نظم الحياة الفارسية في المأكل والملبس والمسكن لاسيما في قصور الخلفاء والوزراء والأغنياء ، فشاع البنخ والإسراف والفخرفة في جوانب الحياة الاجتماعية .

ثم اتخذ الأعياد الفارسية كالنيروز والمهرجان أعيادا رسمية للحكومة والشعب معا ، وانتشار عادة اللواط والشراب والغناء وغيرها من العادات القديمة بين طبقات الأغنياء والخلعاء والمستهترين دون أن تلقى مكافحة جدية من الحكومة أو رجال الدين .

وأهم من هذا بكثير عودة النظام الإقطاعي إلى الحياة الاقتصادية ، ذلك النظام الذي كان سائدا في إيران قبل الفتح الإسلامي . (٢)

كل ذلك ، وأكثر منه ، قد حدث والخلافة العباسية ما تزال قوية ، والعنصر العربي ما يزال محتفظا بشيء من نفوذه السياسي والاجتماعي ، لأن التيارات الاجتماعية الأجنبية كانت قوية ، جارفة ، لم يستطع الإسلام أن يستأصلها من النفوس أو يقف في طريقها فيمنعها من الذيوع والانتشار .  
ولسكن بعد أن ضعفت الخلافة واختفى ظل العرب من الحياة السياسية أو كاد

(١) راجع كتاب السيادة العربية لفان فلوتن ٧٥-١٠٦

(٢) الحضارة الإسلامية ١ : ٢٠٥

وبعد أن آلت السلطة إلى العنصر الفارسي في القرن الرابع ، وجدت تلك الأنظمة والعادات الفارسية وغير الفارسية مجالا فسيحا وطريقا معبدا ، فشاعت بين الناس وذاعت ، مستخفية وراء حجاب رقيق من الدين حيناً ، سافرة في كثير من الأحيان دون أن يعوقها في طريقها عائق بحيث يخيّل إلينا ونحن ندرس تاريخ هذه الحقبة أن الأمم الأجنبية ، ولا سيما الفرس ، لم تستطع أن تستسيغ التعاليم الإسلامية أو تتأثر بالتقاليد العربية ويخيّل إلينا أن تأثير هذه الأمم في الشعب العربي اجتماعياً كان أشد من تأثيره فيها بدليل اختفاء العنصر العربي واللغة العربية والتقاليد العربية في إيران بعد هذا القرن بزمان غير طويل .

وعلى هذا فإن الظواهر الاجتماعية التي سادت المجتمع البويهى لم تكن وليدة القرن الرابع ، بل هي ثمار بذور قد نمت في هذه البلاد بالتدرج حتى تكامل نموها في عهد بنى بويه حيث وجدت ظروفًا ملائمة وبديئة صالحة ، فكانت سبباً في انهيار المجتمع الإسلامى وتفسخه .

وربما يكون في حكمنا على المجتمع البويهى بالتفسخ والانهيار شيء من المبالغة والتطرف ، فقد لا يعدم هذا العصر أناساً يرون فيه عصرًا مشرقاً ، قد ازدهرت فيه العلوم والآداب ، ونشطت فيه حركة الكتابة والتأليف ، وأنشئت فيه مظاهر مدنية رائعة في مختلف الأقطار ، ولا عبرة بعد ذلك فيما كان فيه من مساوئ لأنها من مستلزمات كل زمان ومكان ، فهو - على هذا الأساس - عصر النضج والازدهار للحضارة الإسلامية . وقد يكون الأمر كذلك لو نظرنا إلى المجتمع تلك النظرة التقليدية التي لا تقيم وزناً للكثرة الغالبة من الشعب ولا تحسب لمصالحها حساباً .

وبعبارة أخرى أقرب إلى الوضوح ، إذا كان مقياس تماسك المجتمع

وعنوان رقيه وازدهار حضارته ، هو حال تلك الطبقة الارستقراطية المتحكمة في رقاب الناس وفي مصالحهم وشؤونهم فإن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع - بناء على ذلك - هي أزهى وأرقى وأنضج منها في أى وقت مضى ، وأن المجتمع البويهى أشد ما تكون المجتمعات تماسكا ورقيا وارتباطا .

أما إذا نظرنا إلى حالة الشعب بصورة عامة فاتخذناها مقياسا للحكم على رقى المجتمع أو انحطاطه فإن العصر البويهى يعتبر على هذا الأساس أسوأ العصور التى شهدتها الأمة الإسلامية حتى ذلك التاريخ .  
ولذا لم يكن الأمر كذلك ؛ فأى عصر أسوأ من هذا العصر الذى امتاز بالتطرف الشديد فى مختلف نواحي الحياة المادية والروحية ؟ بل أى عصر أسوأ من هذا العصر الذى بلغ فيه التفاوت والاختلاف بين الناس حد التناقض ، فإذا هم بين منعم ومحروم ، ولاه وجاد ، ووقور ومستهتر ، ومتمدين وملحد ومتفائل ومتشائم . . . . ١٩

لا شك فى أن وجود مثل هذه الظواهر الاجتماعية المتناقضة فى مجتمع ما يكفى جداً لأن يفكك عراه ، ويزعزع أركانه ، ويباعد بين طبقاته المختلفة فإذا هو متصدع منهار .

ولسكن أليصبح أن يسأل سائل فيقول : لماذا كان هذا التطرف الشديد فى الحياة الاجتماعية من خصائص هذا العصر دون غيره من العصور ؟

ولللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نستعين بالرأى القائل بأن الحالة الاقتصادية هى العامل النهائى الحاسم الذى يؤثر فى شكل المجتمع وفى الصراع القائم فى المجتمع وفى ضروب الأفكار التى تسوده ، والقائل أيضا بأن وعى الناس لا يكيف معيشتهم ، بل على العكس من ذلك فإن معيشتهم

هي التي تكيف وعيهم . (١)  
وإذا كان هذا الرأي صحيحا ، فصحيح أيضا أن الحالة الاقتصادية  
للمجتمع البويهى هي التي كيفت وعى الناس وحددت مشاعرهم فدفعت بهم  
إلى سلوك هذه السبيل أو تلك فكانوا في حياتهم الاجتماعية على اختلاف  
نواحيها على طرفي نقيض .

وتعليل ذلك هو أن فساد النظام المالى فى العصر البويهى قد سبب اختلالا  
هائلا فى التوازن الاقتصادى بين الطبقات ، فالثروة - كما يقول أستاذنا  
الجليل أحمد أمين بك - كانت غير موزعة توزيعا عادلا ولا متقاربا ، والحدود  
بين الطبقات كانت واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم وفقرط ، وبؤس  
مفرط ، وإمعان فى الترف يقابله فقدان القوت . (٢)

وجدير بهذا الاختلاف الشديد فى أساليب العيش أن ينتج اختلافا شديدا  
فى الوعى والشعور عند الناس ، وخليق بهذا الاختلاف الشديد فى الوعى والشعور  
أن ينتج مظاهر اجتماعية متباينة ومذاهب فكرية متناقضة فى صعيد واحد .  
لقد كانت هذه الحالة أثرا من آثار النظام الطبقي الذى ساد المجتمع  
البويهى فى هذا العصر ، حيث كانت هناك طبقتان متميزتان بعضهما عن  
بعض كل التميز: هما طبقة الخاصة وهي ضئيلة العدد قوامها الملوك والوزراء  
ورجال الدولة وبعض التجار والإقطاعيين . وطبقة العامة وهي تشمل أكثرية  
الامة من علماء وأدباء وصناع ومزارعين وفلاحين ورعاع .

أما طبقة الخاصة وأغلبها من ذوى النفوذ والسلطان فإنها قد استغلت  
الطبقة العامة - بما كان لها من قوة وسيطرة - أفضع استغلال إذ كانت

(١) الفلسفة المادية الجدلية تأليف دافيد جوست ص ٣٨ من الترجمة العربية

(٢) ظهر الإسلام ص ٩٧

أشبهه شيء بعصاة تواطت فيما بينها على انتهاب أموال الرعية والاستيلاء عليها بطريق العسف والظلم والاعتصاب فقد كانت تنظر إلى رعيته نظرة الراعي إلى بقرته الحلوب، ولسكنها تختلف عنه بعد ذلك في أنها لم تسكن تعنى برعيته كما يعنى الراعي ببقرته، بل كان همها الوحيد هو الحصول على المال من أى طريق مشروع أو غير مشروع .

ولهذا زادت في الضرائب القديمة ، واستحدثت ضرائب جديدة باهظة لم تسكن معروفة من قبل ، وقست في أساليب استخراج هذه الضرائب أمن الشعب وتفننت في القسوة على نحو لم يسبق له مثيل ، فأدى ذلك إلى استثمار هذه الطبقة الحاكمة بموارد الرزق دون غيرها ، فتنجمت الثروة في يدها وتركز الغنى الفاحش في قصورها .

يدلنا على ذلك تلك الأرقام الهائلة التي ذكرها المؤرخون عن الثروات التي كانت لدى الملوك والوزراء وبعض الأغنياء في هذا العصر ، ومن أمثلة ذلك : أن عضد الدولة حينما مات خلف ٢٨٤ ر ٨٧٥ ديناراً ومن الورق والنقد والفضة ٧٩٠ ر ٨٦٠ ر ١٠٠ درهماً ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئاً كثيراً .

وأن محمد بن عمر العلوي الإقطاعي المشهور كان يملك ضياعاً يؤدي عنها خراجاً - فقط - للدولة في كل سنة ألفي ألف وخمسمائة ألف درهم .<sup>(١)</sup> وأن أبا الحسن بن الفرات وزير المقتدر في أوائل القرن الرابع كان يملك أموالاً كثيرة تزيد قيمتها على عشرة آلاف ألف دينار وكان يستغل من ضياعه في كل سنة ألفي ألف دينار .<sup>(٢)</sup>

(١) ابن الأثير ٧ : ١٣١ (٢) وفيات الأعيان ١ : ٤٧٠

وأن ابن الجصاص الجوهري كان من الغنى والثراء بحيث بلغ المال لذى صودر عليه عشرة آلاف ألف دينار وقيل أكثر من ذلك . (١)

هكذا كان المال كثيراً والثراء واسعاً في هذا العصر، ولما كان عند أفراد قلائل من الأمة هم الحسكام والأغنياء ومن يتصل بهم من الأقارب والأعوان أما الجمهور فلم يكن لديه غير الفقر والبؤس والشقاء .

وطبيعي أن يظهر أثر هذا الثراء العريض في أسلوب العيش ووسائله في الأوساط الغنية فيغشاها الترف والنعيم ويسودها البذخ والإسراف ولهذا نجد الأغنياء في هذه الأوساط المترفة يتأنقون في المأكل والمشرب واللباس والسكن فينشثون القصور الضخمة ويحيطونها بالحدائق والبساتين الجميلة ويملاؤها بأدوات الترف وصنوف الزينة وفاخر الرياش و نراهم أيضاً يمعنون في الجرى وراء شهواتهم حتى يبلغوا حد الإفراط، فمن مجالس شراب أنيقة إلى مجالس غناء معمورة بالقيان والغلمان إلى غير ذلك من صنوف اللهو والترف . وإذا كان لا بد من أمثلة للاستشهاد بها على هذا الترف والنعيم فإننا نورد

بعض الأمثلة التي توضح ما قدمنا من كلام أجل وضوح :

قال المقدسي : « وبني - يعني عضد الدولة - بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلها عامي إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها ، خرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعدد ، وسمعت رئيس الفراهين يقول : فيها ثلاثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول وهي سفلى وعلو . . . . . وطففت فيها ورأيت الأنهار تطرد في البيوت والأروقة ، وأظنه بناها على ماسمع من أخبار الجنة وبان بونا بعيداً

(١) تجارب الامم ٥ : ٢٥



وضل ضاللا مبيدنا . . . » (١)

وذكر ابن الأثير : أن معز الدولة بنى داراً ببغداد فكان مبلغ ما أنفق عليها إلى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم . وقال الحافظ عماد الدين : إنه أنفق عليها ألفي ألف دينار . (٢)

وكان الوزير المهلبى شديد التأنق بطعامه ولباسه حتى إنه كان لا يأكل إلا بملاعق الذهب ، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة ، ويروى مثل هذا عن ابن الفرات . وكذلك كان المهلبى شديد الشغف بالورود . حدث القاضى التنوخى فقال : « شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له في ثلاثة أيام ورد بألف دينار فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها فوارات عجيبة يطرح الورد في مائها فتتفضه على المجلس فيقع على رؤس الجالسين وبعد شربه عليه وبلوغه ما أراده منه أنهيه . » (٣)

وكان راتب أبي طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة من الشمع ألف من في كل شهر ومن الثلج ألف رطل في كل يوم . (٤)

وكان الصاحب بن عباد يعجبه الخبز ويأمر بالاستعداد بكمثاراته في داره ، فينظر الزعفرانى الشاعر يوماً إلى جميع من فيها من الخدم والحاشية وعليهم الخبز والفاخرة فاعتزل ناحية وكتب قصيدة في الصاحب منها هذا البيت :

وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخبز إلا أنا

وكذلك « تفتنوا في الصناعات الجميلة من أنواع الحلوى والدقة في النسج وزر كشة الثياب وأنواع العطور والنقش والتصوير ؛ وأصناف الأزياء

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩ (٢) ابن الأثير ٦ : ٣٥٩ ، وما بعدها

(٣) معجم الأدباء ٩ : ١٣٨ (٤) ابن خلكان ٢ : ٦٢

والماكول والمشروب والحدائق والبساتين والغناء والموسيقى ، (١)  
وجعلوا لمجلس الشراب قواعد وادابا كما جعلوا للظرف والظرفاء قواعد  
وادابا من خرج عليها كان غير ظريف .  
وألفوا الكثير من الكتب في الطعام وأنواعه ، وفي الشراب وأصوله  
وفي الظرف وآدابه .

كل ذلك يدل على إمعان هذه الطبقة في الترف والنعيم والإسراف في  
طعامها وشرابها ولباسها وسكنها ، كما يدل على إمعانها في تطلب المسرات  
وإتهاب الذات .

\* \* \*

وأما الطبقة العامة وأغلبها من صغار التجار والمزارعين ومن الصناعات  
والفلاحين الكادحين في الأسواق والحقول، فقد أثقلت كاهلها الضرائب  
الفادحة وأنهكتها ويلات الحروب المستمرة بين الأمراء، والفتن الدامية بين  
الطوائف، وأقلقها أهل العيث والفساد من لصوص وقطاع طرق وعيارين  
وشطار . كل ذلك سبب تعطيل الأعمال وعدم الاستقرار وخراب البلاد  
ونضوب الموارد وبالتالي انخفاض مستوى المعيشة بين الجماهير انخفاضاً  
هائلاً، ذلك أن أولئك الأمراء المختصمين حول السلطان كانوا بحاجة إلى المال  
ينفقونه على قوادهم وجندهم بسخاء ليضمنوا طاعتهم وولاءهم، وهم بحاجة إلى المال  
أيضاً ينفقونه في حياتهم المترفة وملذاتهم الكثيرة ويفرقونه على أتباعهم من  
أدباء وعلماء وحاشية وخدم ونحو ذلك .

لهذا كانوا مضطرين إذا ما نفذ المال من خزائنتهم - وكثيراً ما ينفد - إلى  
فرض ضرائب جديدة قاسية ، وإلى زيادة الضرائب القديمة ، فأحيوا من

(١) ظهر الإسلام ص ١٠٧

أجل ذلك، الكثير من الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء إليها لامتصاص ثروة الناس ، (١) ففرضوا ضرائب على الصادرات والواردات، وضرائب على ما ينتج من السلع والبضائع داخل البلاد حتى الضروريات من وسائل العيش كالملح مثلا، ثم انهم أسرفوا، في استغلال الشعب حتى إن الطواحين والدور التي يعمل فيها ماء الورد وشوارع المدن وأسواقها في فارس كانت ملكا للحكومة تمقاضى عليها أجوراً . (٢)

من ذلك ما فعله عضد الدولة في آخر أيام دولته فقد زاد الرسوم القديمة وأحدث رسوما جائرة على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ثم زاد ما تقدم ففنع من عمل الثلج والقز وجعلها متجرا للخاص .

وما عزم عليه صمصام الدولة عام ٣٧٥ ببغداد من وضع ضريبة مقدارها عشر الثمن على الثياب الإبريسم والقطن المبيعة « فاجتمع الناس في جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة وكاد البلد يفتتن فأعفوا من ذلك ، ولكن عاد السلطان في عام ٣٨٥ فوضع العشر على ما يعمل من الثياب الإبريسميات والقطنيات بمدينة السلام فثار الناس وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة ومنعوا الخطبة والصلاة . . . واستقر الأمر أخيرا على أخذ العشر من قيم الثياب الإبريسميات ووضعت الختوم على كل ما يقطع من المناسج وبيع ويحمل .

ويدلنا على فداحة هذه الضرائب المتنوعة التي استنزفت أموال الناس ما ذكره المقدسي عن الضرائب في العراق إذ قال :

« وأما الضرائب فتقيلة ، كثيرة ، محدثة ، في النهر والبر . وفي البصرة

(١) الحضارة الإسلامية ١ - ٢٠٧ (٢) المسالك والممالك ص ١٥٨

تفتيش صعب وشوكات منكرة ، وكذلك بالبطائح تقوم الامتعة وتفطش ...  
وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة وللديلم ديوان آخر حتى إنه يؤخذ  
على الغنمة الواحدة أربعة دراهم (أى ضعف ثمنها) وإذا رجع الحاج  
مكسوا أحمال الأدم والجمال الأعرابية ، وكذلك بالسكوفة وبغداد ، (١)

وما ذكره أيضا حينما تحدث عن الضرائب في فارس وقال :

« ولا تسأل عن ثقل الضرائب وكثرتها ، ثم قال : قرأت في كتاب  
بجزارة عضد الدولة ، أهل فارس أن جمع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على  
الظلم وأثقلهم خراجا وأذلم نفوسا وهم لم يعرفوا عدلا قط ... » (٢)

وكان مما زاد هذه الحالة سوءا على سوء تلك الطريقة التي اتبعت في  
جباية الخراج وسائر الضرائب ، فقد كان أولو الأمر يبيعون هذه الضرائب  
على سبيل الضمان والالتزام إلى أشخاص مهمهم ابتزاز الأموال والوصول إلى  
الثراء من أى طريق مشروع أو غير مشروع ، فظلموا الرعية وعسفوها وتفننوا  
في الظلم والعسف ليستردوا منها أضعاف ما دفعوا إلى السلطان ، حتى عجز  
دافعوا الضريبة عن الوفاء بها فجز أكثرهم المزارع وتركوها خرابا ، فنقص  
الارتفاع نقصا بارزا ، ولا سيما في العراق بحيث آل الحال في آخر القرن  
الرابع إلى أن يقول عضد الدولة : غرضى من العراق الاسم ومن  
أرجان الدخل .

يضاف إلى ما تقدم ما كان من إهمال السدود وفقدان العناية بالرى في  
بلاد تعتمد في زراعتها على الطرق الفنية في الإرواء ، فطنى الماء على الأراضى  
خاصات مستنقعات وأهوار آ ، وما جرى عليه الأمراء من إقطاع الضياع  
إلى جندهم وذوى النفوذ من رجال دولتهم وتخريبها على أيديهم .

(١) أحسن التقاسيم ص ١٢٣ (٢) نفس المصدر ص ٤٥١ ، ٤٤٨

ثم ما كان من فساد الحالة الإدارية وعدم الاستقرار في جهاز الدولة لانقسام الجيش إلى فرق، وتعصب كل فرقة إلى جنسها، ولاختلال القضاء والحسبة والشرطة بتدخل الحكام، والكثررة العزل والتولية بين الوزراء والعمال والموظفين، ولا انتشار الرشوة انتشاراً فظيماً حتى قيل: « الرشوة رشاء الحاجة » .

وأخيراً ما أعقبته تلك الحروب والفتن من آثار سيئة في حياة العامل والفلاح من حريق ونهب وسلب وتخريب ضياع وإهلاك زروع .  
كل أولئك أمور تضافرت ، فأضعفت القوى الإنتاجية في البلاد يوماً بعد يوم، وكل أولئك أيضاً أمور تعاونت فسببت فقر الشعب وبؤسه ودفعت به نحو الخراب والدمار ، فانتشرت الأمراض والأوبئة ، وانعدم الغذاء، وعن القوت ، وتوالت المجاعات في طول البلاد وعرضها ، بحيث لم تسكد تمر سنة دون أن تجتاح البلاد موجة غلاء تعقبها مجاعة مهلكة تفتك بالناس فتكاً ذريعاً « تمت أكثرهم ومن يبقى منهم فهو على صورة الموتى ، حتى قال أحد الشعراء في ذلك : (١)

قد أصبح الناس في غلاء      وفي بلاء تداولوه  
من يلزم البيت يود جوعاً      أو يشهد الناس يأكلوه  
وقال آخر :

لا تخرجن من البيوت      لحاجة أو غير حاجة  
والباب أغلقه عليك      موثقاً منه رتاجه  
لا يقنصك الجائعون      فيطبخونك شورباجه  
وإذا لم يكن بد من الاستشهاد على هذا الغلاء وتلك المجاعات المتكررة

(١) ابن الأثير ٧ : ٢٥٤

ننقل بعض ما ذكره ابن الأثير في هذا الصدد إذ قال :  
« وفيها - يعني سنة ٣٨٢ - غلت الأسعار ببغداد فيبيع الرطل الخبز  
بأربعين درهما ،  
وقال : « في هذه السنة اشتد الغلاء بالعراق فضج العامة وشغب الجنند  
وكانت فتنة . »

ويحدثنا عن إحدى المجاعات فيقول : (١)  
« وفيها - يعني سنة ٣٣٤ - اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة  
والسكلاب والسنانير وأخذ بعضهم ومعه صبي قد شواه لياً كله وأكل الناس  
خروب الشوك فأكثروا منه وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه ، فلحق الناس  
أمراض وأورام في أحشائهم ، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن  
الموتى فكانت السكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة  
فمات أكثرهم في الطريق ومن وصل منهم مات بعد مديدة يسيرة وبيعت  
الدور والعقار بالخبز . . . »

وعما له عظيم الدلالة على انتشار الفقر المدقع بين طبقات الشعب ، ما نراه  
من بؤس العلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأمراء والوزراء وذوى اليسار .  
فأبو سليمان المنطقي الفيلسوف المشهور كان في « حاجة إلى رغييف ،  
وحوله وقوته قد عجزا عن أجره مسكن ، وعن وجبة غدائه وعشائه . »  
وعبدالوهاب البغدادي المالكى قد ضاقت به المعيشة في بغداد فخرج عنها  
طالباً للرزق ، ولما شيعه أكابرها قال لهم : « لو وجدت بين ظهرائكم رغييفين  
كل غداة ما عدلت عن بلدكم . »

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٢١

وأبو حيان التوحيدى كان دائم الشكوى والتذمر من الفقر والجوع وجور الزمان حتى قال : « وماذا أقول وسامعى يصدق أن زمانا أحوج مثلى إلى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى وضنى وشجى . »

وهكذا كانت هذه الطبقة بائسة ممعنة فى البؤس ، كما كانت الطبقة العليا منعمة ممعنة فى النعيم ، فكاتتا فى حياتهما المادية على طرفى نقيض .

\* \* \*

وبعد ، فإذا كان من أثر هذا النعيم والبؤس فى المجتمع ؟ وماذا أنتج من الظواهر الاجتماعية ؟ وبعبارة أخرى : هل كيف نعيم المنعمين وبؤس البائسين وعى الناس ومشاعرهم فى الحياة ؟ نستطيع أن نقول إن العامل الاقتصادى فى هذا العصر قد أصبح مصدراً لكثير من التيارات الاجتماعية والفكرية التى لونت حياة الناس على اختلاف طبقاتهم بألوان شتى .

وتعليل ذلك أن الناس فى المجتمع البويهى كانوا قد فقدوا الثقة بكل شىء اسمه العدل والحق والمثل الأعلى ، لما كان يجرى فى حياتهم من أمور وأحداث لا يقرها منطق ولا يبيحها دين ، ولا يسيغها عرف ، من ظلم وعسف ونهب وسلب وتخريب وسفك دماء ... الخ ، كسنتيجة للفوضى والاضطراب فى الحياة السياسية والاجتماعية ، الأمر الذى جعل حياة الفرد خاضعة للمفاجآت وانتهاز الفرص ، والمغالبات ، قائمة على القوة والصراع والكفاح ، مهددة بالجوع والبؤس ، بل بالموت الذى لا يرحم ، كما جعلها أيضاً بعيدة كل البعد عن القيم الأخلاقية والمثل العليا ، بعيدة عن عالم الروح الذى لا تزدهر مقوماته إلا فى جو من الهدوء والاطمئنان ، وفى ظل حياة يسودها النظام والاستقرار والأمان .

كل ذلك أسرع بالمجتمع البويهي نحو حياة لا يسمع فيها صوت إلا صوت المادة ، ولا خطر فيها إلا الخطر الذي ينجم من فقدان المال .

وهكذا وقع الإنسان في هذا المجتمع تحت طائلة الجانب المادى من الحياة فتحدد سلوكه ، وتعينت تصرفاته ، وتلونت أخلاقه ونزعاته بوحى من منافعه المادية .

ونظرة بسيطة نلقبها على المجتمع البويهي ترينا عجباً؛ ترينا عجباً من آثار المادة في حياة البشر المنعم والبشر البائس .

فالطبقة العامة التي منيت بالفقر المدقع ، والحرمان الشديد والفاقة المؤلمة ، والجهل المطبق ، قد عاشت حياتها في جو مادى قاس ، فلم تعد تفكر إلا بالقوت وإلا بالوسيلة التي تحصل بها على القوت .

وإذ كان الحصول على القوت شاقاً وعسيراً ، بل مستحيلاً في بعض الأحيان، كان من الطبيعى أن يلبأ الناس - مدفوعين بغريزة حب البقاء - إلى أن يسلكوا سبلاً وعرة قد لا يبيحها العرف، وقد لا يقبلها الخلق الكريم، وقد تتنافى مع الدين وتتجانى مع العقل ، كل ذلك ليـمدفوعوا عن أنفسهم غائلة الجوع .

ولا شك في أنهم كانوا يصدرون في تصرفاتهم هذه عن آراء وأفكار تكونت عندهم وهم تحت تأثير عوامل اقتصادية قاسية فاقتمعوا بها وارتضوها . ومن هنا تفرقت بهم السبل وتشعبت بهم المذاهب حتى أصبحوا شيعاً وأحزاباً مختلفة في نظرتها إلى الحياة .

فهذه طائفة من الناس قد قست عليها ظروف الحياة وهددتها بالموت جوعاً فاستهانت بأغلى ما يعتز به الإنسان وفرطت به .. باعت عرضها، وتاجرت بشرها ، لتظفر بالقوت ، فأتخذت لنفسها بيتاً تعرض فيها اللذة كما تعرض



السلم في الأسواق، مستهترة، ساخرة، من كل ما يسميه الناس عرفاء، ودينا،  
وتقاليد، وأخلاقاً.

وتلك فئة أخرى أراقت ماء الوجه، وأهانته المروءة، فاتخذت التسول  
والتسكدي وسيلة للارتزاق، وفضلتها على الزراعة والتجارة والإمارة، لما  
كان يحف هذه المهين من المكاره والخطوب. وذلك من أغرب الأمور !  
وهؤلاء قوم قد سدت في وجوههم أبواب الرزق فاستعانوا على العيش  
بقوة أجسامهم وسعة حيلتهم، فاتخذوا من التلصص وقطع الطريق والسطو  
على أموال الناس حرفة يرتزقون منها.

وأولئك أناس لم يستطيعوا أن يجاروا الناس في ميادين السكفاح، فأخفقوا  
وتملكهم اليأس من النجاح في هذه الحياة الدنيا فاحتقروها ووقفوا منها  
موقفاً سلبياً فدعوا وأسرفوا في الدعوة إلى « التوكل على الله والثقة المطلقة  
به، تاركين الأمر كله لمشيئته »، حتى أصبح شعارهم « صم عن الدنيا تفطر  
بالآخرة (١) »، فصوروا الحياة بصورة قائمة، وأشاعوا فيها نعمة حزيننة  
عملة . . . أولئك هم المتصوفة والزهاد.

ذلك أثر المادة في حياة الطبقة البائسة، وتلك هي الظواهر الاجتماعية التي  
نجمت عنها، فما هو أثرها في حياة الطبقة المنعمة، ثم في حياة المجتمع  
على العموم؟

لقد كان أصحاب الثروة واليسار والمناصب الكبرى في الدولة في هذا  
المجتمع فريسة للقلق والخوف، مهددين في كل لحظة بالمصادرة والقتل،  
والتعذيب والقبض وزوال النعمة والجاه، وغير ذلك مما ذكرنا طرفاً منه  
فيما تقدم .

(١) الاعجاز والإيجاز ص ١٢٩

كل ذلك كان من أجل أموالهم ومراكرهم ، وكل ذلك أيضا دعاهم إلى أن ينسكبوا على اللذات يعبونها عبثاً ، وإلى الأوقات يختلسونها اختلاساً ، كأنهم كانوا مع زوال النعمة وحلول الشكبة على ميعاد . . . لقد كانوا يعيشون ليومهم ، بل للساعة التي هم فيها .

فإذا أضفنا إلى هذا ما كان من ضعف أثر الدين وانحلال الاعتبار الاجتماعية عند القوم لظهور البدع الدينية وعودة العادات الشريفة القديمة إلى المجتمع من جديد ، استطعنا أن ندرك سبب انتشار بعض الظواهر الاجتماعية كالفسق والفجور والشراب والغناء وألفاظ المقاذر والمجون في المجتمع حتى بين العلماء والفقهاء والقضاة الذين ينتظر منهم النزاهة والوقار والتزام جانب الدين والأخلاق ، واستطعنا كذلك أن ندرك سبب عدم استنكار المجتمع لهذه الموبقات ، وسبب جموح النزوات والشهوات عند الطبقة المترفة .

وكان للبال - العامل الاقتصادي - آثار أخرى سيئة في أخلاق الناس ولا سيما الطبقة العليا ، فقد تعلقوا به تعلقاً شديداً ، إذ كان المحور الذي تدور عليه حياتهم ، فتنازلوا في سبيل الحصول عليه عن كثير من الصفات الكريمة ، واستعاضوا عنها بالذل والضعفة ، وفقدان الشعور بالكرامة والاستخفاف بكرامة الغير . وبالسكيد والدس والجشع والبغض والنفاق وما إلى ذلك .

وكان لفقدان المال - العامل الاقتصادي - آثار أخرى سيئة أيضا في حياة الناس ، ولا سيما الطبقة العامة ، إذ أصبح مصدراً لانتشار الدجل والتخريف بينهم ، فقد « تعلق الناس بالأسباب الموهومة في الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة ، فتشجيم واعتقاد في الطوابع التي تسعد وتشقى ، وانصراف إلى السكيميا التي تحول النحاس والقصدير ذهباً ،

والالتجاء إلى دعوات الأولياء، لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى «  
هذا إلى الاعتقاد في السحر والطلسمات والبحث عن السكنوز المخبوءة  
ونحو ذلك (١)»

لا نريد أن نطيل فنضرب الأمثال ، فالشواهد على ذلك أكثر من أن  
يحيط بها حصر ، ولسكنا نريد أن نشير إلى شيء لا بد من الإشارة إليه وهو :  
أن هذه الطبقة الارستقراطية قد أصبحت هياكل فارغة ، وطبوا لآخالية  
قد ملأت حياتها بالتوافه من قشور الحياة وأعرضت عن جوهرها ، فعجزت  
عن أن تلهم من حولها من الأدباء بالمعاني القوية السامية .

فكان من أثر ذلك أن التجأت هذه الطبقة إلى استعمال عبارات المجاملة  
المتكلفة وتهادى العواطف المزيفة ، وإلى «شراء» الألقاب الضخمة ،  
والتعلق بالمظاهر السكاذبة ، وحشد الأدباء الذين يحسنون الملق والنفاق في  
قصورها للشهرة وبعد الصيت . كل ذلك كان سداً للفراغ وتكميلاً للنقص  
الذين شعرت بهما وهي تحت تأثير هذه الحياة المادية الفارغة .

\* \* \*

وكما كان العامل الاقتصادي سبباً رئيسياً في وجود هذه الظواهر الاجتماعية  
المتناقضة ، كذلك كان سبباً جوهرياً في ظهور مذاهب دينية وأخرى فكرية  
تهدف إلى إصلاح الأحوال الفاسدة ، كالتى نجدها عند الإسماعيلية والقرامطة  
وإخوان الصفاء وبعض المتنبئين والزهاد .

وإن نظرة عابرة على هذه المذاهب الدينية والفكرية ، وعلى هذه  
الظواهر الاجتماعية التى سادت المجتمع البويهى فى هذا العصر لترينا ما بينها  
وبين التراث الاجتماعى القديم فى هذه البلاد من صلة وثيقة ، ذلك التراث

---

(١) ظهر الإسلام ص ١٢١

الذى انحدرت وتسررت إلى الحضارة الإسلامية رويداً رويداً حتى استفحل أمره في هذا العصر لتوافر الشروط والأسباب وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

\*\*\*

ولست أدري بعد ذلك ، كيف يسكون التفسخ والانحلال والانهيار في مجتمع اضطرت حياته السياسية هذا الاضطراب ، وانهارت أو اصره الاجتماعية هذا الانهيار وتحطمت مثله العليا على صخرة المادة ؟  
والأدب ، ما موقفه من هذا المجتمع ؟ وهل استجاب لمؤثراته السياسية والاجتماعية المختلفة فصورها وأبان عنها ؟  
هذا ما سنحاول دراسته في الفصول الآتية .





القسم الثاني

في

أثر البيئة العامة

في الأدب البويهى

## الباب الأول

### أثر البيئة الطبيعية في الأدب البويهي

#### تمهيد

لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن الإنسان ابن بيئته الطبيعية ، إذ فيها يولد ، وفي ظلها يتربص ، وعلى هديها في الحياة يسير ، ومنها يستمد لونه وشكل أعضائه وهيئة جسمه وجرس لغته ، وعنها يأخذ أسلوب معيشته وطرز مسكنه ولباسه. ولا يقف الأمر به عند هذا الحد بل نراه يجاريها في أخلاقه ، ويماشيها في طباعه وعاداته . ولم لا يكون الأمر كذلك وآثار البيئة الطبيعية في أهلها ظاهرة لكل ذي عينين ؟

فالصحراء الفسيحة ، القاسية ، ذات الشمس المحرقة ، والسموم المتوهج هي التي جعلت البدوى أسمر اللون ، ممشوق القوام ، فظاً غليظ القلب ، محباً للانطلاق ، نافراً من القيود .

والبلاد الجبلية المرتفعة ، ذات المسالك الوعرة والأشجار المتنفة قد أورثت أهلها بياض اللون ، وضخامة الجسم ، وقوة العضلات ، والميل إلى الروم والخيال .

والبلاد التي تتعدد فيها القوى الطبيعية توحى إلى أهلها بتعدد الآلهة . والسهول التي تجري فيها المياه في رفق ، وتنمو فيها النباتات ببطء ، قد طبعت أهلها بطابع الوداعة ، وطول الأناة .

والترربة الخصبة التي تجود على أبنائها بالرزق دون مشقة أو عناء توحى إليهم بالسكسل والجود. وعلى العكس منها تكون التربة الشحيحة ، إذ تورث أبنائها النشاط ، والحرص ، وهكذا .

وكذلك تؤثر البيئة الطبيعية في الحياة النفسية عند الإنسان تأثيراً بالغاً ، فتلونها بلونها ، وتطبعها على غرارها ، ذلك أنها تقسو عليه بجرها وبردها وعواصفها حيناً ، فيلوذ بالمغاور والكهوف والأشجار والبيوت، وتحنو عليه بنسيمها الواني وأشعتها الدافئة، ورياضها الزاهرة حيناً آخر، فينطلق في جوانبها ينشد الراحة أو يسعى وراء الرزق . وهو تحت تأثير هذه القسوة وهذا الحنان إما مرح أو مكتئب وإما ساخط أو راض ، فهذا العراقي سريع الغضب ، سريع الرضى ، لأن نهاره جسيم ، وليله نعيم . وهذا المصري ، وديع ، هادى . دمت الأخلاق لتأثره بهذا الطقس اللطيف الذى يكاد يسير على وتيرة واحدة طول العام .

وليس من شك فى أن هذا الإنسان كان أول أمره يفصح عن هذه الانفعالات والأحاسيس المختلفة بالإشارة والأصوات المبهمة وتغيير الملامح ولكنه بعد أن ارتقى فى سلم الحياة وتوصل - فيما توصل إليه - إلى معرفة اللغة ، اتخذ منها أداة للتعبير عما يجيش فى نفسه من إعجاب بمظاهر الطبيعة أو سخط عليها ، ثم استطاع آخر الأمر أن ينشد الشعر أو ينشئ النثر ، متغنياً بجمالها ، مأخوذاً بهمساتها ، أو ضيقاً بقسوتها ، مستغنياً من كربها وبلائها .

ومن هنا كانت النفس الإنسانية، وما تزال ، أشبه شىء، بالقيثارة توقع عليها الطبيعة بأناملها ضروباً من الأنغام والألحان هى أصداء وأرجاع لما فى هذا السكون من مظاهر الجمال والقبیح أو الخير والشر .



ولو قدر لهذا الإنسان أن يحيا بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية لكان نتاجه الفني صورة لبيئته الطبيعية طبق الأصل ، كما يقولون ، ولكنه مدني بالطبع ، يميل إلى الإلف ويكلف بالاجتماع فينشئ الأحياء ويؤسس القرى والمدن ، ويقيم الممالك ، حتى إذا تم له ذلك وجد نفسه مقيداً بعد أن كان حراً طليقاً ، مقيداً بهذا النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فإذا هو خاضع لمظاهره المختلفة ، من نعمة وحرمان ، وزهد واستهتار ، وظلم وإنصاف . . . الخ وإذا هو مضطر إلى أن ينفعل بهذه المظاهر الاجتماعية كما انفعال بمظاهر الطبيعة ، وإلى أن يصور هذا الانفعال بالشعر تارة ، وبالنثر تارة أخرى . فتراه مثلاً يتغزل إذا أحب ، ويشكو إذا ظلم ، ويهجو إذا حرم ويمدح إذا وصل ، ويمجن إذا كان في سعة من عيش أو في حل من دين وعرف . وهكذا تقع النفس الإنسانية تحت تأثير عوامل مختلفة من الطبيعة والسياسة والاجتماع ، فتعقد أحاسيسها ، وتعدد انفعالاتها ، وتختلف نظراتها إلى الحياة بل إلى السكون بأجمعه ، ولذلك تعدد ميادين الأدب الذي يصور هذه الانفعالات فتختلف - تبعاً لتعدد هذه الميادين - فنونه وألوانه فتجد أدباً يصور الخلاعة والمجون ، وآخر يصور الشكوى والحرمان ، وثالثاً يصور مظاهر الطبيعة ، وهكذا .

وإذن فليست الطبيعة وحدها هي التي تؤثر في تكوين الأدب ، بل تشترك معها في هذا التأثير مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية التي تحياها الأمة المنشئة لهذا الأدب . أريد أن أقول : إن الأدب صورة تتركز فيها الحياة النفسية للجماعة التي تنشئه بعد أن تتأثر بمظاهر السكون المختلفة ، وبعبارة أخرى أقرب إلى الإيجاز : إنه رجوع وصدى للبيئة العامة .  
وإذا صح ما قدمناه من أن البيئة الطبيعية هي أحد العوامل المؤثرة

في حياة الأدب ، فأين إذن أثرها في الأدب البويهى ؟ وبمغنى آخر هل تأثر أدباء العصر البويهى أو انفعلوا بمظاهر الطبيعة في بلادهم ؟ وهل صوروا هذا الانفعال في أدبهم كما فعل الجاهليون مثلا ؟

نستطيع أن نقول - ونحن مطمئنون - إن هؤلاء الأدباء قد تأثروا ببيئتهم الطبيعية التي ألمنا فيما تقدم بمظاهرها المختلفة ، كما تأثروا ببيئتهم السياسية والاجتماعية ، فنظرة عابرة إلى آثارهم الأدبية ترينا أنهم قد أحبوا مناظرها الفاتنة ، كالرياض والحدائق والمياه الجارية وهاموا بها ، كما سنخطوا على مظاهرها القاسية كالحر والبرد والحشرات المؤذية ، وتدمروا منها ، ذلك أن مظاهر الطبيعة في بلادهم لم تكن كلها جميلة ، ولم تكن جميعها خيرة بل كان فيها ما هو جميل وما هو قاس شديد القسوة ، ولذلك كان موقفهم منها مشوبا بالحب والإعجاب حينما ، وبالبعوض والاشمزاز حينما آخر .

ولعل هذا الموقف المتناقض ذا الوجهين إن دل على شيء فإنما هو يدل على شدة تأثرهم بها واستجابتهم لمؤثراتها ، فالإنسان كأن حتى يتأثر بما حوله وينفعل به ، فيعجب بما يسر ، ويسخط على ما يؤلم ، وما أكثر المناظر السارة والمناظر المؤلمة في هذه البلاد ! .

على أن تأثر الأدباء في هذه البلاد ببيئتهم الطبيعية قد ظهرت بوادره قبل هذا العصر بكثير ، ظهرت في شعر شاعرين محافظين لم يعرفا بين الشعراء المجددين هما إسحق الموصلى<sup>(١)</sup> ومسلم بن الوليد ، فهذان الشاعران حينما أرادا أن ينسبا ، أو يتغزلا ، لم يقفعا على الأطلال يسألانها عن ظمائن الأحبة ،

(١) كان إسحق بن إبراهيم الموصلى يتمصب على أبي نواس وكان في كل أحواله ينصر الأوائل ، راجع الموشح للمرزباني ص ٢٦٣ المطبعة السلفية

كما كان يفعل الجاهليون ومن حذا حذوهم من الشعراء ، بل نراها بعد لان عن سنن الأقدمين فيتخذان مادة غزلهما من الواقع ، من بيئتهما التي كانا يعيشان فيها ، فيقفان على المياه الجارية ، مياه دجلة والفرات يسألانها عن السفن التي نأت بالحبيب .

فسلم بن الوليد يقف على الفرات يسائل مياهه لعلها تخبره عن سفن الأجابة أين اتجهت ، وأين تولت ، فيقول :

يا ليت ماء الفرات يخبرنا      أين تولت بأهلها السفن  
ما أحسن الموت عند فرقتهم      وأقبح العيش بعد ماظعنوا

أما إسحق الموصلي فإنه يأمى ويجزع حينما يطرق سمعه خبر مجيء السفن التي ستقل أحبابه ، فتفرق بينه وبينهم ، فيقول :

ما كنت أعلم ما في البين من حزن      حتى تنادوا بأن قد جرى بالسفن  
قامت تودعني والعين تغلبها      فجمجمت بعض ما قالت ولم تب  
ويظهر أثر البيئية الطبيعية كذلك بصورة أجلى وأوضح في شعر طائفة من الأدباء بزعامة أبي نواس ، فقد كانت هذه الطائفة تمثل الرعيل الأول من الفرس الذين تذبذب فيهم الميول الآرية القديمة التي نمت وترعرعت في هذه البيئة على مر العصور ، ولذلك نراهم يضيقون ذرعاً بالمناهج القديمة في الشعر فيثورون بها ، ويتمردون عليها ، ويستبدلون الديباجة البدوية بأخرى حضرية مؤلفة من وصف الشراب ومجالسه أو من ذكر النعيم والقصور والرياض والزهور .

ترى هل كانت هذه الثورة على القديم تمثل نزعة شعوبية كما يعتقد أكثر المؤرخين قديماً وحديثاً؟ ، أم أنها تمثل شيئاً آخر لا يتصل بالحياة السياسية؟  
ولسكن هؤلاء المؤرخين أنفسهم يؤكدون لنا أن أبا نواس زعيم النثرين

على أساليب القدماء كان عربي الرأي في السياسة ، وكان شاعر الأمين  
ونديمه ، وكان خصماً للبرامكة زعماء الحزب الفارسي ، حتى إن بعضهم قد  
ذهب إلى أبعد من ذلك فزعم أنه قتل بتدبير فارسي .<sup>(١)</sup>

أليس في هذه الحقائق ما يعارض بعضها بعضاً ؟ بلى ! وإذا كان الأمر  
كذلك فكيف نفسر خروج أبي نواس وطائفته على المألوف من طرق  
القدماء في الأدب ؟ وبماذا نعلل هذا التهمك المر بالعرب ، وهذه السخرية  
اللاذعة من دمنهم وأطالهم وباديتهم ؟

وعندي أن الجواب على هذه المسألة ليس شاقاً ولا عسيراً إذا أدخلنا  
أثر البيئة الإقليمية في الحساب ، أريد أن أقول إن ثورة أبي نواس لم تسكن  
تتصل بالناحية السياسية من قريب أو بعيد ، إنما هي استجابة  
أو تلبية لنداء الطبيعة ، ورجوع إلى التراث القديم من الميول والعادات  
ولهذا كان من العيب أن يطلب إلى أبي نواس أو غيره من شعراء الفرس  
أن يهيموا بالصحراء ، وأن يذوبوا وجرأً بأطلال الأحبة ، بينما هم يعيشون  
في الحاضرة بين القصور والحدائق والمياه والمروج .

فنحن إذن نرى في هذه الثورة بالأساليب الأدبية القديمة بوادر لآثار  
البيئة الطبيعية في الأدب ومحاولة للتخلص من قيود البيئة البدوية وآثارها ،  
استطاع أصحابها أن يمهّدوا الطريق بها للشعراء الذين ظهرُوا فيما بعد .

وقد كانت هذه الثورة التي تمثل استجابة الأدباء للوثرات الإقليمية  
قوية أول أمرها بحيث كادت تعصف بالقديم عصفاً فتزلزل أركانه وتذك  
بنيانه ، لولا ما عاصرها من ميل شديد إلى تدوين ما أثار عن العرب من  
شعر وأخبار وقصص وأنساب وأيام ، ولولا ما اقترن بها من نزعة شعوبية

(١) تطور الخبرات للدكتور جميل سعيد ص ٢٥٥

متطرفة في السياسة والدين ، مضافاً إلى ذلك ما في طبيعة الإنسان من إلف للقديم ، ونزوع إليه ، كل ذلك قد أحدث رد فعل قوى في الأوساط السياسية والاجتماعية والعلمية ، فكان من آثاره أن اندفع بعض الخلفاء والعلماء والرواة والنقاد إلى تأييد المذاهب القديمة في الشعر والتزام جانب أصحابها مما كان سبباً في عرقلة سير حركة التجديد وإضعاف شأنها وتخفيف حدتها ونشاطها إلى درجة اضطرت معها أبو نواس ، وهو زعيم الثائرين ، أن يسكون محافظاً في مبادئه وهجائه ، مجدداً في خمرياته ومجونه .

على أننا كنا نتوقع أن تصيب هذه الحركة في القرن الثالث الهجري نجاحاً وتوفيقاً أكثر من قبل ، لا سيما بعد أن تم تدوين العلوم العربية ، وانتطعت الصلة بين العلماء وبين الجزيرة العربية وبعد أن خف الصراع القومي بين العرب والفرس بدخول الأتراك عنصرًا ثالثاً في النزاع ، حيث سيطروا على شؤون الدولة بدلا من العرب والفرس أيام المعتصم وخلفائه ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فاضطراب الحالة السياسية في أطراف المملكة بقيام الثورات الانفصالية واضطراب الحالة الداخلية في بغداد وما جاورها على يد الأتراك ، وظهور بعض الخلفاء الذين يميلون إلى الروح العسكرية كالمعتصم والواثق والمعتضد ، كل ذلك قد هياً للشعر القديم أو الشعر الذي ينحون نحو القديم أن ينفق في البيئات السياسية والاجتماعية في العراق وأن يفضل على كل شعر سواه .

أريد أن أقول : إن انتكاس الأحوال السياسية واضطراب الأحوال الاجتماعية وسيطرة الروح الحربية على قلب المملكة وعلى أطرافها من جديد قد حدثت جميعاً من نشاط التجديد ، وغيرت من اتجاهه ، ووقفت بينه وبين أن يبلغ الغاية التي كان يريد لها له المجددون الأولون . وتعليل ذلك أن هؤلاء الخلفاء والقواد

والولاة الذين شغلتهم الحروب الداخلية والخارجية كانوا في حاجة ملحة إلى نوع من الشعر قد خلت منه بغداد أو كادت ، ذلك هو شعر الحماسة والبطولة والفروسية ، ولهذا نجدهم يفتحون أبوابهم أمام الشعراء الذين كانوا مايزالون بدوياً أو كالبدو أمثال أبي تمام والبحتري من شعراء الشام ، فقد كان شعرهم الجزل القوي الذي يجمع بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة - كما يقول الثعالبي - أقدر من غيره على إشباع رغبات هؤلاء الممدوحين ، وأقوى على أداء المعاني الضخمة التي تتطلبها حياة الضرب والحرب التي كانوا يحيونها حينذاك . ولعل هذا وحده يستطيع أن يوضع أيدينا على موطن السر في سيادة أبي تمام ثم البحتري من بعده على عرش الشعر في بغداد طول حياتهما كما أنه يستطيع أن يفسر لنا سبب تأخر ابن الرومي وابن المعتز عن طبقتهم ، إذ أنهما لم يقدر أحق قدرهما عند الساسة ونقاد الأدب ، مع أنهما كانا من أعظم شعراء زمانهما .

وهكذا كانت هذه التمسكة في الأحوال السياسية والاجتماعية في القرن الثالث الهجري سبباً في ازدهار شعر الحرب والبطولة الذي يستمد عناصره من حياة البداوة والخشونة ، الأمر الذي جعل الشعراء في العراق كابن المعتز ، والشعراء الطائرين على العراق كأبي تمام والبحتري على أن ينهجوا في مدائحهم - على الأقل - نهج الأقدمين . ولهذا لم يستطيعوا أن يتحرروا من آثار البادية ، كما لم يستطيعوا أن يتأثروا بالبيئة الإقليمية نائراً قوياً يجعل لشعرهم طابعاً إقليمياً خاصاً يميزه عما سواه من شعر .

وإذا كان شعراء القرن الثالث لم يستطيعوا أن يتحرروا من آثار البيئة البدوية في شعرهم لما قدمنا من أسباب ، فإن شعراء القرن الرابع قد تهيأ لهم أن يتفرغوا للبيئة الإقليمية الخاصة وينصرفوا عن البادية إلى حد كبير ،

ذلك أن قيام الدول والإمارات المستقلة على أنقاض المملكة الإسلامية أوائل القرن الرابع قد أدى إلى نشوء الآداب القومية في ظل هذه الدول والإمارات، الأمر الذي حمل الآداب العربي على أن يتأقلم وأن يبتعد عن أصوله الأولى، لاسيما في هذه البلاد التي عاد الحكم فيها إلى الفرس من جديد منذ أوائل هذا العصر، حيث نشأ جيل جديد من الأدباء أغلبهم ينتسب إلى أصل فارسي، وأقلمهم ينتمي إلى أصل عربي، ولسكنهم جميعا لا يمتون إلى الجزيرة العربية بصلة، ولا تربطهم بأهلها رابطة نسب أو ولاء أو إقامة أو تلمذة أو ما يشبه ذلك من الصلات التي كانت بين شعراء القرن الثاني والثالث وبين الجزيرة وأهلها إلا في القليل النادر.

بل بالعكس كان أدباء هذا العصر البويهى يتخرجون في مدارس فارسية ويتلمذون على أساتذة من الفرس، سواء في ذلك من كان منهم فارسيا أم عربيا.

ونظرة عابرة على آثار هذه المدارس الأدبية وشيوخها وتلامذتها في الري وأصبهان وهمدان وشيراز وبغداد وغيرها من مواطن الأدب في هذه البلاد ترينا بوضوح وجلال أن الثقافة الأدبية كانت فارسية وأن الزعامة فيها كانت لرجال من الفرس، ذلك أن الأستاذ أبا الفضل بن العميد صاحب الطريقة المعروفة في الترسل كان قد درس على أبيه وأخذ عنه، وأن الصاحب ابن عباد وأبا الفتح ذا السكفيتين، وعضد الدولة وغيرهم كانوا تلامذة لابن العميد هذا. وأن شعراء أصبهان وغيرها تخرجوا على الصاحب، كما تخرج يدبع الزمان الهمداني وغيره من الأدباء على أبي الحسين بن فارس في همدان، وهكذا، حتى الشريف الرضى الشاعر العربي الوحيد الذي بقي متعلقا بأذيال الماضي كان تلميذا لابن جني اللغوي المعروف.

وقد كان لهذه الظاهرة أثران اثنان :

أولهما : أن هؤلاء الأديباء الأعاجم أو المستعجمين كانوا لا يعتبرون الشعر الجاهلي مثلاً أعلى للشعر الجيد جديراً بالإعجاب والتقدير ، خليقاً بالاحتذاء والتقليد ، كما كان يفعل أسلافهم من قبل أو معاصروهم من أهل الشام مثلاً ، ذلك لأنه أصبح - في رأيهم - عاجزاً عن مسابقة الحياة في تطورها وتبدلها .

ولسنا حين نقول بهذا الرأي نرجم بالغيث أو نسير وراء الفروض ، وإنما نقول بذلك معتمدين على ما لاحظناه في أثناء دراستنا لآثار هذا العصر ، وعلى ما قال به بعض المعاصرين من أمثال أبي الحسين بن فارس وأبي منصور الثعالبي وهذا الأخير هو أول من أرخ أدب هذه الحقبة في كتابه « يتيمة الدهر » .

فأبو الحسين بن فارس يرى في إحدى رسائله<sup>(١)</sup> أن الزمان في تبدل وأن الحياة في تطور وأن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، وأن من العبث الذي لا طائل تحته أن تقصر الآداب على زمان معلوم ، وأن توقف على أناس دون آخرين ، ولهذا كان لكل عصر من العصور نتاج أدبي خاص به يلائم روحه ويتمشى مع صور الحياة عند أهله .

وإذ أراد ابن فارس أن يقنع القارىء بصحة ما ذهب إليه ، وازن بين الشعر القديم والشعر العصري فتخلص بعد ذلك إلى :

أن الأول لم يعد صالحاً للتعبير عن حاجات هذا العصر ، لأنه أصبح رثاً ، بالياً ، قد أخلقت جدته الليالي والأيام ، فبجه السمع ، ولفظه القلب ،

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢١٤ وما بعدها



وسمته النفس، ثم يعقب على كلامه هذا بقوله :  
وحتام لا يسأم : « لو كنت من مازن لم تستبح إيلي ، ؟ !  
وإلى متى : « صفحنا عن بني ذهل ، ؟ !  
وتخاص أيضاً إلى :

أن الثاني - أي الشعر المصري - لا ينحط عن درجة ما قبله من  
ناحية ، ثم إنه خلاق بالإعجاب من ناحية أخرى لما فيه من جد يروع، وهزل  
يروق ، واستتباط يعجب ، ومزاح يلهي .

ولا يفوت ابن فارس في هذا المقام أن يأتي - زيادة في التذليل -  
بشواهد كثيرة لشعراء معاصرين من قزوين وشيراز معقبا عليها بمثل هذه  
العبارات : « وكيف تقول لهذا ؟ ومن أي وجه تأتي فنظمه ؟ وبأي شيء  
تعانده فتدفعه ؟ عن الإيجاز والدلالة على المراد بأقصر لفظ وأوجز كلام ؟  
وهل ضر ذلك أن لم يقله حماد عجرد وأبو الشمقمق ؟

أما أبو منصور الثعالبي (١) فقد كان - كزميله ابن فارس - معجباً  
بهذا الشعر المصري ، مأخوذاً به ، مفضلاً إياه على كل شعر قديم محدثاً كان  
أو إسلامياً أو جاهلياً ، لأنه - أي الشعر المصري - كان أجمع لنوادير  
الحاسن وأنظم للطائف البدائع من غيره .

وكان مفتوناً به أيضاً، يرى أنه يكاد يخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز  
ومن حد الشعر إلى السحر ، لأنه ينتهي إلى أبعد غايات الحسن ، ويبلغ  
أقصى نهايات الجودة والظرف ولأنه يمتاز برواء الحدائث ولذة الجودة وحلاوة  
قرب العهد وازدياد الجودة .

ثم يعقب على هذا بقوله : « فكان الزمان أدخر لنا من نتائج خواطرهم

(١) قيمة الدرر ١ : ٢ ، ٣

ومرات قرأتهم وأبكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء لأقسام البراعة وأوفرها نصيباً من كمال الصنعة ورونق الطلاوة.

لهذا كله، ولما يشين الشعر القديم من نبو العين من إخلاق جدته، وبلى برده وهج السمع لمردداته، وملاحة القلب من تكرراته، يفضل الشعالي وغير الشعالي من معاصريه هذا الشعر العصري ويؤثرونه على كل شعر سواه... وثانيهما: أن الهضبة الإيرانية وما جاورها من السهول قد أصبحت موطن الوحي والإلهام والذكريات بالنسبة لأدباء العصر البويهي بدلاً من الجزيرة العربية، يدلنا على ذلك ما لاحظته التوحيدى على أنى الحاتمي حينما بدا له أن يحدو في شعره ونثره حدو القدماء إذ قال فيه: «إنه غليظ اللفظ، كثير العقد، يجب أن يكون بدويًا قحًا، وهو لم يتم حضريًا... جامع بين النظم والنثر على تشابه بينهما في الجفوة وقلة السلاسة، والبعد عن المسلوك، بادى العورة فيما يقول» (١)

أو مالا حظته على ابن نباتة السعدي الذي تخرج في مدرسة الشام - وهي ما تزال تسلك سبيل الأقدمين في شعرها - فأحسن تقليدها واحتذاءها، إذ قال فيه: «قد لحق عصاة سيف الدولة، وعدا معهم ووراءهم، حسن الحدو على مثال سكان البادية...» (٢)

كل ذلك جعل الصلة قوية بين أدباء العصر البويهي وبين بيتهم الطبيعية فتأثروا بها واستجابوا لدواعيها. ولا عجب، فقد كانت موطن لذاتهم وأحلامهم وفتنتهم، وكيف لا، وقد سبأهم صوت خرير الماء السائح وشجائهم تغريد الطيور والحمام، وملك عليهم سحر الرياض والجنائن قلوبهم ونفوسهم

(١) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٥

(٢) نفس المصدر ١: ١٣٧

ففضلوها على بوادي الأعراب وأطلالهم وداراتهم؟<sup>(١)</sup>  
لو عاينت عيناك بركة زلزل ونزلت من عرصاتها في منزل

\*\*\*

ورقدت بالنجمى رقدة شارب تحبت الغصون وحملها المتهدل  
وسبائك صوت خريز ماه سائح وشجاك تغريد الحمام المهدل  
وسعيت سعياً في البطالة والصبيا لم تذر دمعاك في محل محول<sup>(٢)</sup>  
ولقلت وا أسفا على القصف الذي لم أجته بالقفص أو قطر بل<sup>(٣)</sup>  
لا أتبع الأعراب إن هم قوضوا من مجهل حتى أحط بمجهل  
وصرير أرجاء السرير بمسمعي أحلى بقلبي من صرير المحمل  
فالكرخ دار اللهو أعذب مشرعاً من مشرع يختص دائرة جلجل  
لادرر العيش في متربع بمخيم بين الدخول فحومل  
ومهما يمكن أن يقال في هذا الموضوع فقد ظهرت آثار البيئة الطبيعية  
الصامته والحية واضحة كل الوضوح فيما أنتجوا من أدب ، ونستطيع أن  
نلحس ذلك في موضوعات الفصلين التاليين .

---

(١) بتيمة الدهر ٣ : ١٦٧ (٢) تدرى من أذرى الشيء بمعنى القاه وأذرت  
قهرين دمعا إذا صبته . والمحول الذي أتى عليه حول . (٣) - القفص وقطر بل:  
الريتان مشهورتان بين بغداد وهكبرا كانتا من مواطن اللهو ومعاهد النزه ومجالس  
الفرح ، فنسب إليهما الخمر الجيدة والحانات الكثرية وهما منزهة للبطالين (معجم ياقوت)

## الفصل الأول

### الطبيعة الصامتة

#### ١ - الرياض :

لقد مر بنا أن الهضبة الإيرانية وما يحف بها من سهول كانت تمتاز بتربة خصبة وأنهار جارية ونبابيع متفجرة ، فكثرت فيها النباتات والأشجار المثمرة والرياض الزاهرة ، فأوحت إلى سكانها منذ القدم بحب هذه المظاهر الطبيعية حتى قدسوها وعبدوا من أجلها «أناهيتا» آلهة الغمام والخصوبة والتوالد والأنوثة (١)

ولذلك نراهم يعشقون الزهور ويكلفون بالرياض ويهيمون بالخنضرة ، ولا عجب ، فحب الإيرانيين للزهور والحدائق والبساتين قديم ، وقصة حضارتهم تروى لنا أنهم «كانوا يمتلكون المنازل الجميلة والحدائق الغناء التي تكبر وتتسع أحياناً حتى تصبح حظيرة للصيد والقنص أو مأوى لمختلف الحيوانات كحدائق الحيوان في عصرنا الحاضر» (٢) .

وكذلك يحدثنا تاريخ فنونهم أنهم كانوا يتخذون من رسوم النباتات والأزهار عنصراً من عناصر الزخرفة في تصويرهم وفي خزفهم ونسيجهم (٣) وما زاد في حبهم للرياض عادة شرب الخمر ، فلا مر ما كانوا يعتقدون مجالس الشراب والطرب على أرض خضراء بين الغصون والأزهار والمياه

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٥٢ (٢) نفس المصدر ص ٦٦

(٣) الفنون الإيرانية للدكتور زكي حسن ص ٣٠٦

الجارية فتجتمع لهم اللذة من أطرافها. وعادة شرب الخمر في هذه البلاد قديمة تتصل بطقوسهم الدينية ، إذ كانوا يتناولون شراباً مسكراً يستخرجونه من عشب « الهوما » الذي يكثر على سفوح الجبال في بلادهم . وكان ذلك من أجل آلهم « ها أوما » ، الثور المقدس الذي أشفى على الموت ثم انبعث حياً وسقى البشر دماءه ليكسبهم البقاء والخلود . (١)

وطبيعي أن يتوارث سكان هذه البلاد تلك الميول والعادات جيلاً بعد جيل ، فراهم ينشئون البساتين الجميلة ويشربون فيها الخمر ويعتبرونها لذة الدنيا وبهجة الحياة . روى عن الخليفة القاهر أنه أنشأ لنفسه بستاناً كبيراً قد غرس فيه النارج وقد حمل إليه من أرض الهند ، فاشتبكت أشجاره ولاحت ثماره وتنوعت أطياره ، فكان يكثر فيه الجلوس والشراب وكان يقول فيه : هو لذتي من الدنيا .

وطبيعي أيضاً أن يكون الربيع ، وهو الفصل الذي يمتاز بكثرة رباضه وزهوره ورياحينه ، أثراً عندهم ، محبباً إلى نفوسهم ، فيحتفلون بقدمه ويجعلون أوله عيداً يدعونه عيد النيروز يمارسون فيه الطرب والدهو ويظهرون الفرح والسرور .

وهذا أمر طبيعي يتمشى مع طبيعة الحياة في هذه البلاد ، ففي فصل الربيع الذي يعقب فصل الشتاء الطويل القاسي ، تعود الحياة إلى الأشجار والنباتات فتورق وتزهو وتنمو الأعشاب والورد البرية فتكسو وجه الأرض الكالح ببساط أخضر قد طرز بمختلف الألوان ، ويرق الجو بما يغشاه من أنسام عليلة وأشعة دافئة وصحو جميل .

---

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٣٩

فلا عجب إذا رأيناهم يعتبرونه بشيراً بإقبال السعادة والهناء ،

فيستبشرون به :

أبشر بنسروز أتاك مبشراً بسعادة وزيادة ودوام  
وأشرب فقد حل الربيع نقابه عن منظر مهال بسام

ويحيونه :

حى الربيع فقد حيا بيا كور من نرجس ببهاء الحسن مذكور  
كأنما جفنه بالغنج مشفحاً كأس من التبر في متديل كافور

ويجزعون لفراقه :

استزرنى بحرمتى أو فرزنى إن هذا الربيع ليس بيباق  
آفة البدر ما علمت كسوف وكسوف المحب يوم الفراق

وهكذا ظفر الربيع بحظ موفور من حبهم وعنايتهم ، فاستهواهم كما  
استهوى أسلافهم من قبل فوصفوا رياضه وما فيها من أزهار وأغصان وطير  
وماء في مدائحهم ، كما كان يصف الجاهليون باديتهم وما فيها من أطلال  
وحيران وأعشاب وهم في طريقهم إلى الممدوح . فهذا أبو الحسين الغويري (١)  
يبيب بالصاحب أن يقسم الرسم في صبيحة النيروز بكؤوس مملوءة من  
الخمر يجدد بها ما اندرس من ربوع الأنس والطرب ، بعد أن يقدم بين يديه  
صورة للربيع بديعة الصنع تامة التكوين ، يبرز فيها الألوان في تناسب دقيق  
وتدرج واضح ، ويشق فيها الجداول تناسب فيها المياه ، وتمايل فوق  
حواشها الأغصان المنورة ، وتنقل بين أزهارها الزرايزر والحمام في صغير  
وهديل ، فيقول : (٢) .

أيها الصاحب الربيع تجلى في رياض تحار فيها العقول  
نرجس ناضر وأحر ورد وشقيق بزيتة التكييل

(١) من أصبهان وهر من شعراء الصاحب بن عباد (٢) اليتيمة ٣ : ١٦٢

وغصون تجر أذيال نور في حواشي جداول وتميل  
للرزازير في خلال الأزاهير صفير وللحام هديل  
فأقم رسمنا صبيحة نير و ز به ربسع أنسنا مأهول  
بكووس مملوءة من مدام أنت لمن حساها عدول  
ونحو هذا قول أبي محمد الخازن (١) في الربيع ولكنه زاد على صاحبه  
بان أسبغ على الكائنات الصامته من ذاته حسا وحركة وحياء، فإذا هي تضطرب  
وتتحرك وتتسكلم، إذ صور الربيع على هيئة إنسان يطلع على الأرض  
فيطلب إليها أن تشكر نعم السماء وأن تبالغ في هذا الشكر، فإذا الحدائق  
تستجيب لندائه فتواصل شكرها بالسنة الطيور المغردة .

ثم إنه صور النرجس الغض ضعيفا ، متهاككا ، عليلا ؛ حتى إذا بصرت  
به الصبا وهو في حاله تلك أشفقت عليه فعادته : (٢)

طلع الربيع فقال للأرض اشكري نعم السماء وأبدئي وأعيدي  
فعدت حدائقها تواصل شكرها بلسان كل مطوق غريد  
روض إذا نشرت طرائف وشيه طويت لها أبراد آل يزيد  
ريان لم يعثر نسيم صباقي في ظلها إلا بورد حدود  
واعتل نرجسه فعادته الصبا أحسن بنظرة عائد ومعود (٣)  
وكذلك أكثروا من وصف الربيع في جو الخمر لما بينهما من علاقة

(١) هو أبو محمد عبدالله بن أحمد الخازن أصبغاني الأصل . تولى خزائن  
كتب الصحاح في حدائنه ثم غضب عليه الصحاح فهرب إلى العراق فالشام فالحمجاز  
ثم عاود حضرة الصحاح في جرجان مستعظفا ومهذرا .

(٢) اليتيمة ٣ : ١٥٩ (٣) عاد المريض زاره فهو عائد.

وثيقة ، كقول السلامي (١)

نسب الرياض إلى الغمام شريف  
فاشرب وثقل وزن جامك إنه  
أو ما ترى طرز البروق توسطت  
واليوم من خجل الشقيق مضرج  
والأرض طرس والرياض سطوره  
وكأنما الدولاب ضل طريقه  
وقول السروي (٥)

أما ترى قضب الأشجار قد لبست  
منظومة كسموط الدر لابسة  
وغردت خطباء الطير ساجعة  
وكا وصفوا رياض الربيع وزهوره في معرض المدح، كذلك وصفوه  
مستقلة مما يدل على أنها قد أصبحت عندهم غرضاً رئيسياً من أغراض  
الأدب ، نجد ذلك عند التنوخي والصابي وغيرهما من الأدباء .

قال التنوخي في الروض : (٧)

وررياض حاكت لهن الثريا  
نثر الغيث در دمع عليها  
أفحوان معانق لشقيق  
وعيون من نرجس تتراى  
حلالا كان غزلها للرعود  
فتحلت بمثل در العقود  
كشغور تعض ورد الحدود  
كعيون موصولة التسييد

(١) بقيمة الدهر ٢ : ١٧٠ (٢) الشفوف جمع شف وهو الثوب .

(٣) الطرس : الصحيفة عموماً (٤) الدولاب كل آلة تدور على محور .

(٥) بقيمة الدهر ٣ : ٢٨٠ (٦) السموط جمع سمط وهي القلانيد .

(٧) المرجع السابق ٣ : ٢٨٠



وكان الشقيق حين تبدي ظلمة الصدغ في خدود الغيد (١)  
وكان الندى عليها دموع في جفون وفجوة بفقيد  
وقال الصابي في الورد: (٢)

أما ترى الورد قد حياك زائره بنفحة فرجت عن كل مصدرور  
كان أنفاسه أنفاس غانية معشوقة خالطت أنفاس مخور  
تفتحت وجنات في جوانبه كأنها انتزعت من أوجه الحور  
وقد تشتد الألفة، وتقوى الصلة بينهم وبين هذه الرياض، حتى إذا فارقوها  
تذكروا عهدهم الحبيبة في ظلالها، فحنوا إليها، وتغنوا بهذا الحنين كقول  
سعيد الطبري: (٣)

أروضتنا - سقاك الله - هل لي إلى أفياء دوحك من مصير؟  
غنيما في ذراك على غناء وافق رجعه سجع الطيور  
وكم في فرع أثلك من صفير وكم في أصل أثلك من زفير  
وأحشاء تولفها الحشايا كتأليف العقود على النحور  
وشدو ترقص الأعضاء منه وهم لا يمل عراك زير (٤)  
فيالك روضة راعت فراحت رضى الأبصار من نور ونور

فهو يدعو لروضته بالسقيا، ويتمنى لو استطاع أن يصير إلى أفيائها مرة  
أخرى، ولكن أيدي الليالي قد ضربت بينه وبينها، فلم تبق في نفسه من  
ألوان العيش الرغيد إلا أصداغ الغناء وسجع الطيور وصفير الحمام وزفير

---

(١) الصدغ: ما بين العين والأذن وهما صدغان، والشعر المتدلى على هذا  
الموضع وهو المقصود هاهنا. (٢) اليتيمة ٢: ٤٢ (٣) نفس المرجع ٣: ٢٨٤  
(٤) البم من العود أغلظ أو تاره والزير الدقيق من الأوتار.

الشرب وحركات أعضائهم ، وعراك اليم والوزير ، ولذلك تراه يحاول أن يستعيد الذكري بهذه الألفاظ الموسيقية السلسة فيجانس ويطاقق ويستوحى الألفاظ والحروف .

هذا ولما كانت بيئتهم الطبيعية غنية بالمنازة فإنهم تأثروا بها ، فوصفوها كما فعل السلامي حينما وصف شعب بوان .

قال صاحب اليتيمة : (١) نزل عضد الدولة شعب بوان والسلامي معه متوجها إلى العراق فقال له : قل في الشعب ، فقد سمعت ما قال المتنبي فعاد إلى خيمته وكتب :

اشرب على الشعب واحلل روضة أنفا      قد زاد في حسنه فزدد به شنفما (٢)  
إذ ألبس الهيف من أغصانه حللا      ولقن العجم من أطياره تنفسا (٣)  
ونمرت حسنه الأغصان مشمرة      من نازع قرطا أو لابس شنفما (٤)  
والماء يشنى على أعطافه أزراً      والريح تعقد في أطرافها شرفا (٥)  
والشمس تحرق من أشجارها طرفا      بنورها فترينا تحتها طرفا (٦)  
من قائل نسجت درعا مفضضة      وقائل ذهبيت أو فضضت صحفا

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٢ (٢) روضة أنف : لم توطأ ولم ترع

(٣) الهيف جمع أهيف وهو الضامر البطن وتنف جمع تنفة وهي الشيء القليل  
(٤) نمرت : جمعت فيه نكتا مختلفة الألوان والمفرد نمرة بضم أوله وتسكين ثانيه . والقرط ما يعلق في شحمة الأذن من درة ونحوها والشنف بفتح الشين ما يعلق في الأذن أو أعلاها من الخلى . وتحريك الراء في قرط والنون في شنف للضرورة الشعرية . (٥) الشرف جمع شرفة وهي ما أشرف من البناء .  
(٦) الهاء في أشجارها تعود إلى الروضة والطرف جمع طرفة وهي الماحة .

ظلت تزف لها الدنيا محاسنها      وتستعيد له الألفاظ والتحففا (١)  
من عارض وكفا أو طائر هتفا      أو بارق خطفا أو سائر وقفا (٢)  
ولست أحصى حصى الياقوت فيه ولا      درأ أصادفه في مائه صدفا  
يظن من وقفت فيه الشجون به      أن الصباية شابت والهوى خرفا  
تعسف الشوق فيه كل ذى شجن      والشوق أطفه ما كان معتسفا  
فاحلل عرى الهم واشربها مشعشة      رق النسيم مبرارة لها وصفا  
وانتقف عند هذا القدر ، فالحديث في هذا الموضوع طويل .

\*\*\*

## ٢ - الماء

وكما أحبوا الرياض وافتتنوا بها ، كذلك أحبوا المياه وافتتنوا بها ،  
فقد سحرتهم الينابيع يتفجر ماؤها وينحدر على سفوح الجبال فيحدث خيراً  
يحبوا وقعه في المسامع ، كما سحرتهم الأنهار والجداول ينساب فيها الماء في  
رفق وهدوء فتتكسر على صفحته أشعة الشمس ونور القمر أو تضر به الريح  
فيتخدد ويتموج كأنه السيوف اللامعة بين أثناء الدروع .

وهذه الفتنة بالمياه أمر طبيعي بالقياس إلى أناس يعيشون في بيئة  
تكثر فيها الأنهار والينابيع والسدود ، يحف بها الشجر والزهر والنخيل ،  
ولهذا نراهم يصفون الأنهار ومياهها وما يحيط بها من معاهد وجنان ،  
ويتفننون في هذا الوصف .

لقد أعجبوا بالماء الجاري فشبها خريره بالرعود ومثلوا ما تفعله الريح  
هوق صفحته من أخايد وتجاعيد تنعكس عنها أشعة القمر بالسيوف والدروع .

(١) الألفاظ الهدايا والتحف والأشياء الفاخرة الثمينة .

(٢) العارض السحاب ووكف بمعنى سال قليلا قليلا .

فمن ذلك قول القاضى الجرجانى يصف موضعه بناحية رامهرمز : (١)  
كأن خريبر الماء فى جنباتها رعود تلتقت مزنة تستريحها  
إذا ضربتها الريح وانسبط لها ملامة بدر فصلتها وشيعها (٢)  
رأيت سيوفا بين أثناء أدرع مذهبة يغشى العيون لميعها  
فمن صنعة البدر المنير نصولها ومن نسج أنفاس الرياح دروعها  
وافتنوا به وهو يجرى على الرضراض فشيهوره بصفائح التبر المذابة ،  
تشتد فى جريها حتى ليخيل إلى الرائي أنها أصيبت بالجنون فسكرتتها الريح  
بالسلاسل والأغلال : (٣)

وماء على الرضراض يجرى كأنه صفائح تبر قد سبكن جداولا (٤)  
كأن بها من شدة الجرى جنة فقد ألستهن الرياح سلاسل  
وهاموا به وهو يتسلسل خلال الروض ، كالحيات خف سراها ، ولسكنها  
تنسل أو تنساب دون أن تؤذى ، فكأن لها من وشى الحباب رقى تمنعها  
من اللذع والإيذاء : (٥)

يتسلسل الماء الزلال خلاله فتخاله الحيات خف سراها  
تنسل أو تنساب غير لواذع فكأنما وشى الحباب رقاها (٦)  
وربما كان هناك من يرى أن هذا الإعجاب بالماء متكلف ، وأن هذا الشعر  
الذى يصوره مصنوع ، قد نهجوا فيه نهج القدماء ، فالماء موجود فى كل

---

(١) بيتيمة الدهر ٣ : ٢٤٨ (٢) الملامة ثوب يلبس على الفخذين أو الربطة  
ذات لفتين والشيع ما يجعل حول الحديقة من الشوك ونحوه منعا للداخلين .  
وفصلتها أى جعلتها فصولا أو نطعا متبايزة (٣) البيتيمة ٣ : ٤٨ (٤) الرضراض  
عصاغر ورق من الحصى (٥) البيتيمة ٢ : ١٢٧ (٦) الحباب الفقاقيع التى تعلق  
الماء أو الخمر .

بيئة والشعر الذى قيل فى وصفه كثير وقديم .

وقد يكون هذا الرأى وجيها ، وقد يكون مقبولا ، لو أن هؤلاء الأدباء وقفوا عند وصف الماء والفتنة به ، كما فعل أسلافهم من قبيل ، ولسكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك كثيرأ حينما تناولوا فى أدبهم موضوعات جديدة مستمدة من بيئتهم النهرية ، بينما لم يتناولها أسلافهم ممن كانوا يعيشون فى هذه البيئة .

لقد وصفوا أنهار بلادهم بالذات كدجلة والأبلة ومعقل والمسرقان كما وصفوا ما يحدث فيها من مد وجزر وفيضان ، وما يجرى فوقها من سفن وقوارب ، وما يكتنفها من رياض وبساتين وقصور ، وما يقام فى بعضها من سدود .

وكان وصفهم هذا يدل على حب عميق لهذه المظاهر الطبيعية وتعلق شديد بها ، كما يدل أيضا على تجلّى الشخصية الإقليمية فى الأدب بصورة ملموسة . ونجد هذا التأثير بالبيئة النهرية واضحا كل الوضوح فى شعر كثير من أدباء هذا العصر أمثال ابن القاسم التنوخى وأبى الحسن السلامى وعبد العزيز ابن يوسف وأبى هلال العسكري والسرى الرفاء وغيرهم .

أما أبو القاسم التنوخى فقد عاش فى البصرة زمنا طويلا من حياته والبصرة - كما هو معروف - بلد الأنهار والجداول والسواقي التى تؤلف بتقاطعها واختراق بعضها بعضا شبكة واسعة من النهرات تغطى مساحة كبيرة من الأرض وكانت هذه الأنهار تجرى وسط غابات كثيفة من البساتين والجنائن ، تتشابك أشجارها وتتعانق أغصانها وتزاحم ورودها وتكثر أطيافها ، وكان يقوم على جوانب هذه الأنهار بين الجنائن وأشجار النخيل الباسقة كثير من القصور . فلا عجب إذا هام أهل البصرة بهذه المناظر

الأنيقة والمعاهد الخلابة فجاسوا خلالها وهم على متون القوارب والزواريق،  
أو أقاموا في جوانبها حيناً من الزمان يتمتعون النفس والقلب والحس بما  
يسمعون من غناء وما يشربون من كؤوس بين الماء والورد والخضرة،  
فقد كانت هذه المغاني، وما تزال، مواطن اللهو والسرور والطرب عند  
البصريين .

ولا عجب أيضاً إذا رأينا التنوخي يعجب بهذه البيئة النهرية الساحرة  
ويعشقها من أعماق نفسه، فيرتدى في أحضانها، لتقيمه الآلام، وتنسيه  
الهموم، وتبعث في قلبه النشوة والسرور بمائها وجنانها وقصورها وأطيافها،  
فنلس أثر ذلك كله في وصفه لنهر معقل ودجلة والأبلة، بقصيدة كثيرة  
العيون، زاخرة بمعاني الحب والجمال والفناء في الطبيعة، قد أعجب بها صاحب  
فضلها على سائر شعر التنوخي، كما يقول الشعالي .

وهذه القصيدة الرائعة تنهض حجة قوية على من ينسكرون أثر البيئة  
الإقليمية في الأدب، ولهذا سنثبتها فيما يلي دون تحليل أو شرح لسهولة  
ألفاظها ووضوح معانيها أولاً ولا اعتقادنا بأنها من الشعر الذي يفسده الشرح  
والتحليل ثانياً . وهذه هي : (١)

أحبب إلى بنهر معقل الذي      فيه لقلبي من همومي معقل  
عذب إذا ما عب فيه ناهل      فسكأنه في ريق حب ينهل (٢)  
متسلسل وكأنه لصفائه      دمع بجندي كاعب يتسلسل  
وإذا الرياح جرين فوق متونه      فسكأنه درع علاها صيقل (٣)

(١) البيهية ٢ : ١١٠ (٢) الحب : المحب والمحبوب

(٣) الصيقل شحاذ السيوف

وكأنها ياقوتة أو عين زرق تلائم بينها وتواصل  
وكأن دجلة إذ يغطمط موجهها ملك يعظم خيفة ويوجل (١)  
عذبت فما تدرى أماء ماؤها عند المذاقة أو رحيق سلسل (٢)  
ولها بمد بعد جزر ذاهب جيشان يدبر ذا وهذا يقبل  
وإذا نظرت إلى الأبله خلتمها من جنة الفردوس حين تخيل  
كم منزل في نهرها آل السرو ربأنه في غيره لا ينزل  
وكأنما تلك القصور عرائس والروض حل في خود ترفل  
غنت قيان الطير في أرجائها هزجاً يقل له الثقل الأول (٣)  
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت يوم الوداع وعيرهم يترحل  
ربيع الربيع به فحاكت كفه حملابها عقد الهموم تحلل (٤)  
فمديج وموشح ومدنر ومعمد ومحجر ومهلل (٥)  
فتخال ذا عينا وذا ثغرا وذا خدأ يععض مرة ويقبل

وكذلك تغنى السلامى بنهر معقل على سبيل الذكرى لأيام لهوه السالفة ،  
إذ كان يتفق حياته في اللهو والخمر والغناء بين يدى الخمار والملاح ، ولسكنه  
لم يبلغ ما بلغ التنوخي من قدرة على اجتلاء محاسن هذا النهر والهيام به والفناء  
فيه، ولو أنه زاد عليه فوصف المركب والملاح : (٦)

(١) يغطمط : غطمط البحر عظمت أمواجه (٢) الرحيق الخمر

(٣) القيمة : المغنية ، والمزج والثقل الأول ضربان من الألحان .

(٤) ربيع به أقام به (٥) المديج المزين بالديباج وهو الثوب الحرير، المدنر

الاشترق المتلائيء كالدبشار والمحجر الموشى والمهلل الثوب جعلت فيه صرر على

شكل الهلال . (٦) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٤

زمن فات بين لهو وشرب وغناء وراحة وارتياح  
معقلي نهر معقل فإن ارتحمت إلى منزل فدير نجاح  
وحياتي بما حوته إلى الخمار مصروفة أو الملاح  
مركبى مثل لمتى أدهم جون ويحكيمها نديمى وراحي  
ولسكن السلامى إذا قصر فى وصفه لنهر معقل فإنه تلافى هذا التقصير  
حينما صور مفاتن دجلة فأبدع فى تصويرها فى جو الناريلية السدق، فقد كان  
من عادة الفرس القدماء أن يحتفلوا فى هذه الليلة بإيقاد النيران وتأجيجها  
وإرسال الوحوش فيها، وتطير الطيور فى لهبها، والشرب والتلهى حولها،  
فلما عاد السلطان إلى الفرس فى هذا العصر أحيوا هذه العادة من جديد،  
فصارت رسماً من رسوم ملوكهم يقيمونه كل عام.

وكان منظر دجلة هذه الليلة خلابة، يستثير الفطنة والإعجاب فى نفوس  
الشعراء فوصفوه، وأكثروا من وصفه، من ذلك قول السلامى:

ولم نر بجرأ جرى بالعقا ر ولا ذهباً صيغ منه جبل (١)  
إلى أن جرت دجلة فى الشعاع وطنب بالنور أعلى القفال  
سحاب الدخان وبرق الشرا ر ورعد الملاحى وغيث الجدل  
وما زال يعالو عجاج الدخان حتى تلون منه زحل  
فكنا نرى الموج من فضة فذهبه النور حتى اشتعل  
وقوله من سدقية أخرى:

أست ترى الأوضاح فى دهمه الدجى ومنشئها بالنناظرين رفيق  
دخانا سخامى الصفات شراره بروق وعقد الريح فيه وثيق (٢)  
وليلاً كيوم الوصل أما رباحه فزهر وأما مسكه ففتيق

(١) العقار من معانيه الصبيغ الأحمر (٢) السخام السواد



وبغداد بحر ساحلاه جواهر ودجلة روض طرتاه شقيق  
وقد صار ياقوتا حصاها وعنبراً ثراها وأمسى الماء وهو رحيق

\* \* \*

على أن أثر هذه البيئة النهرية في الأدب لم يكن مقصوراً على وصف  
الأنهار وتصوير محاسنها فحسب ، بل تعداها إلى وصف السفن التي كانت  
تتخذ وسيلة للانتقال أو لحمل البضائع والحبوب والثمار من بلد إلى آخر .  
فهبّار الديلمي يصف السفينة التي نقله إلى الممدوح كما كان شعراء الجاهلية  
يصفون نياقهم ، فهو يصفها بأنها دهماء لأنها مطلية بالقار الأسود ، وبأنها  
ملساء تجرى فوق ماء أملس ، فلا يتشذب لها خف ، ولا يحفى لها حافر ،  
وبأنها سريعة في سيرها فلا تحتاج إلى سوط ولا صوت :

يا راكب الدهماء تمطوبه في زافر تياره زاجر  
ملساء تجرى منه في أملس يروى صداها نغمه الثائر  
تطوى السرى لم يتشذب لها خف ولم يحفى لها حافر  
سابقة لا السوط هيبا به فيه ولا الصوت لها زاجر (١)  
إذا سوافي الريح شقت على الركب سفتها العاصف العاصر (٢)  
يزاحم القاطول من دجلة رام إلى البحر بها صائر (٣)  
يرود روض الجود حيث استوى ظل ورف الورق الناضر (٤)

والسرى الرفاء يصف هذه السفن أيضاً وقد تقاذفتها أيدي الأمواج  
الصاخبة في دجلة فيشبهها وهي تعلو وتهبط برقص بنات الزنج حينما تستولى

---

(١) الهيباب : المريع (٢) السوافي الرياح التي تحمل التراب . وسفتها حملتها  
كما تحمل الريح التراب . (٣) القاطول نهر متفرع من دجلة في سامراء .  
(٤) ديوان مهبّار : ١ : ٨٠

عليهن ممورة الشراب، أو بالخبول الدم المذعورة، أو بصفوف الطير التي  
أفزعتها أمود السماء من نسر وصقر وبازي، فلاذت بالأرض تبغي الاحتباء  
والنجاة:

أحذركم أمواج دجلة إذ غدت مصندلة بالممد أمواج مائها  
فظلت صغار السفن يرقصن وسطها كرقص بنات الزنج عند انتشائها  
تغرقها هوج الرياح وتعتلى ربي الموج من قدامها وورائها  
فهن كدهم الخيل جالت صفوفها وقد بدرتها روعة من ورائها  
كأن صفوف الطير عاذت بأرضها وقد سامها ضيما أسود سمائها (١)  
ونحو هذا قول أبي هلال العسكري: (٢)

مرت بنهر المسرقان عشية فأبصرت أقماراً تروح وتغرب  
كأنهم در تقطع سالكه وغودر فوق الماء يطفو ويرسب  
فكم ثم من خشف على الماء لالعاب فيا من رأى خشفاً على الماء يلعب  
كان السميريات فيه عقارب تجيء على زرق الزجاج وتذهب (٣)  
وكا وصفوا السفن، كذلك وصفوا السمك والشباك، وأكثر ما نجد ذلك  
عند السرى الرفاء ومهيار الديلمي.

قال الأول:

تضحك عن مثل صغيرات المدى كأنها عقد لآل قد وهي  
أو عن نقى البطن موشى القرى تومض فيها كالخسام المنتضى  
لم يدر لما قصرت عنه الخطى أظلمه منها رداء أو ردى  
فذلك اللذات لا صيد الطلا

(١) ديوان المعاني ٢ : ١١ (٢) نفس المصدر ٢ : ١١

(٣) السميريات مراكب أهل سميرة بصيغة التصغير

وقال الثاني :

وجارية بيضاء حمراء ربما تكون غداً سوداء إن شئت أو صفراء  
تعيش بخفض ما تمت ونعمة بحيث سواها لو يرى فارق العمرا  
سرت تقطع الخرق الوسيع وما مشيت ولا ركبت فيه سفيناً ولا ظهرا  
مسرلة لم تدفع النبيل درعها وعريانة لم تشك قيظاً ولا قرا  
وكذلك وجد عندهم شيء آخر يتصل بالأنهار هو وصف السدود التي  
كانت تقام في الأنهار، من ذلك وصف السد الذي بناه عضد الدولة في شيراز  
كقول عبد العزيز بن يوسف :

شربنا ذهباً يجري بشاطيء فضة تجري  
وما زلنا على السكر<sup>(١)</sup> نداوى السكر بالسكر  
درينا كيف أصبحنا وأسينا وما ندرى  
وقاض الماء فيض البحر منصباً إلى بحر  
وليس من شك في أن ما تقدم من نماذج شعرية لينهض دليلاً قويا على  
شدة تأثرهم ببيئةهم النهرية وعلى انعكاس هذا التأثير فيما أنتجوا من أدب .

\*\*\*

### ٣ - المناخ

١ - الحر والبرد والرياح :

ذكرنا فيما سبق أن الطقس في هذه البلاد متقلب بين الحرارة والبرودة  
والاعتدال، وأن الحر والبرد إذا اشتدا أصبح الجو تحت تأثيرهما جحماً أو  
زمهريراً ليس إلى احتمالهما من سبيل. وقلنا أيضاً إن الناس كانوا يلجأون إلى

(١) - السكر بكسر السين ما يسد به النهر وجمعه سكور.

السراديب أو استعمال الخيش والمرائح هرباً من حر الصيف ، كما كانوا  
يحتمون بالبيوت المغلقة الأبواب ، وبالملابس الثقيلة ، ووسائل الدفاع المختلفة  
اتقاء لبرد الشتاء ، ولسكنهم مع ذلك لم يكونوا بمنجى من التعرض لآثار هذا  
الطقس القاسي .

ولهذا انعكست آثاره القاسية في الأدب إذ ضاق الأدباء بحجره وشكوا  
منه ، كقول الزعفراني :

تعاونها على سموم صيف بلفح من لظاء واتقاد  
وقول الصابي :

ولييلة لم أذق من حرها وسنا كأن من جوها النيران تشتعل  
أحاط بي عسكرك للبق ذو لجب ما فيه إلا شجاع فاتك بطل (١)  
من كل مائلة الخرطوم طاعنة لا تحجب السجف مسراها ولا الكلال  
طاوفا علينا وحر الصيف يطبخنا حتى إذا طبخت أجسامنا أكلوا  
وحملهم الحر الشديد على الإعجاب بالخيش والماء المثلج ، فذكر وهما في  
أشعارهم كقول ابن الحجاج :

الخيش نصف النهار يعجبني والماء بالثلج بارداً خصر (٢)  
وقول الصابي :

لطف نفسي على المقام ببغدا د وشربي من ماء كوز بثلج  
وكما ضاقوا بالحر وأحبوا من أجله الخيش والماء المثلج ، كذلك ضاقوا  
بالبرد ولجأوا من أجله إلى النار ، فظهر أثر هذا الضيق في أدهم كقول التنوخي  
أما ترى البرد قد وافت عساكره وعسكر الحر كيف انصاع منطلقا  
والأرض تحت ضريب الثلج تحسبها قد ألبست حبيكا أو غشيت ورقا (٣)

(١) ذو لجب ذو جلبة وكثرة (٢) الخيش نسيج خشن من الكتان .

(٣) الحبك جمع حبيكة من معانيها الدرع الحديد .

فانهض بنار إلى فحم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد انفقا  
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا  
برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا

ولكن جيوش هذا البرد التي حلت في البلاد بعد انهزام جيوش الحر  
فألبيت الأرض ثوباً أبيض من ضريب الثلج ، لم تبعث في قلوب الناس  
أمناً ، ولم تنشر بينهم سلاماً ، بل نقلتهم من حال سيئة إلى أخرى أسوأ  
منها ، فإذا هم مقيدون ، مكبلون ، فلا يستطيعون حركة ، ولا يقوون على  
كلام ، وإذا هم خرس ومفاليج دون أن تنالهم علة أو يصابوا  
بمرض :

وليلة ترك البرد البلاد بها كالقلب أشعر بأساً وهو مثلوج  
فإن بسطت يداً ، لم تنبسط خصرأ وإن تغلّ - فغلّ فيه تثلج (١)  
فنحن منه - ولم نخرس - ذوو خرس ونحن منه - ولم نفلج - مفاليج

\* \* \*

أما الرياح ولاسيما الجنوبية منها فقد تهب عاتية ، عاصفة ، وقد يتلبد معها  
الجو بالغيوم أو بالأتربة الناعمة التي تحملها من الصحراء ، فيضيق بها الناس  
ويلقون منها نصباً شديداً . قال المقدسي : « ورأيتهم - يعني البصريين - إذا  
كانت جنوب في ضيق صدر ، يلقي الرجل صاحبه فيقول : الاترى ما نحن  
فيه ؟ ، فيجيبه : نرجو من الله الفرج » .

أما إذا هبت الرياح من الشمال فإن الجو يلطف ويعتدل .  
وقد ظهر أثر الريح في كلتا الحالتين في أدب هذا العصر ، كقول ابن لنكك

(١) في البيتة ( ٢ : ٢٠٩ ) : . . . . وان تقل فتقل لي فيه تثلج ، ولعل  
الصواب ما أثبتناه .

البصرى فى جو البصرة :

نحن فى البصرة فى لو ن من العيش ظريف  
نحن ما هيت شمال بين جنات وريف  
فإذا هيت جنوب فكأنا فى كنيف

وقول أبى الحسن الجوهرى يصف ليلة راكدة الهواء هب فيها نسيم

طيب :

بادر الصبياء فالدهر فرص واقد طاب نسيما فخالص  
أهدت الريح إلينا نسماً جمش الأرواح هنا وقرص (١)  
فكأن السكاس لما جليت طرب الجو عليها ورقص  
وإذا خص زمان بمبنى فزمان الورد باللهو أخص  
وكذلك كانت الريح الطيبة تداعب نفوسهم وتجمش أرواحهم وتزيل  
ما علق بها من حزن وضيق فتنطلق وتهتز وترقص فتحملهم على قول الشعر  
الراقص ، وتدفعهم إلى انتهاب اللذة فى هذا الجو الطروب .

وماله عظيم الدلالة على شدة تأثيرهم بهذا الطقس أنهم اتخذوا من مظاهره  
القاسية مادة لهجاء خصومهم كما فعل ابن الحجاج إذ يقول : (٢)

ياقعدة فى دجلة والريح تلعب بالجسور  
ياشوم إقبال الشتا ء أضر بالشيخ الفقير  
ياليلة العسريان غـب عشية اليوم المطير  
يانومة فى شمس آ ب على التراب بلاحصير  
يافجأة المسكروه فى اليوم العبوس القمطرير

(١) النسم محركة نفس الريح إذا كان ضعيفا أو أولها حين تقبل بلين قبل أن  
تشتد وجمعها أنسام وجمش قرص ولاعب .

(٢) اليتيمة ٢ : ٢١٦ . ٢١٧

## ياحيرة العطشان وقت الظهر في وسط الهجير

وتلك معان جديدة في الهجاء دون شك ، أوحى بها البيئة الطبيعية العراقية ، وهي فوق هذا من المعاني الصارمة العنيفة دون شك أيضاً . ولكن هذه الصرامة وهذا العنف لا يدركهما إلا الذين عاشوا في هذه البيئة وخبروها ، فعرفوا كيف تكون الرياح بغیضة إلى القلب ، ثقيلة على النفس حينما تثور وتغضب ، وكيف يكون إقبال الشتاء شؤماً ما بعده من شؤم على العراة من الشيوخ المملقين ، وكيف تكون النومة - بلا حصر - على التراب المتوهج إذا ما أحرقته شمس آب الملتهمية ، مؤلمة ، مفرطة في الألم... الخ .

\* \* \*

### ب - السحب والأمطار والثلوج :

وفي هذه البيئة تكثر الأمطار أيضاً ، إذ تتلبد السماء بالغيوم السكيفية التي تجود بالمطر الغزير ، يتخلله البرق والرعد والريح الأهوج . وقد يستمر هطول الأمطار ساعات طويلة من الليل والنهار ، أو أياماً متوالية في بعض الأحيان ، فيحيل البر بحرأ زاخراً كما يقول النتنوخي .

وطبيعي أن يتعرض الناس في هذه البلاد تحت تأثير الأمطار الغزيرة إلى ألوان من المشقة والأذى ، فاستمرار نزولها زمناً طويلاً يجعل الطرق والممرات الضيقة سلسلة من البرك المملوءة بالوحول والمياه ، وحينذاك يصعب أو يتعذر الانتقال من مكان إلى مكان ، حتى إن الإنسان المغامر لا يأمن في مثل هذه الأحوال أن تزل به القدم فيهوى في إحدى البرك ، ويؤوب إلى مأواه ملوث الثياب بالوحول ، مشيعاً بالتسامات السمخرية والازدراء أو بنظرات الإشفاق والرثاء .

ولو وقف أثر هذه الأمطار السيء عند هذا الحد لهان الأمر ولا أصبح من الممكن احتمالها واستساغتها، ولكنها كثيراً ما تقسو على الناس وتمعن في هذه القسوة بحيث تخترق سطوح منازلهم المتواضعة، فتجلبها بركا، وتجعل أهلها كالضفادع في ثراها أو كالحمم في روازنها على حد تعبير السلامي . وقد تقوم هذه الأمطار مقام الرقبا المبعضين من الأصدقاء فتمنعهم من التزاور واللقاء حتى إذا فاتها أن تعوقهم من ذلك أدركتهم في عرض الطريق ذاهبين أو راجعين وعندئذ لا ينجيهم من أذاها عدو ولا كساء . فإذا أضفنا إلى هذا كله أن هؤلاء القوم كانوا متحضرين يعيشون في القرى والمدن ، فلا يراعون إبلا ولا ماشية ، وأنهم كانوا يعتمدون على الري المنظم في إسقاء مزارعهم وبساتينهم لكثرة الأنهار والجداول في بلادهم ، استطعنا أن نقدر موقفهم السلي من هذه الأمطار إذا كثرت فجاوزت الحد المعقول .

فلو قارنا بين حياة ذلك البدوي في الصحراء وبين حياة هذا الحضري الذي يعيش في هذه البلاد لظهر لنا الفرق بينهما واضحاً ، وذلك أن البدوي كان ظاعناً لا يكاد يقيم ، راحلاً لا يكاد ينزل ، فلم يكن يعرف الحياة المستقرة في المدن التي تتحول فيها الطرق والممرات إلى برك ومستنقعات ، ثم إنه كان يعتمد في حياته وحياة ماشيته وإبله على الأمطار ، فإذا انقطعت انقطع معها سبب حياته ، فلا عجب بعد ذلك إذا رأيناه يحتفل لها ويتعلق بها ، ويسميها حياة وغيثاً ورحمة .

أما هذا الحضري فلم تسكن به حاجة ملحة لهذه الأمطار الغزيرة بل لعله لا يحتاج إليها في حياته على الإطلاق ، ذلك أن بيئته الطبيعية قد زودته بالمياه الجارية طول العام فاعتمد عليها في استنبات النباتات وإنشاء البساتين والجنائن . لهذا ، ولما تقدم من أسباب أيضاً لم تسكن ترتسم على محياه علامات



البشر والارتياح حينما تؤذن السماء بالأمطار بل نراه على العكس من ذلك يضيق بها ويجزع لمرآها .

وإذن فالبدوى والحضرى كلاهما متأثر بهذه الظاهرة الطبيعية على السواء ولسكنهما بعد ذلك يختلفان كل الاختلاف في النظرة إليها والشعور نحوها ، إذ يعتبرها الأول بشيراً بالخير والسعادة ، بينما يرى فيها الثاني نذيراً بالشر والدمار . وكلاهما يصدر في رأيه هذا عن وحى من بيئته الطبيعية .

ولعلنا في غير حاجة إلى ضرب الأمثال من الشعر الجاهلي لنندلل بها على أثر هذه الظاهرة الطبيعية في أدب الجاهليين فذلك أمر لا يتنازع فيه اثنان ، كما يقولون . ولسكننا في حاجة ملحة جداً إلى إيراد شواهد شعرية من أدب هذا العصر الذى نؤرخه ، لنؤيد بها ما ذهبنا إليه فإن وفقنا إلى ذلك فإننا سنظفر بأسطع برهان على تأقلم أدب هذا العصر . . .

على أنه ليس من العسير علينا إذا قلبنا صحائف الأدب البويهى وقرأنا سطوره بإمعان أن نظفر بكثير من الشواهد الشعرية التى تصور لنا نفور الناس من المطر وانقباضهم عند حلوله . ولماذا نطيل الحديث فى هذه المقدمات وهذا أبو الحسن الجوهري يحددنا فى لهجة صادقة عن بغضه لأنواء الربيع وإنكاره لها خوفاً على بيته المتداعى من أن يتهدم وينقض ، فتظل جنفونه من أجل ذلك فى امتداد وانقباض كلما لاح بارق فى عرض السماء ، إذ يقول (١) :

أهش لأنواء الربيع إذا انبرت	وأكره أنواء الربيع وأنسك
تظل جنفوني كلما مر بارق	تطول إلى خيط السماء وتقص
حذاراً على خاوى الجوانب مائل	يسكاد بأنفاسى عليه يقطر
لدى عرصات أصبحت غرفاتها	مناخل أمطار تروح وتبسك

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٦٨

أساطين حكمتها السنون كأنها قيام تشتت للركوع تسكبر  
رثى لى أعدائى بها وتطيرت برؤيتها العين التي لا تطير  
وها هو ذا نفسه يحدثنا أيضاً عن الشتاء وأمطاره ، فيصوره بصورة بشعة  
تشمئز منها النفس ، هي صورة الناعي ، إذ يقول . (١)

واغبر وجه الجوى مما رفرت فيه الغيوم فأشبهه الغبراء  
ونعى الشتاء إلى بيتى إذ رأى أعلاه ليس يكفكف الأنداء (٢)  
وسوارياً لودب فوق متونها نمل هوت من أجلهن هيام (٣)  
وعليلة بليت بلاى وأصبحت غرفاتها عن (٤) أهلن خلاء  
أخشى الرياح إذا جرت من حولها أبدأ وأحذر فوقها الأنواء (٥)

\* \* \*

وهذا أبو الحسن السلامي يصف ما أصابه من بلاء الأمطار وسوء  
فعلها حينما أحالت بيته وادياً صعب المرام ، وبحراً طامياً يعوم فيه صغاره  
كالضفادع ، ويهرب منه أهله فيتشبثون بالروازن كالحمام ، ولهذا تراه كلما  
تلبدت السماء بالغيوم جازعاً ، هاتفاً بتلك الجملة التي كان يرددتها الناس  
وما يزالون يرددونها في مثل هذه الأحوال وهي : « حوالينا بذاك  
ولا علينا » .

وأظننى أكون مسيئاً مسرفاً في الإسامة إلى السلامي لو اكتفيت بهذا

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٦٧ (٢) يكفكف يمنع ويصرف . والأنداء جمع  
ندى وهي هاهنا بمعنى الأمطار . (٣) السوارى جمع سارية الاسطرانج .  
(٤) لعلمها (من) (٥) الأنواء الأمطار

الشرح المقتضب لأبياته الرائعة التي وصف بها أمساته دون أن أثبتها بنصها،  
وهذه هي: (١)

وكيف أزورك والمزن تبكي على داري بأربعة سجام  
وكانت منزلاً طلق الحيا فصارت وادياً صعب المرام  
وبجراً من عجائبه خلوصي إليكم ظامياً والبحر طامى  
بناتي كالضفادع في ثراها وأهلي في الروازن كالخمام (٢)  
أنادى كلما ارتفعت سحب فأبكتنا البوارق بابتسام  
حوالينا بذاك ولا علينا كفانا الله شرك من غمام  
تهافت ركع الجدران فيها سجوداً للرعود بلا إمام (٣)  
وبعد، أليس في هذا القدر من الشواهد كفاية تغنيننا عن الإطالة؟ أم  
أن هناك من لا يزال تساوره الشكوك فيما نقول فيطلب منها المزيد؟  
وإذن فلنتجاوز هذين الشاعرين اللذين أسبغنا على المطر هذه المسحة  
للعباسة البغيضة فربما كانا موتورين لما أصاب متاعهما وأهلها من ضرور  
ربما كانا من الشذوذ الذي لا تبنى عليه قاعدة ولا ينهض عليه حكم.  
أقول فلنتجاوز هذين الشاعرين إلى غيرهما من الشعراء ولنتمعن النظر  
سرة أخرى في آثارهم، فماذا نجد؟

نجد من هؤلاء الشعراء من شبه المطر بالرقيب البغيض الذي يحول بين  
الناس وما يحبون، فقال:

زاد غرامي لهما قطر غمام سكبما  
فعاقتني عن قصدكم كما تعوق الرقيبما

(١) يتيمة الدهر ٢: ١٥٨ (٢) الروازن جمع روزنة وهي الكوة.  
(٣) تهافت أى تهافت بمعنى تتساقط.

وكان عهدي قبل ذا بالماء يطفى اللهب  
فكيف قد فارق لي طباعه وانقلبا ؟ !

ونجد بينهم من وصفه بالصف :

خرجت من عندكم فأدركني سحابة ذات منظر صلف  
ومن اعتبره مصدراً للخطر :

جملة أمرى أنى ركيت إلى دارك - لما أتيتها - الخطرا  
ومن اتخذ منه معنى من معاني الهجاء إذ يقول :

يا ليلة العريان غب عشيمة اليوم المطير

يا فجأة المسكروه في اليوم العجوس القمطير (١)

وأظن أنني قد أطلت بضرب الأمثال التي لا ترضى أولئك الذين يسوءهم  
أن لا يسمى المطر غيثاً أو رحمة في هذه البيئة التي تتفجر فيها الينابيع وتجرى  
فوقها الأنهار .

ومهما يكن من شيء فإننا نستطيع أن نقول إننا لم نكد نعر على شاعر  
ممن عاشوا في هذه البيئة وفي هذا العصر بالذات، كان يأنس بمنظر الأمطار  
أو يطرب لمراها فيهتف بالخر ويدعو إلى السرور في جوها كما كان يفعل  
أسلافهم من قبل، على أننا نستثنى من هذا الحكم شاعرين اثنين هما الشريف  
ومبيار الديلمي اللذين أصرا على أن يكونا بدويين في أغلب شعرهما، مع أنهما  
كانا يعيشان في بغداد وفي القرن الرابع الهجري أيضاً، وذلك لأسباب  
ربما عرضنا لها في غير هذا المكان .

على أن اسمئنازهم من المطر وضيقهم به لم يمنعهم من أن يصفوا السحب  
والبروق والرعود ويجيدوا في وصفها، فقد شبهوا السحاب بالعمامة لكثافته

(١) القمطير الشديد من الأيام

الشديدة ودنوه من الأرض وشموله جميع الكائنات على وجهها ، وشبهوا قطراته لشدة وقعها على أكسيتمهم بسهام الأتراك التي لا تخطى أهـدافها، كما شبهوا الرعود بأصوات الدباب والسنوج التي تضرب في حفلات الشرف أمام قصور الملوك والأمراء ، وشبهوا البروق بالسيوف اللامعة التي تنتضي من أغلافها، كل ذلك ، وأكثر منه ، نجده في قول أبي أحمد الشيرازي: (١)

غمامة كالعمامة اتلفت فوق رؤوس المشاة في السدف (٢)  
تناهها كف من يزاولها تقول للمرء : وبك لا تقف  
تختطف الأرض وقع صبيها مثل اختطاف الخالب العقف  
فوقعه والكساء يدفعه وقع سهام الأتراك في الهدف  
كأنما كل قطرة وقعت عليه در بدا من الصدف  
فيها من الرعد كالدباب والسنجع إذا ما ضربن في شرف (٣)  
واشتعل البرق في جواربها مثل السيوف انتضين من غلاف (٤)

أليس في هذه الأبيات ما يدل على شعورهم بالخطر حينئذ لم بهم الأمطار؟ ألم يصور الشاعر سحابه بصورة مخيفة ، تنذر السائر بشر مستطير وتوحى إليه بأن يحث الخطا فلا يتمهل؟ وهل هناك جملة أبلغ من قوله : « وبك تقف ، تصور شعور الخائف في مثل هذه الأحوال؟ وأخيراً أين هذا من قول تلك الأعرابية في السحاب؟ (٥)

(١) - البيهية ٢ : ٩٩ (٢) - السدف بفتح السين والذال الضوء والظلمة (ضد) وجمعها أسداف (٣) الدباب والدباب جمع دباب وهو الطبل والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب (٤) انتضى السيف استله من غمده (٥) ديوان المعاني ٢ : ٦

فلها مراها هبوب الجنوب وانهمر الماء منه انهمارا  
تبسمت الأرض لما بكت عليها السماء دموعا غزارا  
فكان نواجذها الأفعوان وكان الضواحك منها بهارا

أما التنوخي فإنه يصور السحاب هادئا كالمفسكر المطرق، واجما كالنادم المتلهف، قد امتدت جوانبه حتى طبقت الآفاق، فإذا استقر به المقام أرسل مياحه إلى البر، فإذا هو ببحر زاخر، وإذا النهار المضيء ينقلب ليلا مظلمها، حالك الظلام، يتألق فيه البرق في أرجاء الغيوم كما أنه ابتسامه على ثغر نحيل عابس.

وتلك صورة دقيقة لغيوم الشتاء في بغداد، تلك الغيوم التي تمتاز عن غيوم الربيع بالدوام والهدوء: (١)

سحاب أتى كالآمن بعد تخوف له في الثرى فعل الشقاء بمدنف (٢)  
أكب على الآفاق إكباب مطرق يفكر، أو كالنادم المتلهف (٣)  
ومد جناحيه على الأرض جانحا فراح عليها كالغراب المرفرف  
غدا البربحرأ زاخراً وأنتنى الضحى بظلمته في ثوب ليل مسجف (٤)  
يعبس عن برق به متبسم عبوس نحيل في تبسم معنف  
تحاول منه الشمس في الجو مخرجا كاحاول المغلوب تجريد مرهف (٥)

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١١١

(٢) المدنف من دنف المريض إذا ثقل مرضه ودنا من الموت .

(٣) المتلهف الحزين المنحسر . (٤) ليل مسجف ممتد الظلام .

(٥) المرهف المحدد والمرق .

وكما وصفوا الأمطار والسحب ، كذلك وصفوا الوحول التي تنشأ على  
أديم الأرض بعد هطول المطر فتتلوث بها الثياب ، كقول السلامي :  
ليست دراعتي وعمتي الخ. من فصارا كما ترى حبرا  
أصبحت في الطين عقمقا أبلقا وإن تعريت خلعتي نورا  
وقول الصاحب :

إنني ركبت وكف الأرض كاتبة على ثيابي سطورا ليس تنكتم  
والأرض محبرة والخبر من لثق والطرس ثوبن ويمنى الأشهب القلم (١)

وإذا كانت الأمطار والسحب والوحول قد أزعجتهم فلم تنل إعجابهم  
فإن الثلوج قد فتنت نفوسهم وسحرت ألبابهم بغلائلها البيض التي تسبغها  
على الأرض فإذا هي كالعروس تجلت بأبهى حللها وأبدع زينتها، وإذا الطبيعة  
على اختلاف مظاهرها في حفل عرس بهيج .

وقد حملتهم هذه الفتنة على التغنى بجمال الثلج وبهائه ، كما أغرتهم بشرب  
الخمر وممارسة اللهو في جوه البهيج السار ، فاكتسأ الجوب بحلله البيض الناصعة ،  
وتهادى السكائنات في أرجائه بذرات الثلج يوحيان إليهم بجوا الأعراس الأنيقة  
التي تظللها البهجة ويحيطها الفرحة ، وحينذاك ينبسطن للسرور ويشربون  
بالكبير بعد الصغير :

أقبل الثلج فانبسط للسرور ولشرب الكبير بعد الصغير  
أقبل الجوب في غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منشور  
فكأن السماء صاهرت الأراض فصمار النشمار من كافور

وقد شاعت هذه الثلجيات عند أهل الجبال أكثر من غيرهم لكثرة  
الثلوج في بلادهم وندرتها في بلاد السهول ، فالصاحب يصف الثلج ويتفنن

(١) اللثق الوحل .

في وصفه شعراً ونثراً ، ويشاركة في هذا الغرض أبو معمر الإسماعيلي وأبو عبد الله الروزباري وغيرهما من الأدباء .

\* \* \*

## ع - الفواكه والثمار

وكما تأثروا بالرياض وزهورها في أدبهم ، كذلك تأثروا بالبساتين والحدائق فوصفوا فواكهها وثمارها المختلفة ، ذلك أنهم كانوا يغشون هذه المواطن في الصباح أو في المساء للنزهة حيناً وللهو أحياناً ، وهناك كانوا يعقدون مجالس الشراب والغناء على ضفاف السواقي والأنهار الجارية التي تنذهب مياهها أشعة الشروق والغروب ، وفي ظلال الأغصان المتهدلة بالثمار ذات الألوان الزاهية ، فيأخذون من اللذات بحظ موفور .

ورقدت بالنجمى رقدة شارب تحت الغصون وحما المتهدل  
لهذا أعجبوا بالثمار وصوروا هذا الإعجاب في أدبهم ، فوصفوها شعراً  
ونثراً ، وصفوا النارج والأترج حينما كانوا يشربون تحت أشجارهما ، وحينما  
كانوا يزينون بهما مجالسهم أو يهادون بهما أصدقائهم .

لقد كان الصاحب بن عباد معجباً بهاتين الفاكهتين ، مغرماً بهما ، وكان  
يزين بهما مجالس لهُوه وشرا به ، ويصفهما ويتفنن في هذا الوصف فيقول :

بعثنا من النارج ما طاب عرفه فقبيل على الأغصان منه نوافج (١)

كرات من العقيان أحكم خرطها وأيدى الندامى حولهن صوالج (٢)

وأراد ذات مرة أن يقدم إلى أحد أصدقائه هدية فلم يجد بعد طول

(١) النافجة وعاء المسك (٢) العقيان الذهب الخالص والصوالج جمع

الصولجان وهي العصا المعروفة الرأس والكلمة فارسية . والندامى جمع ندمان  
يفتح النون وهو المنادم على الشراب .



التفكير إلا أترجة فأرسلها إليه مصحوبة بفصل في وصفها يقول فيه :  
« ما زلت ياسيدي - أفمكر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ،  
وتنظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لوني وقد منيت  
ببعديك وبليت بصدك ، وكان عرفها مستعار من عرفك وظرفها مشتق من  
ظرفك . . الخ ،

وكان ابن العميد جالساً ذات يوم والشعراء من حوله مجتمعون وإذا  
بزائر يحميه بأترجة حسنة فيقول لهم : تعالوا تتجاذب أهداب وصفها ،  
فيشترك الجميع في هذا الوصف .

فيقول ابن العميد : وأترجة فيها طبائع أربع  
ويقرل أحدهم : وفيها فنون اللهب وللشرب أجمع  
ويقول الثاني : يشبهها الرائي سبيكة عسجد  
ويقول الثالث : على أنها من فارة المسك أضوع  
ويقول الرابع : وما اصفر منها اللون للعشق والهوى  
ويقول الخامس : ولسكن أراها للهبجين تجمع

أما السلامي (١) فقد كان مفتوناً بمنظر النارج على الأشجار ، حتى  
خيل إليه أنه فتاة ذات خدر رقيق وقوام رشيق ، تصطنع مغازلتها ، أو خيل  
إليه أنه جمر شب في الأغصان فأحالتها حريقاً ملتهاً أضاع الماء في وهجه .  
وكان مسحوراً أيضاً بمنظر النهر الجاري خلال الشجر تذهب أمواجه أشعة  
الشمس حينما تطلع عليه في الصباح أو تغيب عنه في المساء ، وكان مأخوذاً  
بجمال هذا وذلك حتى تصورهما ميداناً من التبر تجول فيه الخيول الدهم وقد

(١) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي من أشهر أهل العراق ، ولد في  
كرخ بغداد سنة ٢٣٦ ونسبته في بني مخزوم ، سافر إلى الموصل وهو صبي ثم ورد  
حضرة الصاحب بأصبهان ثم قصد حضرة الدولة بشيراز ثم توفي سنة ٣٩٤

صبيغ لها كرات من عقيق .

وحق لهذا المنظر الخلاب أن يسحر الشاعر ويستهو به ، ويهيب به أن  
يذشط للصبح : (١)

أتمشط للصبح أبا على      على حكم المنى ورضى الصديق  
بنهر للرياح عليه درع      تذهب بالغروب وبالشروق  
إذا اصفرت عليه الشمس صبت      على أمواجه ماء الخلق (٢)  
وقفت به فكم خد رقيق      يغازلني على قد رشيق  
وجمر شب في الأغصان حتى      أضاع الماء في وهج الحريق  
فدهم الخيل في ميدان تبر      يصاغ لها كرات من عقيق  
فهل لك في ختام المسك فضت      نوافجه ومختم الرحيق

ولا شك أن السلامي في وصفه هذا قد أبدع وأجاد فبز ابن المعتز حين  
قال :

كأنما التارنج لما بدت      صفرته في حمرة كاللهيب  
وجنة معشوق رأى عاشقاً      فاصفر ثم احمر خوف الرقيب  
وكذلك وصفوا الرمان والتين والعنب والتمر والتفاح والمشمش  
والخوخ وغيرها . من ذلك وصف التمر في مخازنه لأبي الحسين الثغري :

أما ترى التمر يحكي      في الحسن للنظار  
مخازنا من عقيق      قد قمت بنضار  
كأنما زعفران      فيه مع الشهد جارى

(١) البتيمة ٢ : ١٦٩

(٢) الخلق ضرب من الطيب أعظم أجوائه الزعفران .

يشف مثل كؤوس مملوءة من عقار

ووصفوا فوق هذا كله الباذنجان والبطيخ والذبق والباةلاء وقصب السكر .  
ولعل وصفهم لقصب السكر الذي كان يزرع في الأهواز فقط دليل قاطع  
على تأثرهم بنباتات بيثتهم . قال العسكري : (١) « وقلت في قصب السكر  
ولا أعرف فيه شيئاً لأحد » :

وممشوقة القامات بيض نحورها	وخضر نواصيها وصفر جسمها
لها حقب لا تستطيع اطراحها	وليس يطيق سلبها من يرومها
وهن زماح لا تريق دم العدا	واسكن يراق في القدود صميمها
يميل على أعرافها عذباتها	كحور تناصي هندها ورميمها (٢)
تناهى بها الإدراك حتى كأنها	يعل بماء الزعفران أديمها
ترى الريح يغريها بنجوى خفية	إذا ما جرى قصر العشى نسيمها

(١) ديوان المعاني ٢ : ٤٣

(٢) رميم اسم امرأة كهند .

## الفصل الثاني

### الطبيعة الحية

#### ١- الحيوان

لم يعن أدباء العصر البويهي بالحيوان كما عني به الجاهليون من قبل ، ولم يفتتنوا به كما افتتنوا بالرياض والمياه الجارية مثلاً ، ذلك أن حياتهم الحضرية المستقرة الالهية لم تكن لتسمح لهم أن يصحبوا الحيوان كما صحبه الجاهليون في حلهم وترحالهم وفي حربهم وخصامهم فأحبوه لفائدته لهم واستجلوا صفاته لطول صحبتهم له .

لهذا لم تظهر آثاره في أدبهم كما ظهرت في أدب الجاهلين إلا على سبيل التقليد والاحتذاء ، فهم إذا وصفوا الناقة والفرس والذئب والأسد ، قليلاً ما يصفونها ، باستثناء الشريف ومهيار ، كانوا مقلدين في هذا الوصف . وذلك أمر طبيعي بالنسبة لأناس شغلتهم الحياة المعقدة ، العابثة ، عن الاهتمام بهذا الجانب من جوانب الطبيعة الحية فاتجهوا إلى غيره مما يلائم ذوقهم ويتصل بحياتهم من قرب .

على أننا نجد أحياناً في أدبهم ما يدل على أنهم تأثروا بحيوان بيتهم الخاصة وذلك حين وصفوا الفيل والبرذون كقول الجوهري من قصيدة في وصف الفيل :

مثل الغمامة ملئت      أكنافاً برقاً ورعداً  
رأس كتملة شاهق      كسيت من الخيل جلدًا

فتراه من فرط الدلال مصعرا للناس خندا  
يزهى بخرطوم كمثل الصولجان يرد ردا  
متمرد كالافعوا ن تمده الرمضاء مدا  
أو كم راقصة تشيـربه إلى الندمان وجدا  
وكانه بوق تحر كه لتنفخ فيه جدا  
يسطو بسارتي لجين يحطمان الصخر هدا  
أذناه مروحتان أسندتا إلى الفودين عقدا  
عيناه غائرتان ضيقتا لجمع الضوء عمدا (١)

وهكذا يطنب في وصفه إطنابا ، ويشاركيه في هذا الميدان عبد الصمد  
ابن بابك وأبو محمد الحازن وغيرهما .  
أما البرزون فقد وصفه جميع شعراء الصحاح كالزعفراني والقاضي  
الجرجاني والسلامي وغيرهم .

\* \* \*

## ٢ - الطير

وإذا كان الحيوان لم يشاركهم في حياتهم العابثة أو الجادة مشاركة فعلية ،  
وإذا كان أثره الإقليمي في أدبهم غير واضح كل الوضوح فإن شأن الطير  
معهم كان على العكس من ذلك ، فقد كانت صلتهم به وثيقة وألفتهم له شديدة  
فالحمم والبليل والزرزور وغيرها من الطيور كثيرا ما كانت تلقاهم في البساتين  
والرياض وفي غيرها من المواطن ، فأشجبتهم بهديلا وأطربتهم بتغريدها  
وصفيرا فتغنوا بها ووصفوها وأكثروا .

تغنوا بها حينما تغنوا بجمال الرياض وبهاء الزهور ، كقول التنوخي :  
وكأنما تلك القصور عرائس والروض حلـى فيه خودتر فل

(١) اليتيمة ٣ : ٦٩ و ٧٠

غنت قيان الطير في أرجائها هزجا يقل له الثقل الأول

وقول السروي : (١)

وغردت خطباء الطير ساجعة على منابر من ورد ومن آس

وقول الغويري :

للزراير في خلال الأزاهير صفير وللحمام هديل

ووصفوها بقصائد مستقلة كما فعل الصابي والعسكري وغيرهما.

وقد كان الصابي معنيا بالطيور ، معجبا بها ، فوصف القبجة والبيغاء ،  
والخطاف ، وأسهب في أوصافها ، فهو حين يتحدث عن القبجة يصف جميع  
نواحي جسمها ومزاياها ويذكر أفضاسها : (٢)

أنعت طارونية الشباب	لابسة خزا على الإهاب
تصبغت تصبغ التصابي	وأبرزت وجها بلا نقاب
ريان من محاسن الشباب	مكحولة العينين كالكعاب
مغموسة الحاجب بالخضاب	منقارها أحمر كالعناب
كأنما تسقى دم الرقاب	مخدورة ، محمية الجناب
لها على الأرجل والأعقاب	حملات ليث من ليوث الغاب
أفضاسها كحجس الحجاب	مدورات الشكل كالقبااب
تسمعنا منها وراء الباب	تمتمة بالقاف في الخطاب

ويشير إلى موطنها بقوله :

(١) أبو العلاء السروي ، قال فيه الشهابي (٣ : ٢٨٠) هو واحد طبرستان  
أدبا وفضلا ، ونظما ونثرا ، وله كتب وشعر مائت مشهور كثير الظرف والملح .

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٤٥

رييبة الجبال والهضاب كريمة الأعراق والأنساب  
لم تدر ما بادية الأعراب غريبة صارت من الأحياب

وكذلك وصف أبو هلال العسكري القبيجة والخطاف والبلابل والعصفور  
والقمرى ، ووصفه لهذه الطيور يدل على أنه كان يحبها ويأنس إليها ، فهو  
حين يصف الخطاف لا يخفى إعجاباه بهذا الطائر حينما يحط وسط العراض ،  
ولا يكتم أنسه به حينما يحوم بين الديار . وقد يذهب الى أبعد من هذا فيرى  
فيه وهو عائد من أوطانه زائراً ، محبوباً ، يبشر بطيب الزمان ، ويخبر عن رقة  
الجو وازدهار الرياض ، واخضرار وجه الأرض ، كما يرى في عودته بعد  
الفراق دليلاً على حبه لهذا الإنسان وحنينه إليه ، على ما بينهما من اختلاف  
في الجنس ، ولا شك في أن هذا الشعور دليل على شدة التأثير والاتصال  
بالبيئة الطبيعية :

وزائرة في كل عام تزورنا	فيخبر عن طيب الزمان مزارها
تخبر أن الجو رق قيصه	وأن الرياض قد توشى إزارها
وأن وجوه الغدر راق بياضها	وأن وجوه الأرض راع اخضارها
تحن إلينا وهي من غير شكلنا	فتدنو على بعد من الشكل دارها
فيمجنا وسط العراض وقوعها	ويؤنسنا بين الديار مطارها
أغار على ضوء الصباح قيصها	وفاز بألوان الليالى خمارها
تصبح كما صرت نعال عرائس	تمشت إليها هندها ونوارها
تجاورنا حتى تشب صغارها	وتقضى لبانات النفوس كبارها (١)

ووصفوا فوق هذا ، الدجاج والديكة والبزاة ونحوها .

### ٣- الحشرات المؤذية

وفي هذه البيئة أيضاً تكثر الحشرات المؤذية كالبق والبعوض والبراغيث والقمل والذباب والتمل والزنابير ونحوها ، وربما كانت وفرة المياه والنباتات والثمار من الأسباب التي دعت إلى نموها وتكاثرها .

فالبعوض على اختلاف أنواعه يكثر في المستنقعات والمزارع والبساتين كثرة هائلة بحيث يترامى لمن قدر له أن تحمله قدماه إلى مثل هذه الأماكن كسحب من الدخان الكثيف ، ولا سيما في وقت العصر فإذا أقبل المساء زحفت جيوشه الجرارة على المدن والقرى والأحياء المجاورة فلا يعود منها إلا أواخر الليل .

أما البراغيث والقمل والذباب والزنابير فإنها من الحشرات الأليقة التي تقيم مع الإنسان في صعيد واحد على الرغم من ضيقه بها وكرهه لها .

وقد تتعاون هذه الحشرات جميعاً على إيذاء الإنسان في نفسه وفي حيوانه وفي طعامه ، غير أن البعوض والبرغوث والبق هي أشد حشرات هذه البيئة فتكا بالإنسان ، وأقدرها على حرمانه لذة النوم وطعم الراحة كلها آوى إلى فراشه ، وقد اشتهر بعوض البطائح من بين أنواع البعوض بالضاوة وشدة الفتك بالإنسان ، حتى ضرب به المثل ، قال الجاحظ : « بعوض البطائح كجرارات الأهواز وعقارب شهرزور ، وربما ظفر بالسكران النائم فلا يبقى منه إلا العظام العارية ، .

فإذا يفعل الإنسان في مثل هذه الظروف ؟ لاشك أنه يحاول أن يتغلب على هذه المزعجات ، فيستعمل الكحل ، أو يستعمل الأغذية الخفيفة ، أو أية وسيلة أخرى . ولكن هذه الوسائل ، إن استطاعت أن تخفف عنه بلاء البق والبعوض ، فإنها عاجزة كل العجز عن أن تحول بينه وبين البراغيث



وقرصها المؤلم ، فلهذه البراغيث قدرة عجيبة على النفوذ من أى حاجز  
يقام في طريقها .

وهكذا يصبح هذا الإنسان فريسة لهذه الحشرات المؤذية طول الليل  
تتداوله قرصا ولسعا دون ما رحمة أو شفقة ، فإذا هو سهران يتقلب في  
مضجعه ذات اليمين وذات الشمال ، وإذا هو محنق مغیظ ، يكاد يتفجر من  
شدة الغیظ والحنق . أريد أن أقول إنه متأثر شديد التأثير ، منفعل شديد  
الانفعال بما ألم به من أذى وما حاق به من مسكره .

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل ظهر أثر هذا الانفعال في الأدب ؟  
وبعبارة أخرى ، هل تأثر أدباء العصر البوهمي بهذا الجانب من جوانب  
الطبيعة الحية في بلادهم فأفصحوا عن تدمرهم منه ، ووصفوا مصدر هذا  
التدمر في بيان جميل ؟

والحق إنهم فعلوا ذلك ، ففي أدبهم تصوير رائع لما كان يقاسمه الناس  
في هذه البيئة من أذى الحشرات وبلاتها ، وفي أدبهم أيضا وصف دقيق  
لهذه الحشرات يدل على أنهم لاحظوها واهتموا بها ، وهم في هذا الوصف  
وذلك التصوير لم يكونوا هازلين ولا عابثين وإنما كانوا جادين كل الجد .  
وقصيدة الزعفراني التي بعث بها إلى الصاحب والتي « يصف فيها علتها  
مجران وتأذيه هواتها وبراغيتها وبقها »<sup>(١)</sup> ، خير دليل على ما نقول :

تعاونها على سموم صيف	بلفح من لظياه واتقاد
وذبان أشردها فتأني	وترجع كالمراغم ذى السكياذ
كأني حين أطردها وتأني	أفرق بين ذى سغب وزاد
ويا ويلى من الليل الموافى	فإني حين يطرق في جهاد
له جيشا براغيث وبق	يطل على إطلال الجراد

ولى فراش هي الميدان فيه براغشه وخمشى في طراد  
وبق فعله في كل عضو فعال النار في يبس القتاد (١)  
عصائب ينتحين على عروقي بعوج كالمباضع في الفصاد  
فتروى ثم ترجع عاطفات على وهن كالهيم الصوادي  
وأنقف بعضهم وفي حشاها دمي فأنال ثأراً من أعادي (٢)  
تفرق بين جنبي والحشايا وتجمع بين جفني والسهاد  
ولو أني ثملت وملت سكرأ لحالت بين طرفي والرقاد  
وأستر دونها وجهي بكفي وعطف الردن وهو لهن بادي  
وأظهر في صباحي كل يوم بوجه مجدر قلق الوساد (٣)  
وأدمن حك ما تركت بجسمي فيحسبني جربت ذوو عناد

ثم يصف كيف كان يقضى ليلته فيقول :

وفي يميني مروحة فطوراً أذود بها وما يغني زيادي  
وطورا أستريح إلى انتصابي وطوراً أنشي ويدي اعتمادي  
وعلني البعوض بلطم خدي خلأق لسن من شيمى وعادي (٤)

ففي هذه القصيدة يصور الشاعر أدق ما يختلج في نفس الإنسان من خوف وقلق إذا ما أحس بالخطر يدنو منه ويقترّب، فهذا الليل يبدو له شبحاً خيفاً مفرعاً، إذا أقبل، لما يحمل في طياته من مشقة وعناء .  
ولم لا يخاف ولهذا الليل جيشان من بق وبرغوث يزحفان عليه كـ

(١) القتاد شجر صاب له شوك كالإبر .

(٢) نقف الحنظل ونحوه شقه عن حبه والمعنى هنا أنه يضرب البق فيقتل بعضه .

(٣) المجدر : المصاب بالجدري . (٤) العاد جمع عادة وهي ما يعتاده الإنسان .

تزحف جيوش الجراد على المزارع والبساتين؟ وكيف لا يفرع وفراشه هو الميدان الذي ستجرى عليه المعركة الدامية، وجسمه هو الهدف الوحيد الذي سيتعرض لآلام اللسع والقرص والحشش واللطم؟  
ثم... أفلا يحق له وقد ابتلى بمثل هذا البلاء أن يفرق من الليل إذا وافي، فيهتف جازعا؟ :

ويا ويلى من الليل الموافقى فإن حين يطرق فى جهاد ا  
وفى هذه القصيدة أيضا وصف دقيق بارع لما يدور بين الإنسان وبين هذه الحشرات من كفاح مر، فهى إذ تهاجمه بمناقيرها وخراطيمها الشبيهة بالمباضع، فتوسعه قرصا ولسعا وإيلا ما، تثيره وتهبجه فينهال عليها ضربا ولطما، ولا يكتفه قليلا ما يدرك تأره، وكثيرا ما يخيب، حتى إذا أدركه الملل وأخذ منه الجهد مأخذه، فنبابه الفراش وفارق عينيه النوم، انتصب جالسا أو انثنى معتمداً على إحدى يديه، يساهر الليل ويندود بمروحته شر العدو، وقليلا ما كان يفلح فى هذا الزيادة .

على أن الزعفرانى لم يكن الشاعر الوحيد الذى تأثر بهذه الحشرات فظهرت آثارها فى شعره، بل شاركه فى هذا التأثير كثير من أدباء بيئته كالصائبي والشعالبي والسروى والعسكري والاسلامى إذ وصفوا فى شعرهم البق والبعوض والبرغوث، والقمل والذباب والزنبور كما وصفوا آثارها السيئة فى نفوسهم وأجسامهم فمن ذلك قول الشعالي: (١)

وليسل بته رهن اكتئاب أقاسى فيه أنواع العذاب

إذا شرب البعوض دمي وغنى فلببرغوث رقص فى ثيابي

وقول العسكري فى البعوض: (٢)

(١) - خاص الخاص ص ١٨٤ (٢) ديوان الهاماني ٢: ١٤٨

غشاء يسخن العين وينفي فرح القلب  
ولا يأتي على الزمر ولا يجرى مع الضرب  
غشاء البق بالليل ينافي طرب الشرب  
إذا ما طرق المرء جرى في طلق السكر  
نخيف راح كالشن وليكن بات كالوطب (١)  
إذا ما نقب الجلد ة أخفى موضع النقب  
سوى حمر خفيات تحاكي نقط السكتب

وقوله في النمل :

لهم نظرة يني ويسرى إذا مشوا  
ويعشون صفاً في الديار كأنما  
ففي كل بيت من بيوتى قرية  
تضم صنوفا منهم وفتونا  
كما مر مرعوب يخاف كميناً  
يجرون خيطاً في التراب مبيناً

أما السلامى فقد أبدع - كهادته - في وصف الزنبور إذ قال : (٢)

ولابس لون واحد وهو طائر ملونة أبراده وهو واقع

\* \* \*

يخاف إذاولى ويؤمن مقبلاً  
بدا فارسى الزى يعقد خصره  
فمعجزة الوردى أحمر ناصع  
يرجع ألحان الغريض ومعبد  
ويخفى على الأقران ما هو صانع  
عليه قيام زينته الوشائع  
ومزره التبرى أصفر فاقع (٣)  
ويسقى كؤوساً ملؤها السم نافع (٤)

وليس من شك في أن هذا اللون من الأدب كان صدى من أصداء

(١) الشن القرية الخلق والوطب سقاء اللبن . (٢) اليتيمة ٢ : ١٧٩  
(٣) المعجر بكسر الميم ثوب تشده المرأة على رأسها وهو العمامة فى الرأس أيضاً .  
(٤) الغريض ومعبد مغنيان مشهوران .

الطبيعة الحية في هذه البلاد ، وقد رددته نفوس الأدباء فانعكست آثاره في أدبهم، فنحن إذا رجعنا إلى الأدب الجاهلي لا نكاد نجد فيه ما يماثل هذا الأدب، ذلك أن البيئة الصحراوية وما فيها من نقلة وارتحال لا يساعدان على نمو هذه الحشرات وتكاثرها كما هو الحال في فارس والعراق.

\* \* \*

وبعد ، فهذا هو أثر البيئة الطبيعية في أدباء العصر البويهي قد لمسناه واضحا كل الوضوح في أدبهم ، وذلك حين أعجبوا برياضها ومياها وثلجها وطيرها فتغنوا بهذا الإعجاب ، وحين سخطوا على حرها وبردها ورياحها ومطرها وحشراتنا المؤذية ، فعبروا عن هذا السخط أيضا ، فكان أدبهم من أجل هذا سجلا دقيقا لمظاهر بيئتهم الطبيعية السارة والمؤلمة ، ولا يضيرهم بعد ذلك إذا تأثروا في بعض النواحي بغيرهم ، فالتأثر ناموس طبيعي يحدث بين أدباء أمة واحدة كما يحدث بين أدباء أمم مختلفة .  
وكما كان الأدب البويهي وثيق الصلة بالبيئة الطبيعية ، كذلك كان وثيق الصلة بالبيئة السياسية والاجتماعية ، وذلك ما سنتناوله بالبحث في الفصول القادمة.



# الباب الثاني

## أثر الحالة السياسية

### في الأدب البوهي

« المرء أشبه شئ - بزمانه ، وصفة كل زمان  
من نسخة من سجايا سلطاناه ، » ابن العميد

#### نظرة عامة

ليس في الإمكان أن يعيش الأديب بمعزل عن الجماعة التي ينتمى إليها ،  
أو يقف من الأحداث التي تلم بها موقف المتفرج . فلا بد له إذن من أن  
يشارك في حياتها العامة من قريب أو بعيد ، لأنه فرد من الهيئة الاجتماعية  
يرتبط وإياها بروابط المصلحة المشتركة ، وشائج القرى ، والعيش في وطن  
واحد ، فهو مضطر إلى أن يألم لألمها ويفرح لفرحها وينعم بنعيمها ،  
ويشقى بشقائها .

والأديب بعد ، إنسان حساس ، دقيق الحس ، رقيق الشعور ، يتأثر بما  
حوله من أحداث الحياة الاجتماعية وينفعل بها . . . يتأثر وينفعل كما  
إنسان ، ولكنه يختلف بعد ذلك عن غيره بأنه يستطيع الإبانة عن الأحاسيس  
التي تجيش بها نفسه ، ويحتاج لها قلبه ، فيتخذ من اللغة أداة للتعبير ، فينظم

الشعر ويكتب النثر ، يتغنى بهما مكتئباً ومبهتجاً ، ساخطاً وساخرآ ، متحمساً ومتغزلاً . . . الخ

فمادة الأديب على هذا يتناولها من بيئته الاجتماعية كما يتناولها من بيئته الطبيعية ، ثم يصفى عليها شيئاً من ذاته ، حتى إذا تبلورت المعاني في ذهنه ألبسها حلة قشبية من الألفاظ فيكون الأدب ، ذلك الفن الذي يسجل أهواء الأمم ونزعاتها كما يسجل مظاهر حياتها السياسية والاجتماعية والطبيعية .

لهذا يجب أن يكون الأدب مرآة صادقة لحياة الأمة التي ننشئه ، ولما سكتن مع ذلك لا نرى الأدباء في أكثر العصور أحراراً فيما يقولون وما يكتبون بصورة مطلقة ، إذ كثيراً ما يتأثرون بعوامل سياسية وأخرى اجتماعية تشغلهم وتسيطر عليهم فتدفعهم في هذه السبيل أو تلك دون أن يكون لهم رأى في ذلك ، فيكون نتاجهم الأدبي مقصوراً على تصوير حياة طبقة معينة من الناس .

أما السواد الأعظم من الأمة فإنه لم يكدر يظفر بعناية الأدباء إلا نادراً وفي مجال ضيق ، فلأمر ما انقسم المجتمع إلى طبقات : طبقة عليا تعزز بسلطانها ونفوذها وجاها وثروتها ، وطبقة سفلى ليس لها من وسائل الرفعة وعلو الشأن ما للطبقة الأخرى ، بل هي طبقة - كما قال القدماء - زبد جفاء ، وسيل غثاء ، لسكع ولسكاع ، وربيطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه . . .

ومن هنا نشأ الأدب في أكثر العصور أرسنقراطياً مترفعاً عن الخوض في شؤون حياة الدهماء والرعاغ والزعانف من الناس . ومن هنا أيضاً جد الأدباء وتنافسوا في إخراج أدبهم على صورة تتفق هي وأذواق الطبقة الممتازة وتلائم وأسلوب حياتها ، فابتعدوا من اجل ذلك عن حياة الشعب وضربت بينهم وبينها الأسداد .

ذلك ما يوحى به تاريخ الأدب عند كل أمة من الأمم كانت تعيش - وما تزال - على أساس النظام الطبقي ، ولكن قد تتهيا ظروف ملائمة للطبقات الدنيا ، فتحس ونفيق فتجد نفسها في بؤس وشقاء وعند ذلك تستطيع أن تشعر بكيانها وشخصيتها فتعبر عن آلامها وآمالها على السنة شعرائها وكتابها وقصاصها وسمارها الشعبيين .

وقد حدث هذا كله بالقياس إلى الأمة الإسلامية ، فالأدب العربي بعد أن كان سجلا للأحداث التي تلم بالقبيلة ، ومعرضا لمشاعر أفرادها أخذ يتعالى ويرتفع كلما امتد به الزمن عن حياة الدهماء ، ويعني بحياة الطبقة العليا لاسيما في عهد بني العباس ، فكأنه كان يسير في ذلك ماجرى في الحياة السياسية والاجتماعية من تغير وتطور من نظام قبلي بسيط ، قوامه النزعة الديموقراطية عند العرب إلى نظام معقد قوامه الحكم المطلق والتفاوت بين الطبقات عند الشعوب الأعجمية .

بيد أن العوامل التي أشرنا إليها فيما تقدم قد فعلت فعلها على مر الأيام ، إذ لم يكد يبدأ القرن الرابع حتى رأينا المملكة الإسلامية تتجزأ ، والمجتمع الإسلامي يتفكك ويتداعى ، فقد باغ التفاوت بين الطبقات نهايته ، كما تحلل الناس من كثير من القيود الاجتماعية والدينية ، بحيث يخيل إلينا أنهم كانوا يعيشون على غير نظام ويسرون على غير اتجاه ، فأناحت لهم هذه الفوضى في جوانب الحياة المختلفة حرية واسعة ، في القول والفعل والرأى . وطبيعي أن يتأثر الأدباء بهذه الظاهرة فيتسع مجال الأدب عندهم ، وتفتح أمامه أفاق جديدة لم يطررها من قبل ، ولم يتعد حدودها من بعد ، وتهيا له فرص تغلغل في طبقات المجتمع على اختلافها ، فيتخطى الحواجز التي كانت تفصل بين الأدباء وبين الطبقة العامة ويخرج بذلك على ما تواضع عليه الناس من نتبارات اجتماعية .



ولسنا في ذلك نرسل القول جزافاً ، فنظرة عابرة على الحياة الأدبية في العصر البويهي ترينا النشاط الأدبي واضحا كل الوضوح في كل ناحية وفي كل مجهل ، فقد اتصل الأدباء بحياة القصور ، فصوروا ما فيها من ضروب الجد والهزل وما فيها من ألوان الترف والزينة .

وشاركوا في الشؤون العامة كالحرب والسياسة والإدارة فصوروا النصر والهزيمة ، والظلم والعدل ، والتولية والعزل ، والأمر والنهي ، والتهديد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

وعرضوا لعلاقة الفرد بالفرد وعلاقة الفرد بالجماعة فهناؤا ، وعزوا ، وعتبوا ، وشكوا ، واستعطفوا ، ومدحوا ، وهجروا . . . الخ

كل ذلك نقرأه في رسائل الصابي والصاحب والخوارزمي والبديع وغيرهم وفي هذه الكثرة الهائلة من شعر الشعراء الذين احتشدوا في تلك البيئات الأدبية المتعددة .

ولم يقفوا عند هذا الحد بل تعدوه إلى الأشياء التي تصلح أو لا تصلح لأن تكون موضوعا للأدب كالمذخنة والميزاب والشمعة ، أو كالأحاجي والألغاز وما إليها .

على أن الأدب في هذا العصر لم يشأ ، أو لم تشأ له الظروف ، أن يحتفظ بتلك المكانة الرفيعة حيث وضعه أهلها ، يحتال بنعيم القصور ومجالس الشراب والغناء ، وخواطر الأدباء . أقول إن الأدب في هذا العصر لم يشأ أن يعيش مترفعا ، بل حطم ذلك الإطار الذهبي المضروب حوله ونزل إلى مستوى الحياة الشعبية في شيء كثير من الاندفاع والحماس ، فعاش بين التجار وأصحاب الحرف وأهل الرساتيق والخواتق والزوايا ، وصاحب الصعاليك والمكدين واللصوص ، فسجل أساليب المعيشة عند هؤلاء جميعا ، كما صور

ما كان في ميثاقهم من أخلاق وميول وآراء وآلام أيضا .  
وقد ترك هذا الاتجاه الشعبي في الأدب ثروة أدبية قيمة، متمثلة في شعر  
ابن الحجاج وابن سكرة والسوسى والعكبرى والخزرجى وأمثالهم، وفي  
هذه القصص والأسماء والنوادر التي كتبها التنوخي ومسكويه المؤرخ  
المعروف وغيرهما من الكتاب المجهولين . فلهذا الأدب الشعبي أهمية  
كبيرة من حيث إنه خير مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر  
ولو أنه لا يرضى أولئك الذين يتطلبون اللذة الفنية في الأدب .

وهكذا كان تأثير الأدباء في العصر البويهى بالواقع القاسى الذى جرت  
إليه الحياة السياسية والاجتماعية وخضوعهم له من الأسباب التي دفعتهم إلى  
أن ينتجوا ألواناً مختلفة من الأدب، ففي أدبهم نجد المثالى الذى يخلق في  
السماء، والواقعى الذى يجيى على الأرض، ونجد فيه الباسم والشاكى،  
ونجد فيه المحافظ المحتشم، والمكشوف الخليع العذار .

وكما اختلفت أغراض هذا الأدب واتجاهاته كذلك اختلفت أساليبه  
وألفاظه، فالأدب الذى يكتب للطبقة المثقفة يمتاز بالتأنق والتجويد، والخلية  
اللفظية، والأدب الذى يكتب للشعب يتسم بالبساطة وعدم التكلف، ومجارة  
الحياة الاعتيادية في ألفاظه ومعانيه .

\*\*\*

يظهر لنا بما تقدم أن الأدب البويهى كان مرنا، يلبس لكل حالة لبوسها  
ويجرب مع الحياة كيفما كان اتجاهها، فكان من أجل ذلك تسليية لطيفة  
للمنعمين والمجدودين، كما كان عزاء جميلا للبائسين والمحرومين .

## إِفْضَلُ الْأَوَّلِ

# صلة الأدب بالسياسة

في القرن الرابع

لا ريب في ان اثر الحالة السياسية في الأدب أثر قوى فعال ، فالحرية التي تتمتع بها الأمة ، والاستبداد الذي تمنى به ، يؤثران في الأدب تأثيراً مباشراً ، والفنون الأدبية التي تنشأ في ظل الحرية وتزدهر تختلف عن تلك التي تنشأ في كنف الاستبداد وتزدهر .

ففي زمن بني أمية حيث كانت الأمة الإسلامية تتمتع بنصيب من حرية الرأي والقول نمت الخطابة والمناقضات والشعر السياسي ، واكتمل نموها وازدهارها على أسنة الخطباء والشعراء الذين كانوا يناصرون هذا الحزب أو ذاك من الأحزاب السياسية .

أما في عهد بني العباس ، حيث تأثر الخلفاء بأنظمة الحكم المطلق وحق الملوك الآلهي عند الفرس فخنقوا الحريات السياسية ، وكفروا أفواه الشعراء والخطباء ، فإننا نجد تلك الفنون الأدبية تذوى وتذبل ، فتختلفها أنواع جديدة من الأدب تلائم الطابع السياسي وتمشى مع الحياة الاجتماعية الجديدة ، كفن المديح الذي يتملق السلطان ويسرف في التلق . ومنذ يومئذ أصبحت بغداد — عاصمة الخلافة — قبلة الأنظار عند الطامعين في هبات الخلفاء وذوى الثروة واليسار ، وكعبة الطامحين إلى المجد ، يحجون إليها من أفاصي المملكة الإسلامية لأنها كانت تحتل المكانة الأولى بين المدن

الإسلامية من حيث إنها مركز للحياة الفكرية والأدبية ، ومن حيث إنها تمتاز بالحياة المدنية الراقية التي تتكونت فيها بعد اختلاط العناصر وامتزاج الثقافات وتجمع المال .

وعلى هذا أصبح لزاماً على أولئك الأدباء الذين يبتغون الشهرة ويطمعون بالمال أن يشدوا الرحال إلى بغداد حيث قصور الخلفاء والوزراء ، وحيث مجالس العلم والأدب يمدحون حيناً ، ويفشون المجالس الأدبية حيناً آخر حتى إذا تهيأت لهم الفرص مدحوا الخلفاء ورجال البلاط وتقرّبوا إليهم واختصوا بهم ، وعاشوا في أكنافهم .

على أنه لم يكن من اليسير أن يظفر كل الأدباء بالخطوة لدى الممدوحين العظام ، فالذين توهبهم مواهبهم الفنية ، أو تخدّمهم الظروف ، فيكونون من ندماء الخليفة أو الوزير قليلون . ولذلك كان تشجيع الساسة للأدب والأدباء محصوراً في نطاق ضيق .

أما في القرن الرابع فقد اختلف حال الأدب وأهله عن قبل ، ذلك أن بغداد لم تعد الموئل الأكبر للنشاط الأدبي ، كما لم يعد بلاط الخلفاء العباسيين وقصور وزرائهم مورداً عذياً يزدحم عليه الشعراء . فقد نشأت هناك حواضر جديدة في أنحاء المملكة الإسلامية ، زاحمت بغداد ونافستها مركزها القديم وأخذت نفسها بتشجيع العلم والأدب بحماس شديد .

لقد كان الحمدانيون في حلب ، والبرهيميون في فارس والعراق ، والسامانيون في خراسان ، وملوك مصر والمغرب والأندلس يتنافسون ويستبقون في العطف على أهل العلم والأدب ، كما كانوا يتنافسون أيضاً في جمع الكتب وخدمة العلم وتشجيع المؤلفين .

وهكذا يتفق سوق العلم والأدب في ظل السياسة نفاقاً عجيباً ، كان من

فتأمله أن أصبح الأدباء والعلماء يتنقلون من بلاط إلى بلاط ، ومن قصر إلى قصر ، يعرضون نتاجهم على الملوك والوزراء ، وعلى من يتفق عنده الأدب من ذوى المال ، كالتاجر الذى يحمل بضاعته إلى حيث تنفق ليجنى منها الربح الوفير .

نلاحظ ذلك ونحن نقرأ تاريخ حياة الأدباء فى هذا العصر بصورة خاصة ، نقرأ مثلاً :

أن القاضى الجرجانى فى صباه كان خلف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدوين بلاد العراق والشام وغيرها حتى يعرج على حضرة الصاحب ويلقى بها عصا المسافر . (١)

وأن أبا الحسن السلامى قد هجر بغداد إلى الموصل ثم ورد أصهبان ثم آثر قصد حضرة عضد الدولة بشيراز . (٢)

وأن بديع الزمان الهمداني كان أخوا أسفار وكان جوابة لم يترك من خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها وجبى وجبى ثمرتها ، ولا أميراً ولا ملكاً ولا وزيراً ولا رئيساً إلا استمطر منه بشوه وسرى معه فى ضوء . (٣)

وهكذا كانت بخارى ونيسابور والرى وجرجان وأصهبان وشيراز وحلب وبغداد وغيرها قبلة الآمال ، ومحط الرحال للعلماء والأدباء والفقهاء فى ذلك العصر .

لقد كانت حركة علمية وأدبية واسعة النطاق ، ازدهرت فى بيئات متعددة من المملكة الإسلامية المتميزة برعاية الملوك ووزرائهم الذين احتفلوا بالأدب

(١) البقيمة ٣ : ٢٢٩ (٢) نفس المصدر ٢ : ١٦٢

(٣) نفس المصدر ٤ : ١٦٩

والعلم والفلسفة احتفالاً منقطع النظير يدعو إلى التساؤل ويبعث الدهش والاستغراب في نفس الباحث.

ترى ما الذى حدا بهؤلاء الساسة إلى رعاية العلم والأدب فى مثل هذا الحماس الغريب؟

أهو الميل إلى العلم والأدب والفلسفة؟ أهو الرغبة فى الاستكثار من هؤلاء المثقفين ليزينوا بهم المجالس كما زينوها بأدوات الترف والزينة؟ أهو التنافس - مجرد التنافس - الذى يحدث عادة بين الخصوم والأقران؟ أهو تكلف العظمة والأبهة، كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد؟ أم هو هذه الأمور جميعاً؟

ربما يكون الأمر كذلك، فقد ذكر القداى والمحدثون أن من هؤلاء الملوك والوزراء من كان أديباً أو عالماً قد دفعه حبه للعلم والأدب إلى تشجيع العلماء والأدباء، وأن منهم من كان يميل إلى الفلسفة، فقرب أهلها إليه ورعاهم، وأن منهم من كان يحب المكتب فيجمعها ويعنى بها. (١)

ولكنى - مع ذلك كله - لا أكاد أطمئن إلى أن مصدر هذا التشجيع كان حب العلم للعلم وإكرام الأدب للأدب نفسه دائماً، بل يتراءى لى أن السبب الرئيسى الذى دفع هؤلاء الساسة إلى أن يقفوا هذا الموقف الودى من الأدب وأهله هو الضرورة، هو الحاجة إلى الشعر والشعراء والمكتاب، هو الرغبة الملحة فى الشرد السائرات من قصائد الشعراء التى تكسب الممدوح ذكرأ حسناً وصيتاً بعيداً، بل هو الحاجة الماسة إلى الرسائل المحبرة التى يرد بها السكاتب رأس الجروح فيثنى ويجمعها سوط الحرون فيعنق، أو إلى تلك

(١) راجع كتاب ظهر الإسلام الأستاذ الدكتور أحمد أمين وكتاب الفن ومذاهبه فى النثر العربى للأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

الرسائل التي تنوب عن السكتائب في عرك أديم العاصي واستصلاحه وورده إلى الطاعة .

ذلك أن هذه الإمارات الصغيرة كانت مخنصمة فيما بينها ، وكانت مهددة بتمرد القادة والزعماء الطامحين في كل لحظة ، وكانت مهددة أيضا بالأخطار الخارجية والثورات الداخلية . كل ذلك قد حمل القائمين على شؤونها والمدبرين لأموارها على أن يتخذوا من الأدب وسيلة يستعينون بها على تهدئة الخواطر المضطربة ، والنفوس القلقة ، ويستخدمونها في إقامة الهيبة وبت الدعوة وتثبيت السلطان .

ولسنا بحاجة إلى التدليل على هذا الرأي ، فقد كفانا الثعالبي مؤونة ذلك إذ قال (١) : « إن السكتاب وهم الستة الملوك ، إنما يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئمة ، أو دعاء إلى ألفة ، ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ماشا كلها من جلائل الخطوب ومعاضم الشؤون وقد وسمتهم خدمة الملوك بشرفها وبوأنتهم منازل رياستها .

وكذلك يقدم لنا ابن خلكان دليلا آخر على حاجة السياسة إلى الأدب إذ يقول : (٢)

« وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض عليه الناس ويحضهم على نصرته سيف الدولة »

وإذن فقد كان يقوم هؤلاء السكتاب والشعراء للدول التي ترعاهم بخدمات خطيرة تتمثل بحياتها وحياة القائمين عليها ، فهي من النوع الذي تقدمه مؤسسات الدعاية لحكوماتها في العصر الحاضر ، فإذا عرفنا هذا استطعنا

(١) نشر النظم وحل العقد ص ٢ (٢) ابن خلكان ١ : ٣٥٦

أن نفهم الدافع الذي كان يحرك الملوك ووزرائهم ويدعوهم إلى أن يملأوا  
قصورهم بالسكتاب والشعراء ويغمرهم بالعطايا والهبات.  
على أن حملة الأقلام من السكتاب والشعراء لم يكونوا جاهلين بقيمة  
مراكمهم وخطورتها بالنسبة لولاية الأمور، فقد ذهب بهم الغرور والتيسر  
إلى أن يقول أحدهم: (١)

كذب الزاعمون أن المعالي في صدور المثقفات الدوامي  
إنما المجد والندى والمساعي والردى في أسنة الأقلام

وإلى أن يقول أبو إسحق الصابي مفتخراً: (٢)

وقد علم السلطان أنى لسانه وكاتبه الكافي السديد الموفق  
أرازره فيما عرا وأمده برأى يريه الشمس والليل أغسق  
يحددن نهج الهدى وهو دارس ويفتح باب النهى وهو معاق  
فيمنأى يمنأه، ولقضى لفظه وعين له عين بها - الدهر - يرمق  
ولى فقر تضحى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق  
أرد بهار رأس الجوح فيثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنتق  
فإن حاولت لطفاً فمأه مروق وإن حارلت عنفماً فنار تأاق

\*\*\*

وإذا كان ما قدمناه صحيحاً من أن السكتاب كانوا أسنة الملوك، وأن  
الردى في أسنة الأقلام، وأن السكتابة قطب الأدب وملاك الحكمة ولسان  
ناطق بالفضل وميزان يدل على رجاحة العقل... (٣)، فإننا نستطيع أن نعلم  
تلك الظاهرة السياسية التي جددت في هذا العصر وهي ظاهرة إسناد المناصب

(١) البيهقي ٣: ١٩٢ (٢) نفس المصدر ٢: ٥٠٠

(٢) صبح الأعشى، الجزء الأول ص ٤١٣٧



الإدارية الكبرى في الدول إلى الكتاب كالوزارة أو ما يشبه الوزارة من حيث الأهمية (١) فليس من قبيل المصادفة أن يصبح جميع الوزراء ورؤساء الدواوين من الكتاب البارزين إذ لو لم يكن لقدرة هؤلاء البلاغية جدوى للملوك وأثر حسن في حياتهم وحياة ممالكهم لما رأيناهم يتسابقون إلى احتضان الأدباء الأكفاء فيسندونهم زمام الأمور ، وإمكان لهم في غيرهم من رجال الإدارة الآخرين خير عوض .

وبعبارة أخرى إن افتقار الملوك إلى الكتابة - للأسباب التي بينها فيما تقدم - هو السبب الذي حمل آل سامان على استئجار العميد والإسكافي وبنى ميكال ، وهذا السبب نفسه هو الذي حمل آل بويه على استخدام أبي الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد ، والمهلبى ، والصائبي وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم في تدبير شئون ممالكهم .

وهكذا أصبح الأدب في هذا العصر سبيلا للوصول إلى الوزارة والمناصب المهمة في الدولة ، فرفع قدر صاحبه ، وبدله من حال إلى حال ، من عسر إلى يسر ، ومن فقر إلى غنى ، ومن ضعة وخمول إلى شرف وجاه . قال القلقشندي (٢) : « ولو اعتبرنا من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لقاتوا الحصر ، وخرجوا عن الحد وهذا الوزير المهلبى كان أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة حتى قال :

ألا موت يباع فأشتره      فهذا العيش ما لا خير فيه  
ألا موت لذئذ الطعم يأتي      يخلصني من العيش الكربة  
إذا أبصرت قبر أمن بعيد      وددت لو أني مما يليه

(١) راجع كتاب الحضارة الإسلامية للأستاذ متر ترجمة الدكتور أبي ريدة .  
وكتاب ظهر الإسلام للأستاذ الدكتور أحمد أمين .

(٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٧ ، ٤١

ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

ثم ترقى بالسكتابة حتى وزير لمعز الدولة بن بويه الديلمي في جلالة قدره .  
ثم قال: « . . . وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابني صاحب الرسائل  
المشهورة كان على دين الصابئة مشددا في دينه ، وبلغت به السكتابة إلى أن  
تولى ديوان الرسائل عن الطوائع والمطيع ومعز الدولة البويهى ، وعندما  
مات رثاه الشريف بقصيدة فلامه الناس لسكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال  
إنما رثيت فضله . »

على أن هؤلاء السكتاب لم يكونوا ليبلغوا هذه المنزلة الرفيعة في الدولة  
إلا إذا كانوا أكفاء ، ذوى عقل وافر ورأى سديد واطلاع واسع على ثقافة  
العصر ليتمكنوا من القيام بواجباتهم على الوجه الأكمل ، فيضعوا الأشياء  
في مكاتباتهم ومخاطباتهم في مواضعها ، ويأتوا بالكلام من وجهه ، ويخاطبوا  
كل واحد عن سلاطينهم بما يقتضيه الحال التي يكون عليها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير : (١) « إن صاحب هذه الصناعة يحتاج  
إلى التثبيث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادرة بين  
النساء والمناشظة عند جلوة العروس وإلى ما يقوله المنادى في السوق على  
السلعة فما ظنك بما فرق هذا وذلك لأنه مؤهل أن بهم في كل واد فيحتاج  
إلى أن يتعلق بكل فن . »

وإذا كان ذلك موقف السياسة وأهلها تجاه الأدب والأداب بصورة عامة

فما هو موقف بني بويه ووزرائهم منهما بصورة خاصة إذن ؟

ذلك ما ستراه في الفصول التالية .

(١) نقل عن صبح الأعشى ١ : ٢٥

## الفصل الثاني

### أثر بني بويه في الأدب

كان بنو بويه أعاجم، بعيدين عن الثقافة العربية أول عهدهم، حتى أنهم احتاجوا إلى من يترجم لهم من العربية إلى الفارسية حينما احتلوا بغداد ولسكنهم تأثروا بثقافة عصرهم وأثروا فيها منذ الجيل الثاني منهم، فقد كان من ملوكهم وأمراءهم من استطاع أن يقرض الشعر ويتفرغ للأدب ويتشغل بالكتب. فعز الدولة وأبو العباس بن ركن الدولة كانا شاعرين، وتاج الدولة بن عضد الدولة كان أدب آل بويه وأشعرهم، وكان يلي الأهواز فأدركته حرفة الأدب. وعضد الدولة كان شاعراً، نابغا في عدة فنون، وكان يستحث العلماء على التأليف، ويغمرهم بالأموال، ويقصده فحول الشعراء من أطراف البلاد، كالمثني وغيره، ولا يكاد مجلسه يخلو من المباحث والمباسطات في العلم والأدب، حتى قال فيه الثعالبي: «كان على ما مكن له في الأرض، وجعل إليه من أزمة البسط والتقبض، وخص به من رفعة الشأن وأوتي من سعة السلطان، يتفرغ للأدب، ويتشغل بالكتب ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ويقول شعراً كثيراً»<sup>(١)</sup>

وقد كان من المتوقع أن يشجع آل بويه الثقافة الفارسية واللغة الفارسية كما فعل آل سامان في خراسان، ولسكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك بالرغم من أنهم كانوا يحكمون بلاداً أكثر أهلها من الفرس، ويخيل إلى أن سبب

(١) اليبمة ٢: ٢

ذلك يعود إلى أن هذه البلاد قد ابتعدت عن لغتها الأصلية وتراثها القومي حقبة طويلة من الزمن، الأمر الذي جعل بني بويه يخضعون للأمر الواقع، فيشجعون الثقافة القائمة ولغتها، ويرعون أهلها بحجارة للرأى العام وحباً بمصالحهم الخاصة، فقرّبوا العلماء والأدباء وحشّوهم على التصنيف والتأليف، وفتحوا أبوابهم للشعراء وغمروهم بالعطايا والصلوات .

ومهما يكن فقد امتاز عهد آل بويه بالخصب العلمي والأدبي بتأثيرهم الخاص أو بتأثير وزراءهم، ذلك أنهم استوزروا أبرع الكتّاب وأبرزهم وأعتمدوا عليهم في تدبير شؤون الحرب وأمور السياسة والإدارة والمال جميعاً، فلبعت أسماؤهم، وعظمت هيبتهم وطار صيتهم في الآفاق فقصدهم أهل العلم والأدب فأفادوا منهم كثيراً وأنتجوا كثيراً، في ميدان الأدب والعلم والفلسفة، فكان أثرهم في الحياة الفكرية قوياً جداً ربما فاق أثر أسيادهم فيها .

ومن الظواهر البارزة في عهد بني بويه تعدد البيئات الأدبية والعلمية بتعدد العواصم في الأقاليم، فقد كان العلماء والأدباء يقصدون الوزراء في الري وأصبهان وشيراز وبغداد فيعيشون في أكنافهم، ويتصلون بألوان النشاط العقلي والأدبي الذي اذدهر في تلك البيئات، إذ كان بيت الوزير يمثل مدرسة، بل جامعة تحوى ألواناً مختلفة من الثقافة، وضروبا من العلم والأدب، لا سيما وأن هؤلاء الوزراء كانوا يختلفون في الميول والنزعات، فمنهم من كان يميل إلى الفلسفة كابن ساعدان، ومنهم من كان يميل إلى العلم والأدب كابن العميد، أو إلى الأدب فقط كالصاحب بن عباد والوزير المهلبى، ومنهم من كان يحب المكتب ويعنى بها فيجمعها كسابور بن أردشير .

كل ذلك زاد الحركة الأدبية والعلمية تنوعاً ونشاطاً، وأكسبها خصباً ونماء .

لقد كان ابن العميد (١) - بالإضافة إلى منصبه كوزير يدبر أمور الدولة وقائد يخوض المعارك - عالماً ، وأديباً ، وأستاذاً ماهراً ، تخرج عليه كثير من الأدباء كالصاحب وعضد الدولة وابنه أبي الفتح .

وكان في قصره يمثل المدرس الذي يعنى بتدريب طلابه وتمارينهم على قول الشعر ، فتراه ينتهز المناسبات ويطلب إليهم أن ينظموا فيها شعراً فإذا حياه بعض الزائرين بأنترجة قال لهم : تعالوا نتجاذب أهداب وصفها ، وإذنا سئل أحد الحاضرين عن قصة له فقال :

أى جهد لقيته وشقاء شقيته

قال لهم : قولوا على هذا الوزن .

وهكذا كان ابن العميد يقارض الأدباء ، ويعقد المناظرات الفقهية والسكلامية بين الفقهاء والمتكلمين ، كما كان يكتاب الأصدقاء شعراً ونثراً . وبستطيع أن نقول إن ابن العميد كان أستاذاً الجليل ، وكتاب العصر ، وصاحب طريقة في الكتابة تفرد بها وعرفت باسمه ، وتأثر فيها كتاب زمانه وما بعد زمانه . . . ثم إنه كان ذا شخصية قوية . قد غلبت حتى على شخصية سيده ومولاه ركن الدولة .

كل ذلك جعل منه عاملاً من عوامل النهضة الأدبية والعلمية أيام بنى بويه ، ومدوحاً وكتاباً ومعلماً ومقارضاً ومكاتباً . ولعل المتنبي لم يكن مخطئاً حين قال فيه :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا

(١) هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، كان أبوه أبو عبد الله الحسين يتقلد ديوان الرمايل للملك نوح بن نصر الساماني حتى مات ، أما أبو الفضل فقد كان بالرى وكور الجبل وفارس يتدرج في المناصب حتى وزر لركن الدولة البويهى .

أما الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة فقد قال فيه الشعالي: (١)  
« ولما كان نادرة عطارد في البلاغة . . . جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد  
كل خطاب جزل ، وقوال فصل ، وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام  
وبدائع الأفهام وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصبوب العقول وذوب العلوم  
ودرر القرائح . . . واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل  
وفرسان الشعر من يرني عدهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في  
الأخذ برقاب القوافي ، ومملك رق المعاني . . . ثم جمعت حضرة الصاحب  
بأصبهان والرى وجرجان مثل أبي الحسن السلامي وأبي بكر الخوارزمي  
وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البديهي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم  
الزعفراني وأبي العباس الضبي وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني وأبي  
القاسم بن أبي العلاء وأبي محمد الخازن وأبي هاشم العلوي وأبي الحسن  
الجوهري وبنو المنتجم وابن بابك وابن القاشاني وأبي الفضل الهمداني ،  
وإسماعيل الشاشي وأبي العلاء الأسدي وأبي الحسن الغويري وأبي دلف  
الجزرجي وأبي حفص الشهرزوري وأبي معمر الإسماعيل وأبي الفياض  
الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . . . »

عدد ضخم من الأدباء والمثقفين ، أحاطوا بهذا الوزير وملاوا قصره  
أيما حل ، فغمروا بعطفه ورعايته ، وعاشوا في كنفه ، وجلسوا منه مجلس  
الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به وجاروه وقلدوه ، واتسموا بظابعه ، وجروا  
في نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساروا في طريقه ترسما  
وترسلا. (٢)

(١) البيهقي ٣ : ٣٢٠ (٢) البيهقي ٣ : ١٢٩ .

كان يقترح عليهم الموضوعات ويطلب إليهم أن ينظموا فيها الشعر كما كان يفعل أستاذه أبو الفضل بن العميد ، ولسكن في نطاق أوسع . . . . . بنى داراً فطلب إليهم وصفها فاستبقوا في ذلك ، ووقع في يده فيل وهو في جرجان فأمرهم أن يقولوا فيه شعراً ، ومات برذون أبي عيسى فأحب أن يرثوه ويعزوا صاحبه فاستجابوا لرغبته ، فكان من أثر ذلك مجموعات شعرية سميت الداريات والفيليات والبرذونيات .

وكان إلى جانب هذا ناقداً ، ينقد شعرهم ويقومه فيحكم مثلاً على قصيدة ابن أبي الربيع بأنها : « أحسن من الربيع ، وثيقة الجزالة ، أنيقة الأصالة تنطق عن أدب مهيد الأسر ، شديد الأزر . » (١) ويبدى رأيه كذلك في أبي سعيد الرستمي فيقول : مرة هو أشعر أهل مصره وتارة هو أشعر أهل عصره . (٢)

ولهذا كان تأثيره صاحب في الحياة الفكرية شديداً ، إذ كان يمثل المدرس النشط ، الواثق من نفسه إلى حد الغلو والإسراف بدليل هذا الميل الشديد إلى الظهور بمظهر الأستاذ القدير ، فقد كان يتزايى أهل العلم متطلساً ، متحنكاً ، مستخفاً بتقاليد الوزارة . وربما كان مصدر ذلك أنه كان معلماً في قرية من قرى الطالقان في أول أمره ، فلها ألقى إليه مقاليد الأمور فأصبح وزيراً ، نزع إلى إشباع هذا الميل والإفصاح عن تلك الرغبة فحول قصره إلى مدرسة أدبية كبرى .

وقد بلغ من حبه للصاحب للعلم والأدب - كما يقول القدامى - أنه كان يرسل إلى بغداد خمسة آلاف دينار كل عام تفرق في الفقهاء وأهل الأدب. (٣)

(١) اليتيمة ٣ : ٢١٠ (٢) نفس المصدر ٣ : ١٢٩

(٣) المنتظم ٧ : ١٨٠

وذكر ياقوت ما يدل على رغبته في العلم والأدب وتعلقه بهما إذ قال : « لما عزم الصاحب بن عباد على الإملاء وهو وزير خرج يوماً متطلساً متحنكاً بزى أهل العلم فقال: قد علمتم قدمي في العلم ، فأقروا له بذلك ، فقال: وأنا متلبس بهذا الأمر وجميع ما أنفقته من صغرى إلى وقتي هذا من مال أبي وجدى ، ومع هذا فلا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهدكم أنى تائب ... ثم خرج فقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى الواحد ينضاف إليه ستة كل يبلغ صاحبه ، فسكتب الناس حتى القاضى عبد الجبار» (١) ويروى عنه أيضاً أنه قال : « ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق ، وأتصدر بيغداد ، وأستسكتب أبا إسحق الصابى ويكتب عنى وأغير عليه ، » (٢)

وهكذا كان الصاحب طموحاً ، عريض الآمال ، شديد الثقة بنفسه ، ولسكنه كان وزيراً في إمارة صغيرة ، فلم يتهمياً له أن يشبع نزعاته وميوله كلها ، فأفرغ جهده في الحقل الأدبى والعلمى وملاؤه حركة ونشاطاً ، فلقت إليه الأنظار وظفر بالإعجاب والإكبار حتى من ألد الخصوم كأبى حيان التوحيدي .

ويدلنا على ذلك ما قيل في رثائه ، كقول أحد الشعراء :

نوم العيون على الجفون حرام	ودموعهن مع الدماء سجام
تبكى الوزير سليل عباد العلاء	والدين والقرآن والإسلام
تبكيه مكة والمشاعر كلها	وحجيجها والنسك والإحرام
كافى الكفاة قضى حميداً نخبه	ذاك الإمام السيد الضرغام
مات المعالي والعلوم بموته	فعلى المعالى والعلوم سلام

(١) معجم الأدباء ٦ : ٢٥٢ (٢) معجم الأدباء ٦ : ٣٠٦



هذا ما كان من أثر بعض وزراء البويهيين في الحياة العلمية والأدبية في فارس .

أما ما كان من أثر وزراءهم في العراق فإننا نستطيع أن نقول إن هؤلاء لم يألوا جهداً في تشجيع الحركة الفكرية بما أوجدوا من بينات علمية وأدبية وفلسفية ، كان يغشاها الأدباء والعلماء والفلاسفة ، فسكانهم كانوا ينافسون - في ذلك - زملاءهم في فارس ، إذ اجتذبوا إلى قصورهم قادة الفكر والبيان ممن اعتزت بهم بغداد ، وحافظت على بهائها القديم بوجودهم فيها .

نذكر من هؤلاء الوزراء ثلاثة ، على سبيل التمثيل ، وهم الوزير المهلبى وابن سعدان وسابور بن أردشير .

أما الوزير المهلبى فقد كان أديباً ، كاتباً وشاعراً ، يترسل ترسلاً مليحاً ، ويقول الشعر قولاً لطيفاً ، يضرب بحسنه المثل ، ولا يستحلى معه العسل ، يغذى الروح ويحلب الروح ، (١) .

وكان يعقد المجالس الأدبية في قصره الجميل أو في بساطينه الأنيقة أو في أى مكان آخر فيقصدتها كثير من أهل العلم والفضل كالوزراء والقضاة والشعراء ، من أمثال الصاحب والقاضى التنوخى وابن قريعة وابن معروف وغيرهم ، وهناك يأخذون في فنون مختلفة من المناشدات والمجاولات والمذاكرات والمداعبات .

وقد أعجب الصاحب بن عباد بهذه المجالس حينما زار بغداد فأكثر من وصفها والتحدث عنها في كتابه الروزنامجة ، فقال في أحد فصوله : (٢) ، ووردت أدام الله عز مولانا - يقصد ابن العميد - العراق فكان أول ما اتفق لى

(١) تيمية الدهر ٢ : ٨ (١) نفس المصدر ٢ : ١١

الاستدعاء مولاي الأستاذ أبي محمد - أيده الله - وجمعه بين ندمائه من أهل الفضل وبينى ، وكان الذى كلنى منهم شيخ ظريف ، خفيف الروح ، أديب متقعر فى كلامه ، لطيف ، يعرف بالقاضى ابن قريعة ، فإنه جارانى فى مسائل خفتها تمنع من ذكرها واقتضاها . . . » ثم قال :

« وشاهدت من حسن مجلسه - يعنى المهلبى - وخفة روح أدبه وإنشاده للصنوبرى وطبقته ما طاب به الوقت وهشت له النفس وشاكل رقة ذلك الهوى ، وعذوبة ذلك اللبى » .

وكان المهلبى يجب الأدب ويكثر من التحدث حوله حتى على مائدة طعامه ، قال ياقوت :

« كان أبو محمد المهلبى يكثر الحديث على طعامه ، وكان طيب الحديث وأكثره مذاكراة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتاب والندماء » . (١)

وقد بلغ من حبه لأهل الفضل والأدب أنه كان يحتمل من أبى الفرج الأصفهاني حين يؤاكله ما لا يحتمله إنسان ، فهو على ما كان من نظافته وأناقته فى مأكله ، كان يتكلف الصبر على مؤاكلة أبى الفرج ، فلا يظهر فى وجهه إنكار ولا استكراه . (٢)

ولعل ما رثاه به ابن الحجاج يدل على حسن أثره فى حياة العلماء والأدباء إذ قال : (٣)

يامعشر الشعراء دعوة موجه لا يرتجى فرج السلو لديه  
عزوا القوافى بالوزير فإنها تبكى دماً بعد الدموع عليه

(١) معجم الأدباء . ٩ : ١٤٣ (٢) معجم الأدباء . ١٣ : ١٠٢

(٣) نفس المصدر . ٩ : ١٣٨

مات الذي أمسى الثناء وراه وجميل عفو الله بين يديه  
هدم الزمان بموته الحصن الذي كنا نفر من الزمان إليه  
وأما ابن سعدان وزير صمصام الدولة فإنه كان يأنس بالفلسفة ويميل  
إليها ويقرب المشتغلين بها إليه فيشجع طائفة الفلاسفة ويشملهم برعايته  
كأبي حيان التوحيدي وأستاذه أبي سليمان المنطقي . وأبو حيان هذا لم ينفق  
عند أحد من الوزراء كما نفق عند هذا الوزير ، فكان يتادمه ويحدثه في  
لياليه ضروبا من الأحاديث الأدبية والعلمية والفلسفية جمعها بعد ذلك  
في كتاب الإمتاع والمؤانسة ، كما ألف له أيضا كتاب الصداقة والصديق .  
وكان يجتمع في مجلس هذا الوزير طائفة كبيرة من المثقفين منهم : أبو  
علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف وابن عبيد الكاتب وابن الحجاج  
الشاعر وأبو الوفاء المهندس وابن بكر ومسكويه وأبو القاسم الأهوازي  
وأبو سعد بهرام بن أردشير وابن شاهويه سوى الطارئین من أهل الدولة (١) ،  
وكان يعتز بهم كثير أفيقول فيهم : « مالهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير  
ولأنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقن  
على الحكمة المروية والأدب المتهادى » .

ثم يوازن بينهم وبين ندماء الوزراء الآخرين فيقول : « أتظن أن جميع  
ندماء المهلبى يفون بواحد من هؤلاء ، أو تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد  
يشبهون أقل من فيهم ... وهل عند ابن عماد إلا أصحاب الجدل الذين  
يشغبون ويحتمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول : قال شيخنا  
أبو علي وأبو هاشم ، » .

يظهر لنا من ذلك أن التنافس بين هؤلاء الوزراء حول اجتذاب الملماء

(١) الصداقة والصديق ص ٣٠

والأدباء قد بلغ الذروة، ولا يخفى ما في ذلك من خير على الحياة الفكرية والأدبية.

وأما سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة فقد كان كاتباً سديداً ، فقد جمع حوله - كغيره من الوزراء - طائفة كبيرة من الشعراء كالسلامي والحدرفي وأبي الفرج البيغاء وابن بابك وابن لؤلؤ والناسي والحاتمي والخالع وغيرهم فكانوا يكثرون مدحه فيجزل لهم العطاء كقول أبي الفرج البيغاء (١):  
لمت الزمان على تأخير مطلبي فقال ما وجه لومي وهو محظور  
فقلت لو شئت ما فات الغنى أملئ فقال أخطأت بل لو شاء سابور  
عذ بالوزير أبي نصر وسل شططاً واسرف فإنك في الإسراف معذور  
ومن مآثر سابور هذا ، المكتبة التي أنشأها ببغداد عام ٣٨١ ، وكانت تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وقد بقيت إلى أن احترقت في عهد طغرل بك حين جاء إلى بغداد عام ٤٥٠ (٢)

وهكذا كان ملوك آل بويه ووزراؤهم يرعون العلم ويعنون بالأدب ويشجعون التصنيف والتأليف في بلادهم على نحو لم يكن له نظير في البلدان الإسلامية الأخرى .

\* \* \*

تلك صفحة ناصعة في تاريخ بني بويه ليس إلى نكرانها من سبيل ، ولا كتننا إذا أنعمنا النظر في أسفار التاريخ بدت لنا في تاريخهم صحائف سود قاتمة هي أثر من آثار الحكم الغاشم ونتيجة من نتائج السياسة الجائرة ومظهر من مظاهر الأهواء الجامحة التي لا تتقيد بعرف ولا تخضع لنظام . فقد مر بنا أن آل بويه كانوا مستبدين ظالمين ، لا يأبهون لحقوق

(١) البيهقي ٢ : ٢٩١ (٢) ابن الأثير ٧ : ٣٢٤

رعيتهم ، وأنهم كانوا فرساقداً أفصحوا عن ميولهم الفارسية فشجعوا العادات والنزعات الآرية القديمة ، وأنهم كانوا شيعنة غلاة فنصروا المذهب الشيعي وما داخله من آراء وأفكار لا تتصل بالإسلام من قريب أو بعيد ، فكان لذلك كله أثر واضح في الحياة الأدبية سلبيًا وإيجابيًا حيث ازدهر الأدب الذي يناصر سياستهم ويؤيدها ، كما ازدهر الأدب الذي يقاومها ويحذرها ، نلاحظ ذلك في هذه التيارات الأدبية المتناقضة التي قويت واشتدت في عهدهم كالأدب « الرسمي » ، والأدب الشيعي والأدب الذي يصور النزعات الفارسية ، ثم الأدب الذي كان رد فعل لهذه الآداب جميعاً ، حيث وقف كثير من الأدباء من السياسة البويهية موقفًا عدائيًا ، فأنشأوا أدبًا مناقضًا لكل نوع من الأنواع الأدبية سالفه الذكر .

هذا ولما كان غرضنا بيان مدى أثر السياسة البويهية في الأدب ، آثرنا أن نلم بكل من هذه التيارات الأدبية وما يناقضه على انفراد ، متوخين في ذلك الإيجاز وعدم الإخلال على قدر الإمكان .



## الفصل الثالث

### الأدب الرسمي

قلنا فيما تقدم إن " آل بويه قد استخدموا - كغيرهم من الساسة - أبرع الكتّاب في مناصب الدولة المهمة ، وقرّبوا إليهم أعظم الشعراء للأسباب التي ألمنا بها قبل قليل ، فكان من اليسير عليهم أن يوجهوا الأدب إلى حيث يشاءون وأن يستخدموه في أغراضهم الخاصة كما يحبون ، فيتسم بطابعهم ويصور حياتهم مسبقاً عليها من الظلال ما هي براء منه ، ومضيفاً إليها ما ليس لها .

ذلك أنهم أوحوا إلى الكتّاب والشعراء والعلماء أن يقولوا أو يكتبوا كل ما من شأنه أن يؤيد سياستهم الجائرة ويضفي على حكمهم الغاشم من المزايا والصفات ما يجعل الظلم عدلاً والباطل حقاً والفقير غني والظالم نوراً ، وتلك سنة جرت عليها السياسة وما تزال تجرى عليها حتى في هذا العصر الذي يدعونه عصر الحرية والنور .

أما الشعب الذي ذاق الأمرين في عهدهم فإنه لم يقف من هذه المهازل مكتوف اليد، معقود اللسان ، بل حارل أن يرد الهجوم بهجوم مثله، فأفصح عن سخطه العنيف على سياسة الدولة وبغضه الشديد لرجالها على ألسنة أدبائه شعراً ونثراً وحديثاً تذيع كلها بين الناس وتشيع .

وإذن فنحن الآن أمام خصمين : حاكم ومحكوم ، ظالم ومظلوم ، حكومة قادرة وشعب أعزل ، كلاهما كان يدفع عن نفسه ، وكلاهما كان

يتخذ من الأدب وسيلة في هذا الدفاع . ذلك أن الأدب كان خير وسيلة يلجأ إليها القوى الظالم في إزالة ما علق في نفوس الناس من آثار ظلمه وظغيانه ، كما أنه كان خير وسيلة يمكن أن يتخذها المظلوم ، المغلوب على أمره للتعبير عن آلامه وأحزانه ...

ومهما يكن فإن هذين الموقفين المتناقضين : موقف الحكومة ، وموقف الشعب ، قد أنتجا نوعين من الأدب : أولهما أدب رسمي ، يصدر عن بلاط الملك أو قصر الوزير فيمتدح الملوك والوزراء ورجال الدولة ، وثانيهما أدب يصدر عن أبناء الشعب فيصور سخطهم ونقمتهم على الأوضاع القائمة . أما الأدب الرسمي فإنه يتمثل في نوعين قديمين من الأدب هما : الرسائل الديوانية ، و« شعر المديح » ، فرسائل الصابي ، ورسائل الصباح ، ورسائل عبدالعزيز بن يوسف وغيرهم ، وهذه الكثرة الهائلة من شعر المديح ، كل أولئك قد تأثر بالحياة السياسية وخضع لها ، فصورها بصورة مشرفة لامعة تخطف الأبصار ، ولولا ما كتبه الكتاب وأنشأه الشعراء الآخرون من أبناء الأمة في نقد الحكم وتصوير المظالم لأخطأنا الصواب وحكمننا على الدولة البويهية بما لا يتفق والحق .

فالصاحب بن عباد حين يكتب إلى أميره في « البشائر والفتوح » ، يسبغ عليه من السجايا والصفات ما يجعله مثلاً أعلى بين الأمراء . وهو حين يكتب إلى العمال والقضاة والمحتمسين في « وصاياهم وعهودهم » يشحنها بالأوامر والنواهي ، يعيد إلى أذهاننا فكرة المدينة الفاضلة التي تحدث عنها الفلاسفة . وما هكذا قال المؤرخون ، ولا تحدثوا بشيء من ذلك .

واسكن لما إذا لا نقطف من رسائل الصباح ما يغنيننا عن الوصف ،  
فها هو يقول في إحدى رسائله : (١)

(١) رسائل الصباح المخطوطة بدار الكتب المصرية .

« . . . فتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عضد الدولة وتوج الملة وحرس الأمة ، وزحزح الغمة ، ورفد الخلافة ، وبسط العدل والرافة ، وطهر البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسد الشغور ، وشهدت فتوحه بأنه مؤيد من عند الله ومحوظ بيد الآله . »

ثم يصف المعركة التي دارت بين جيش الأمير وجيش عدوه فيقول :  
« . . . وشمرت الحرب عن ساقها وتنمرت بحمرة أقداحها ، ودارت كأس الموت دهاقاً ، وعاد لقاء القرن للقرن عناقاً ، فكشرتنا المدابير بالديلم زرقاً وبالغلمان رشقاً وملك عليهم الخندق بعد أن جعل قتلاهم معابر وجرحاهم قناطر ، فما انتصف النهار إلا وقد انتصف الله للحق من الباطل ، وكنفنا بالأيد القاهر والنصر الشامل واقتسمت المخاذيل الهزيمة بين قتلى أجروا من دمائهم الجداول وأسرى استنفدوا السكبول والحبائل . . . »  
ويقول في عهده ما ملخصه :

هذا ما عهد مؤيد الدولة مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار حين ولاه قضاء القضاء :

أمره بتقوى الله ومراقبته . وأمره أن يجعل القرآن قبلة مساعيه ووجهة مطالبه ومباغيه ، وأن يتخذ سنة رسول الله ( ص ) ويرضى بها مراداً ومنتجعاً ، وأن يواصل النظر بين الخصوم والأخذ من الظالم للمظلوم دون تفریق بين غنى وفقير وقوى وضعيف فالكل عباد الله .

وأمره بإقامة الحدود على مستحقها وبالاحتياط على الوقوف ورعاية العباد ومطالعة أحوال السكك وتزويج الأيامي ، والاحتياط على أموال اليتامى ، وإقامة الصلاة وإشاعة العدل بين الرعية ، وإجراء الخراج والمعاملات على شروطها المقننة ، وتطهير الطرق من أهل العيث والفساد الخ . »



وأما الصابي حين يكتب مناشيره على لسان الطائع فإنه يردد نفس النغمة التي ردها صاحب في رسائله إذ يقول : (١)  
« . . . وأمره - يعني الأمير - أن يرفع عن الرعية ما شرعه أشرار العمال من سنن الظلم وسير الغشم وأحدثوه من الرسوم الباطلة وطرقوه من المعاملات الجائرة . »

وحين يقول أيضاً في رسالة أخرى : (٢)

« . . . وأمره بأن يولى الأحداث أهل العقل والدعة والضبط والعفة وأن يوعز إليهم بترك المحاباة والمراقبة والإعراض عن المسألة والشفاعة ، والتشدد على أهل الريب حتى لا يظهر منهم منكرو ولا يوقف لهم على فاحشة وأن يبطل الخانات والمواخير ويحظر أبدأ الملاهي والخمر ويمنع من سائر المناكير ويوزع عنها بالحدود والتعزير لئلا تباح المحرمات وتضاع الصلوات وتقترب السيئات وترتكب المحظورات . »

وأما عبد العزيز بن يوسف فإنه حين يكتب عن عضد الدولة في عود الطائع الى بغداد فإنه يعكس الحقيقة ويقلب الأوضاع فيجعل السيد مسوداً، والأسر أسيراً إذ يقول : (٣)

« ولما ورد أمير المؤمنين النهروان ، أنعم بالإذن في تلقيه على الماء فامثلناه وتقبلناه . . . إلى أن وصلنا إلى حضرته البهية شرفها الله تعالى في الحديدية التي استقلت منه سليل النبوة وقعيد الخلافة وسيد الأنام والمستنزل بوجهه درر الغمام . » وهكذا يمضي في هذا البهتان حتى آخر الرسالة .

(١) رسائل الصابي ص ١٣٨ (٢) المصدر السابق ص ١٣٦

(٣) اليتيمة ٣ : ٨٨

تلك نماذج قصيرة قد اخترناها من الرسائل الدبلوماسية الكثيرة التي أوحى بها الأحوال السياسية ورغبات الملوك يومئذ ، وهي - دون شك - تلقى في روع القارئ أول وهلة أن حكومة ذلك العهد قد حققت للناس سعادة الدنيا والآخرة ، واسكن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن ما حوته هذه الرسائل الرسمية من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، ودعوة إلى إقامة العدل بين الرعية ومكافحة العيب والفساد في البلاد وما أشبه ذلك من أسس الحكم الصالح ، لم يكن إلا حبراً على ورق وإلا وسيلة من وسائل التضليل والتدجيل التي يلجأ إليها الطغاة في تثبيت سلطانهم وإقامة هيبتهم في نفوس العامة السذج .

لا نريد الآن أن نأتي بالأدلة التاريخية لاثبات صحة هذه الدعوى ، فالذي قدمناه منها فيه الكفاية ، وإنما نريد أن نذكر هنا فقرتين اخترناهما من رسائل الصابي التي كتبها عن المطيع والطائع في عز الدولة لئرى كيف تتأثر مثل هذه الرسائل الرسمية بالأحوال السياسية وكيف يتأثر منشئوها برغبات الملوك وقوتهم وضعفهم . فعز الدولة في رسائل الصابي ملك صالح كأصلح ما يكون الملوك سيرة بدليل ما ورد في كتاب عن المطيع لله من إطرأ لعز الدولة وإشادة بمحامده وحسن بلائه في خدمة أمير المؤمنين وخدمة الدولة وذلك حين يقول الصابي : (١)

« وخدم أمير المؤمنين في مهمه أوفى خدمة وأشفاها لا يدخره نصحاً ولا يألوه جهداً في ضبط الثغور وسدها ورم الأمور وشدها وترتيب الأحراس بمراكزها وتسريب البعث في مقاصدها ومجاهدة الكفار ومقارعتها ومناضلة الأعداء ومدافعتها وإصلاح البلاد وعمارتها ورعاية

(١) رسائل الصابي ص ٤٧

الرعية وسياستها ، يسافر رأيه وهو دان لم يبرح وبسير تديره وهو ثاوم  
ينزح . . . . »

وهو - أى بختيار - حينما دالت دولته وتغلب عليه خصمه قد أصبح  
هالكاً سيء السيرة فاسد الطريقة كأسوأ وأفسد ما يكون الملوك سيرة  
وطريقة . بدليل ما جاء فى كتاب كتبه الصابى عن الطائع لله عند غلبة  
عضد الدولة وذهاب عز الدولة إلى كل واحد من ولاية الأطراف سنة ٣٦٧  
وذلك حين يقول : (١)

« . . . فما زال بختيار يسيء الاختيار ويتنكب الصواب ويتجنب  
الإصلاح ويمزق الأموال ويعرض الدولة للزوال ويهرج الأولياء أشد  
الإهراج ويحملهم على أعوج المنهاج ويخرب الأوطان ويشتم الأقران  
ويقتل الكفاة ويستكفى الغواة إلى أن بلغ من فاسد سيرته وضال طريقته  
إلى أن استنكبت محمد بن بقية المحيط بكل خلة دنية ... الخ . »

وواضح مما تقدم أن الصابى فى رسائله الرسمية كان خاضعاً للظروف  
السياسية يميل معها حيث تميل ، وكان واقفاً قلبه ومواهبه الفنية لخدمة الأقباء  
من الملوك ، يؤيد سياستهم وينفذ رغباتهم عن طريق الأدب . أريد أن  
أقول إنه كان أجيراً مخلصاً لآسياده ، مطيعاً لهم كهؤلاء الأجراء الذين  
تستخدمهم الحكومات المعاصرة فى مؤسسات الدعاية ، ودور الصحافة ،  
ومحطات الإذاعة ليضلوا الناس عن الواقع القاسى ويخدعهم عن أنفسهم  
ويلقوا فى روعهم أنهم فى رعاية حكام صالحين وسياسة رشيدة ، وأنهم  
يعيشون فى عهد زاهر سعيد .

على أن الصابى لم يكن الكاتب الرسمى الوحيد الذى استوحى الأحوال

(١) رسائل الصابى ص ١٨٥ ، ١٨٦

السياسية وتأثر بها في كتاباته ، بل شاركه في ذلك كتاب الرسائل الديوانية جميعاً ، ذلك أن وصول الكاتب إلى أسمى الدرجات في الدولة كان منوطاً بملكته البلاغية وبقدرته على استغلال هذه الملكة في خدمة الدولة وأغراضها إلى أبعد حدود الاستغلال ، ولهذا كان الأدباء يتنافسون ويستبقون في هذا المضمار ، فلا يصل أحد منهم إلى مبتغاه إلا إذا كان فارساً سباقاً .

وإذا تذكرنا ما كان من حاجة رجال السياسة الملحة إلى الأدب ، وما كان من رغبة الأدباء الشديدة في الوصول إلى المناصب الكبرى والحصول على المال استطعنا أن ندرك مدى أثر الحالة السياسية في ازدهار هذا الأدب الرسمي في قصور الملوك والوزراء ، وفي ظهور أعظم كتاب الرسائل الديوانية في اللغة العربية على الإطلاق في هذا العصر .



أما الشعراء فقد أكثروا من شعر المديح على نحو لم يسبق له نظير ، إذ كانوا يتنقلون بين العواصم ويمتشدون حول الملوك والوزراء يمدحونهم بالعدل والحزم والشجاعة والكرم وضبط الأمور ، وهم يعلمون أن هؤلاء الممدوحين لم يكونوا من العدل والحزم وضبط الأمور في شيء ، وإنما فعلوا ذلك تقرباً إليهم وأملًا في الخطوة لديهم ، وطمعاً بالمال الذي تجمع في خزائنتهم .

لقد كان هؤلاء الشعراء باعة متجولين يبيعون الشعر في أسواق المديح فإذا راج وارتفع سعره تفتحت قرائحهم وكثر إلتناجهم ، وإذا كسد وانخفض ثمنه تراجع طبعهم وقل إلتناجهم . فالسلامي حينما اختص بخدمة عضد الدولة في مقامه وظهره إلى العراق . وتوفر حظه من صلاته وخطمه

سير فيه عيون شعره حتى إن عضد الدولة كان يقول : إذا رأيت السلامى  
في مجلس ظننت أن عطارد نزل من الفلك إلى ووقف بين يدي ، ولكنه  
حينما توفي عضد الدولة تراجع طبعه ورقت حاله ، ثم ما زالت تتناسك مرة  
وتتداعى أخرى حتى انتقل إلى جوار ربه .<sup>(١)</sup>

وإذ كان الشاعر في مثل هذه المواقف لا يشعر لنفسه ولا لعواطفه  
جارى الشعراء في هذا العصر بمدوحهم في رغباتهم ونزعاتهم الغالية ، فغلوا  
في معانيهم وأسرفوا في العلو وزيفوا في عواطفهم ما شاء لهم التزييف إرضاء  
لهؤلاء الممدوحين الذين كانوا يحبون أن يظهروا بمظهر العظمة والجلال  
دون أن يكون لهم من أدواتهما شيء ، ولهذا لجأ الشعراء إلى استعمال  
الاستعارات والمجازات البعيدة ، وإلى اللعب بالألفاظ ، والدعوات العريضة ،  
كقول البديع في صاحب الجيش :<sup>(٢)</sup>

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا  
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا  
يا من يراه ملوك الأرض فوقهم كما يرون على أبراجها الشهباء  
وقول الرستمى في مؤيد الدولة :<sup>(٣)</sup>

أيا ملكا فاق الملوك وبذهم فراح سنانا والملوك عوامل  
ينير الدجى من وجهه وهو حالك ويندى الثرى من كفه وهو ما حل  
وذو لحظات كلهن فواضل وذو حركات كلهن فضائل  
دهاء لديه رأى أكرم فائل وجود لديه حاتم الجود باخل  
وحلم لديه ركن يذبل ذابل وعزم لديه فارس الخطب راجل

(١) اليتيمة ٢ : ١٦٣

(٢) اليتيمة ٣ : ١٣٢

وقول ابن بابك في الصحاح بن عباد : (١)

مرقت منها وثرع الصبح مبتسم إلى أغر يرى المذخور ما وهبا  
ذو غرة كجبين الشمس لو برقت في صفحة الليل للحرباء لا تنصبا  
يا أغزر الناس أنواء ومحتلبا وأشرف الناس أعراقا وممتسبا  
أصبحت ذا ثقة بالوفر منك وإن قال العواذل ظن ربما كندبا  
إن المنى ضمننت عنك الغنى فأجب فالبحر يمنح فضل الري من شربا  
فحسن ظني بك استوفى مدى أمله وحسن رأيك لي لم يبق لي أدبا  
وهكذا كان الشعراء جنوداً مرتزقة كهؤلاء الجنديا يأمرون بأمر سادتهم  
من ولاية الأمور فيمدحونهم ويغنون في مدحهم ، ويلبون رغباتهم حتى ولو  
كانت تافهة ، وأى شيء أتفه من رغبة الصحاح في رثاء بردون أبي عيسى ،  
إذ أمر شعراءه أن يرثوه ويعزوا صاحبه ، فاستجابوا لرغبته ، وحبروا في  
رثاء هذا البردون قصائد طويلة زاخرة بالمعاني والعواطف التي تضحك  
الشكلي ؟ ١ . من ذلك قول أبي القاسم بن أبي العلاء : (٢)

عزاء وإن كان المصاب جليلا وصبراً وإن لم يغن عنك فتيلا  
وخفض أبا عيسى عليك ولا تقض دموعا وإن كان البكاء جميلا  
وراجع حجاجك الثبت لا يغلب الأسي أساك وإن حملت منه ثقيلا  
إلى أن يقول :

بكته جلال الخبز واتتجبت له مخالي حريز رحن منه عطولا  
أقام عليه آل عوج مائماً وأعلى له آل الوجيه عويلا  
ففى كل اصطبل أنين وزفرة تردد فيه بكرة وأصيلا

(١) اليتيمة ٢ : ١٩٦ (٢) نفس المصدر ٣ : ٥٧

وأخيراً نستطيع أن نقول إن هذه الظاهرة الأدبية التي تجلت في ازدهار الأدب الرسمي من رسائل ديوانية ومديح ماهي إلا أثر من آثار السياسة البويهية التي سخرت الأدب في خدمة أغراضها، وترويح دعايتها وتثبيت سلطانها .

\*\*\*

أما إذا جاوزنا هذا الأدب الرسمي الذي كان يستمد مادته من الأباطيل الممنقة والأكاذيب الملفقة غالباً فيصور الحالة السياسية والإدارية في عهد بني بويه تصويراً يجافي الحق والواقع، أقول إذا جاوزنا هذا الأدب إلى غيره ظهرت لنا الحقائق العارية من كل طلاء وتمويه، مجسمة في هذا الأسي الشديد لما أصاب الخلفاء على يد بني بويه من قبض ومصادرة، وفي هذه الشكوى المرة من جور حكامهم وقضاتهم، وفي هذا النقد اللاذع لسيرة عملهم وجبايتهم .

كل ذلك كان صدى لفساد أداة الحكم في دولتهم، وكل ذلك أيضاً كان رد فعل ومناقضة لأدبائهم الرسميين .

فقد كان آل بويه جشعين، يحبون المال حباً جماً، لهذا ساسكوا في جمعه والوصول إليه أوعر السبل وأشدّها عسفاً وظلماً، فلم يسلم من أيديهم تاجر ولا وزير ولا خليفة، فقد صادروا وزراءهم أحياء وأموالاً، وامتدت أيديهم إلى الخلفاء فصادروهم، صادروا المطيع والطائع ونهبوا دار الخلافة .

قال ابن الأثير : « فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فلما أدخل قبل الأرض وجلس على كرسي، فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه، وأخذ مافي دار الخليفة من الذخائر فمشوا به في الحال، ونهب

الناس بعضهم بعضاً .

وكان الشريف الرضى حاضراً في هذه الحادثة فسجلها في شعره ،  
إذ قال :

من بعد ما كان رب الملك مبتسماً إلى أدنيه في النجوى ويدنيني  
أسميت أرحم من أصبحت أغبطة لقد تقارب بين العز والهون  
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما كان بالضراء يبكي  
هيات أغتر بالسُلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين  
وقد بلغ من جشع آل بويه أنهم ضمنوا القضاء والحسبة والشرطة  
لقاء مال يتقاضونه من هؤلاء المضمنين كل عام .

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٥٠ : « تولى قضاء القضاء أبو العباس  
ابن عبد الله بن أبي الشوارب وضمن أن يؤدي كل سنة مئتي ألف درهم ،  
وهو أول من ضمن القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة وأُسمع بذلك  
قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول عليه وأمر بأن لا يحضر الموكب  
لما ارتكبه من ضمان القضاء ، ثم ضمنته بعده الحسبة والشرطة ببغداد » (١)  
ومن الطبيعي أن ينال الناس من أمثال هؤلاء القضاة والحكام حيف  
شديد فيتمذروا ويستغيثوا ، ومن الطبيعي أيضاً أن تظهر آثار هذا التذمر  
وهذه الاستغاثة في الأدب .

فهذا أبو بكر الخوارزمي يصف لنا في إحدى رسائله سوء سيرة  
حاكم فيقول : (١)

« فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدرهم  
ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الفار ، ولا يستخيرها المسلمون

(١) ان الأثير ٦ : ٣٦٠ (٢) رسائل الخوارزمي ص ٦٦



في السكفار، حتى افتقر الأغنياء وانكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته وجحد صاحب الغلة غلته وحتى نشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسل، وحتى أخرب البلاد بل أخرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا وحبب الفقر إلى أهل الغنى . . . وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله . . . والله ما الذنب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين . . . فإن كنا به معاقبين فقد تنقضى مدة العقاب وتحتم صيحة العذاب .

أما البديع فقد أرسلها صرخة استغاثة مدوية من الأعماق حين كتب في وصف أحد القضاة، فقال: (١)

« . . . يا لثارات القضاء، ما أرخص ما بيع، وأسرع ما أضيع . . . يا للرجال! وأين الرجال؟ ولي القضاء من لا يملك من آلاته غير السبال ولا يعرف من أدواته غير الاختزال . . . وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا على خزنة الأوقاف وكردى لا يغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العمود والشهود؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعاً وجبلة حتى أبغضتهم ديناً وملة . . . »

وكذلك أكثر الشعراء من نقد الحكام والقضاة والملوك وهجائهم، فمن

ذلك قول ابن سكرة الهاشمي في هجاء أبي السائب القاضي: (٢)

إن شئت أن تبصر أعجوبة من جور أحكام أبي السائب  
فاعمد من الليل إلى صرة وقرر الأمر مع الحاجب  
حتى ترى مروان يقضى له على علي بن أبي طالب

(١) رسائل البديع ص ١٦١ والمقامات ص ٢٠٧ (٢) المتظم ٧ : ٧٨٦

وقوله أيضا في هجاء القاضى الحسين بن محمد المطلبى : (١)  
ولقد جنى قاضى القضاة حسين نجل أبى الشوارب  
هذا الذى هتك الشرايع بالبدايع والمثالب  
هذا المضر للفروج وللدماء بغير راكب

ومن ذلك قول أبى الفرج على بن هندو فى هجاء ملك : (٢)  
لنا ملك ما فيه لملك آلة سوى أنه يوم السلام متوج  
أقيم لإصلاح الورى وهو فاسد وكيف أستواء الظل والعود أعوج ؟  
وقول ابن لنتكك البصرى :

أوما رأيت ملوك عصرك أصبحوا  
يتجملون بكل قاض أحق ؟

وكانت طريقة استخراج الأموال من الناس تعتمد على استعمال الوسائل  
القاسية كالقيود الحديدية الثقيلة فى الأرجل ، والضرب المتلف والتعليق  
من اليد الواحدة ، وغرز أطراف القصب فى الأظافر ، وقديمعن المطالبون  
فى التعذيب فيلبسون المعذنين جبة من صوف مدهون بالنفط أو بماء  
الأكارع ، أو يضعون على بطونهم أطسات الحجر ...

وقد ظهرت آثار هذه المظالم الوحشية فى الأدب فصورها الأدباء فى  
شعرهم . ولعل قصيدة أبى سعيد الرستمي هى خير ما يصور هذا الجانب من  
جوانب السياسة البويهية ، ولذلك آثرنا أن ننقل منها هذه الأبيات : (٣)

لولا زمان أزمئت حالى له نوب ترواح تارة وتغادى  
وأذى فراخ ضاق بى أوكارها وكذا البغاث كثيرة الأولاد

(١) الولاة للكندى ص ٥٤٦ (٢) خاص الخاص ص ١٦٧

(٣) البيهقي ٣ : ١٣٧ - ١٣٨

وأذى خراج لو سرى لأدائه  
أبدت نجوم الليل سود نجومه  
لى حصّة حصت جوانب هامتي  
ووفود سوء بألفون زيارتي  
رجالة مترادفون كأنما  
من كل منتفش الشوارب مسمع  
صهب اللحي سود الوجوه كأنما  
ما غاب عنى واحد إلا وبق  
هذا يواجه شاربي متهدداً  
ففرأى من خوفهم مملوءة  
وإذا أصادر غدوة لم يرتفع  
ما فى يد النقاد من ضربى سوى  
ثم يقول فى آخرها مخاطباً الصاحب:  
فامن على بفضل جودك واكفى  
دار الخراج وجهمة الحداد

أما اضطراب الأمن وانتشار أهل العيث والفساد فى البلاد فنترك تصويره  
للمذانى وحده إذ قال فى إحدى رسائله: «ولولا اختلاف السيوف والتقاء  
الجموع، واضطراب الجيوش، واختلال الأمور، وفساد الطريق، وتداول  
الملوك وما يتبع هذه الأحوال من الأهوال لاستقبلته بنفسى مئة فرسخ  
وبأصحابى مثله، لكن العوائق ظاهرة... إن الأمر على ما وصفت ولا

(١) الدأدى جمع الدأداء وهى الشديدة المظلة من الليالى .

(٢) الحصّة النصيب وحصت الشعر حلقة (٣) الرجل وجمعها أرجال القطعة

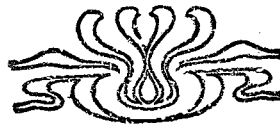
العظيمة من الجراد خاصة (٤) الفرصاد صبغ أحمر.

آمن - إن خرجت - عينا تطرق بسوء ويدأ تمتد بشره (١)  
ومما زاد الإدارة في عهد بني بويه سوءاً على سوء كثرة التولية والعزل  
من ذلك ما ذكره الشعالي: أن أحد الوزراء قلد ابن الججاج ناحية، فخرج  
إليها يوم الخميس وتبعه كتاب الصرف يوم الأحد فقال: (٢)

يا من إذا نظرت الهلال إلى محاسنه سجد  
وإذا رأته الشمس كما دت أن تموت من الحسد  
يوم الخميس بعثني وصرفتني يوم الأحد  
والناس غنوا على كما رجعت إلى البلد  
ما قام عمر في الولاية ساعة حتى قعد

\*\*\*

يتضح لنا مما تقدم مدى أثر السياسة البربرية في الأدب سلباً وإيجاباً،  
كما يتضح لنا أيضاً نجاح هذا الأدب في تصوير هذا الأثر تصويراً قوياً.



## الفصل الرابع أثر الروح الفارسية في الأدب البرهمنى

إن الأمة الفارسية - ككل أمة - كان لها تراث روحي يتمثل في هذه العادات والتقاليد والأخلاق التي مارستها ، وفي هذه الديانة ونظم الحكم التي خضعت لها ، ولما كان مثل هذا التراث الروحي وثيق الصلة بحياة الأمم النفسية ، أصبح من العسير عليها أن تتخلى عنه بين عشية وضحاها ، لهذا نراها بعد أن غلبت على أمرها في صدر الإسلام تحاول جهد استطاعتها أن تفصح عن تراثها الروحي في ظل الإسلام ، بحيث تسنى لها أن تلون الحياة السياسية والاجتماعية - لاسيما في عهد بني العباس - بألوان واضحة كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

بيد أن خضوع المجتمع للنموذ العربي كان يحد من نشاط الفرس ويحول بينهم وبين ممارسة ذلك التراث القومي القديم كما يحبون ، فلما استردوا سلطانهم السياسي والاجتماعي في القرن الرابع تهيأ لهم أن يعبروا عن ميولهم ورغباتهم بحرية كاملة .

ولقد ظهر ذلك في ميلهم إلى إحياء الرسوم الفارسية القديمة في الحكم كتقديس الملوك وتأليبهم لاعتقادهم بأن « الملك ملهم يستمد أحكامه من الآلهة » (١) ، وفي حبهم الفخفخة والأبهة ، وإحاطة أنفسهم بمظاهر العظمة والإجلال ، لهذا تلقب ملوكهم بأضخم الألقاب التي تشعر بالتجرؤ على مقام الألوهية (٢) . ثم تبعهم في ذلك رجال الدولة فتهافتوا على الألقاب

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٢٩ (٢) الحضارة الإسلامية ١ : ٤٢

تفاوتاً شديداً ، مما حمل الخوارزمي على أن يقول في ذلك أبياته  
المعروفة :

مالي رأيت بنى العباس قد فتحوا من السكنى ومن الألقاب أبوابا  
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحش بوابا (١)  
قل الدراهم في كفى خليفتنا هذا فأنفق في الأوقام ألقابا

وظهر ذلك أيضاً في إحيائهم ليلة الوقود التي تعرف بالسندق ، وفي  
تشجيعهم الأعياد الفارسية التي تسربت إلى المجتمع الإسلامي قبل هذا  
العصر .

فقد أصبح من رسوم ملوكهم في ليلة الوقود أن يوقدوا النيران  
ويؤججوها ويرسلوا الوحوش فيها ، ويطيروا الطيور في لهبها ، ويشربوا  
ويتلهوا حولها ، وكانت أشهر ليلة وقود في القرن الرابع عام ٣٢٣ ، ففى  
هذا العام أمر مرداويج الفارسي ، فجمعت له الأحطاب من الجبال والنواحي  
البعيدة وأعدت الشموع العظام وعمل بمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كبيرة  
من الشمع ، وحشد على رؤس الجبال واليفاعات ما لم تجر العادة بمثله ، فلما  
خرج وطاف بذلك استحققه كله واستصغره (٢) . . . ثم أصبح الاحتفال  
بهذه الليلة عادة لمن جاء بعده من الملوك والأمراء .

كل ذلك قد تأثر به الأدباء فانعكس أثره في إنتاجهم الأدبي . فنحن  
إذ نقرأ الآثار الأدبية التي أنتجها أدباء هذا العصر نلمس فيها آثار الروح  
الفارسية واضحة كل الوضوح ، نلمسها واضحة في هذا الغلو الذي ساد شعر  
المديح وشعر الرثاء مثلاً ، وفي هذا الإكثار من شعر التهاني بالأعياد  
الفارسية ووصفها ، وأخيراً في هذه النزعة الفارسية التي ظهرت في شعر شاعر

(٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ٣٣

(١) الحش : البستان

كهيبار الديلي الفارسي .

لقد كان الشعراء في هذا العصر يغزلون ويسرفون في الغلو حينها يمدحون ويرثون ، وهم في غلوهم هذا إنما كانوا يستوحون النزعات المتطرفة عند الملوك والأمراء والوزراء ، ولهذا نراهم يحاولون جهد المستطاع أن يرضوا بمدوحهم بضروب من المعاني والصفات الغالية ، وبخاصة تلك التي تجعل منهم أشخاصاً فوق مستوى البشر .

فإلصابي حين يمدح عضد الدولة ، تضيق به اللغة ، ألفاظها ومعانيها، فلا يجد أمامه متسعاً من القول إلا القرآن الكريم يغير على ألفاظه ومعانيه فينظمها مديحاً لمولاه : (١)

صل ياذا العلاء لربك وانحر كل ضد وشانء لك أبت  
أنت أعلى من أن تكون أضاحي لك قروما من الجمال تعفر  
بل قروما من الملوك ذوى السؤ دد تيجانها أمامك تنثر  
كلما خر ساجداً لك رأس منهم قال سيفك : الله أكبر ا

إنه لكلام اقتبس من كلام الله مبنى ومعنى ، وإنه لكلام يرضى نزعة عضد الدولة إلى الطغيان والجبروت ، إذ يرفعه فوق البشر فيجعل منه شديها للنبي الكريم ، بل شبيهاً لله عز وجل حين تخر له هذه الرؤس سجداً وحين ينطق هذا السيف الله أكبر ا

وليس هذا بالأمر الغريب فعضد الدولة نفسه يقول : إنه ملك الأملاك وإنه فاق البشر ، وإنه غلاب القدر أيضا .

قال الثعالبي : « واخترت من قصيدته التي فيها البيت الذي لم يفلح بعده أبداً قوله . » (٢)

(١) اليتيمة ٢ : ٥٦ (٢) نفس المصدر ٢ : ٤

ليس شرب الكأس إلا في المطر وغناء من جوار في السحر  
غانيات سالبات للنهي ناغيات في تضاعيف الوتر  
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر  
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر

وإذا كان الصابي قد شبه بمدوحه بالنبي مرة ، وبالآله أخرى تشبيها فإن  
أبا القاسم الزعفراني قد ادعى لممدوحه الربوية ، فدان له بالسجود وأحله  
من قلبه مكانا لا يشاركه فيه أحد وذلك حين يقول : (١)

يا سامع الزور فيّ لي ذمم منها الضنى في هواك والسقم  
أنت الذي دنت بالسجود له حتى لقد قيل ربه ضم  
ولي فؤاد غدوت مالسك بلا شريك فليس ينقسم  
وقد يطول بنا الكلام إذا نحن استرسلنا في ضرب الأمثال فهي أكثر  
من أن تحصى ، ولما كنا نسكتفي بثلاثين اثنين مما أنتجته مدرسة صاحب القلم  
كانت أشد المدارس الأدبية ميلا إلى الغلو والمبالغات .

الأول في مدح صاحب حين بنى داره وهو من قصيدة أبي سعيد

الرستمي : (٢)

ولو أصبحت داراً لك الأرض كلها لضاقت بمن ينتاب دراك أملا  
عقدت على الدنيا جداراً فحزمتها جميعا ولم تترك لغيرك طائلا  
وأغنى الوري عن منزل من بنت له معاليه فوق الشعريين منازل  
ولا غرو أن يستحدث الليث بالشري عرينا وأن يستطرف البحر ساحلا  
ولم يعتمد داراً سوى حومة الوغى ولا خدما إلا القنا والقنابلا (٣)

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٧٢ (٢) يتيمة الدهر ٣ : ٤٨

(٣) القنابل الطوائف من الخيل



ولا حاجبا إلا حساما مهنداً ولا عاملا إلا سنانا وعاملا  
ووالله ما أرضى لك الدهر خادماً ولا البدر منتابا ولا البحر نائلا  
ولا الفلك الدوار داراً ولا الورى عبيداً ولا زهر النجرم قبائلا  
والثانى فى رثاء الصاحب ، وهو من قصيدة أبى القاسم بن أبى العلاء  
الأصبهاني ، إذ يقول فيها :

يا كافي الملك ما وفيت حظك من وصف وإن طال تأمين وتمجيد  
فت الصفات فما يرثيك من أحد إلا وتزيينه إيباك تهجين  
ما مت وحدك لكن مات من ولدت حواء طراً بل الدنيا بل الدين  
هذى نواعى العلاء مذمت نادبة من بعد ما نديتكم الخرد العين  
تبكي عليك العطايا والصلوات كما تبكي عليك الرعايا والسلاطين  
قام السعاة وكان الخوف أقدمهم فاستيقظوا بعد ما مت الملاعين

لا يعجب الناس منهم إن هم انتشروا

مضى سليمان وانحل الشياطين

قال الثعالبي : « ما أحسن هذا المثل وأمكن موقعه ! »

وكما تأثر الأدباء بالميول الفارسية المتطرفة كذلك تأثروا بالأعياد الفارسية  
فأكثروا من تهنئة الملوك والوزراء والوجهاء بها ، فمن ذلك قول عبد العزيز  
ابن يوسف من عضدية :

أسعد بوafd نيروز تقابله باليمن والعز والتأييد والجذل  
واستأنف العيش مسروراً مجده فى ظل عز - مدى الأيام - متصل

على أن ليلة الوقود كانت أحب هذه الأعياد إلى قلوبهم وأثرها عندهم ،  
فقد فتنتهم مناظر نيرانها المتأججة وسط الظلام ، يتعالى دخانها ، ويتطاير  
شررها فى الفضاء وتضطخب حولها الملامى ويسكر الضجيج ، فأكثر

من وصفها ومن وصف الطبيعة في جوها ، فالسلامى قد أعجب بهذه النار  
واستولى عليه هذا الإعجاب حتى حجب إليه عذاب النار ، وحتى أقسم أن  
يجعل أنفـس أعضائه وقوداً لها إذا ما خبت : (١)

ما زلت أشتاق ناراً أوقدت لهما حتى ظننت عذاب النار قد عذبا  
يعلو الدخان بسود من ذوائبها قد عط فيها قناع التبر وأستلبا (٢)  
قد كلكت عنبراً بالمسك بمنزجها وطوقت جلناراً واكتست ذهبها  
فالنور يلعب فى أطرافها مرحا والخمر يرعد فى أكتافها رهبا  
وطار عنها شرار لو جرى معه برق دنا أو تلقى كوكبا لكبا  
لو كان وقت نثار خلته درراً أو كان وقت انتصار خلته شهباً  
والليل عريان فيه من ملابسه نشوان فدشق أنواب الدجى طرباً  
أقسمت بالطرف لو أشرفت حين خبت

جعلت أنفـس أعضائى لهما حطباً  
وربما كان مهبـار الديلى الذى أسلم بعد مجوسية عام ٣٩٤ أشد شعراً  
هذا العصر عصبية للقومية الفارسية ، فديوانه الكبير يكاد يكون كله فى  
التهانى بهذه الأعياد والافتخار بآثار الفرس والتعصب لهم .

فهو حين يمدح شاهنشاه جلال الدولة ويهنئه بهيد المهرجان ، يتخذ من  
ذلك وسيلة لتذكيره بمجد الأكامرة المندثر ، إذ يقول : (٣)

وعاد المهرجان بخفض عيش يرف على ظلاله الصفاق  
هو اليوم ابتداء أبوك كسرى وشديد من قواعده الوثاق  
وشق له من اسم الشمس وصفها يطول به صحيح الاشتقاق

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٧٣ (٢) عط شق

(٣) ديوان ميار ٢ : ٣٤٩

وأسـلاه عن الإيوان بقيـما مقام العـز في هذا الرواق  
وهو حين يخلو إلى نفسه فيفكر في هذا الملك الفارسي العريض ، يغمره  
شعور عنيف بالعزة القومية ، يدفعه إلى الفخر والغناء دفعا فيقول: (١)  
أعجبت بنى بين نادى قومها « أم سعد » فضت تسأل بي  
سرها ما علمت من خلقي فأرادت عليها ما حسبي  
لا تخالى نسبيا يخفضنى أنا من يرضيك عند النسب  
قومي استولوا على الدهر قى ودهشوا فوق رؤوس الحقب  
عمموا بالشمس هامانهم وبنوا أبياتهم بالشهب  
وأبى كسرى علا إيوانه أين فى الناس أب مثل أبى ؟  
قد قبست الحمد من خير أب وقبست الدين من خير نبى  
وضممت الفخر من أطرافه سوودد الفرس ودين العرب

إنها أغنية من أغاني الفخر ، ونفثة من نفثات الروح القومي المتوثب ،  
يرسلها شاعر فارسي مغمور بنشوة الانتصار على الخصم ، مسرور بهذا  
السلطان الذى عاد بعد طول اندثار غضا جديداً وهو لهذا ينكر ما للعرب  
من عز ومجد ، فلا يعترف لهم إلا بهذا الدين ، زاعما أن أباه خير الآباء ،  
وأن مجده خير الأجداد .

ذلك هو أثر الروح الفارسي فى الأدب ، ترى هل كان له صدى سيء فى  
نفوس الأدباء ، كما كان للأدب الرسمي صدى سيء فى نفوسهم ؟ وهل  
صوروا ذلك فى أدهم ؟

والجواب على ذلك لا بد أن يكون بالإيجاب ، ذلك أن هذه البلاد  
ببإلغى من خضوعها للسلطان الفارسي لم تخل من عناصر إسلامية وعربية

(١) ديوان مهيار ١ : ٦٤

ها تزال مخصصة لإسلاميتها وعروبيتها وتقاليدها ، فمن الطبيعي أن يشير هذا الروح القومي الفارسي الوثني الذي أخذ يلون الحياة الأدبية والاجتماعية سنخط هذه العناصر على الفرس وتقاليدهم ، فينبرى بعض أدبائها للدفاع عن الإسلام والعرب والإشادة بتقاليدهما ، فيجرهم ذلك إلى هجاء الفرس والنيل من ديانتهم وأعيادهم وتقاليدهم ، نلاحظ صدى ذلك في أدب بديع الزمان الهمداني الذي كتب رسالة طويلة في « معنى السدق » تعصب فيها للعرب والإسلام على الفرس والمجوسية تعصبا مقرونا بحماس شديد ، نقتطف منها هذه العبارات على سبيل التمثيل : (١)

« نحن - أطال الله بقاء الشيخ - إذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الأمم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ولم ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس وأنعم منها مطاعم... واسكننا نقول : العرب أوفى وأوفر وأوقى وأوقر وأنكى وأنكر وأعلى وأعلم وأحلى وأحلم وأقوى وأقوم..... وإنما قدم الله ملك العجم ليحتج عليها وإنما أخرج ملك العرب ليحتج بها ، وما ملكت العجم حتى تواصلت وما ملكت العرب إلا حين تصاولت ، إلى أن يقول :

« إن عيد الوقود لعيد إفك ، وإن شعار النار لشعار شرك ، وما أنزل الله بالسدق سلطانا ، ولا شرف نيروزاً ولا مهرجاناً ، وإنما صب الله سيوف العرب على فروق العجم لما كره من أديانها وسنخط من نيرانها ، ثم يقول :

« فلا وقدت نار المجوس ، والله ما أقول ذلك إلا غيرة على نعمته وشفقة على خطته ، إن أجد الله تعالى يمقت من بحر البحيرة وسيب السائبة . . . »

( ١ ) وسائل الهمداني ص ٢٧٩ ( شرح الأحادب الطرابلسي )

فالنار أولى بأن يمقت شارعها وهي معبودة ، وإنما جعل الله تعالى النار تذكرة ومتاعاً ولم يجعلها ودأ وسواعاً ، ولم يضرب الله تعالى لها عيداً ولم يجعلنا لها عيداً . . . الله والنبي ، والعيد العربي والتكبير الجهير وتلك الجماهير والملائكة بعد ذلك ظهير . . . ذلك لا ما شرع الشيطان لأوليائه ، نار لديهم تشب ولعنة عليهم تصب وخمرة متاعها قليل وفي الآخرة خمارها طويل ، هذا هو العيد ، وذلك هو الضلال البعيد .

وإذا كان هذا أثر الروح الفارسي في نفس البديع ، فإن آثاره في نفس شاعر عربي كالشريف الرضي كانت أبعد وأعمق من ذلك بكثير ، فهذا الروح الفارسي الذي ساد المجتمع البويهبي آنذاك قد حمل الشاعر على أن يتعلق بقوميته العربية تعلقاً شديداً ، يدلنا على ذلك كثرة أصدقائه من أعراب البادية وأمرائها ، ورتاؤه لهم ، وحنينه الشديد إلى الوطن العربي الأول في الجزيرة ، ووقوفه على أطلاله ، وافتخاره بالإسلام وقوته على الفرس وإكشاره من تهنئة والده بالأعياد الإسلامية كعيد الفطر وعيد الأضحى .

لقد كان الشريف ضيق الصدر بالحياة البغدادية ، يتمنى لو استطاع هجرها ولهذا تراه يهتف بقومه ويحن إليهم كلما ضاقت به الحياة على ضفاف دجلة ، حنين الغريب إلى أوطانه : (١)

أحن إلى قومي كما حن نازع إلى الماء قد داني له القيد قاصر  
تذكر جونا بالبطح تلفه بمنتصد الدوح الغمام المواطر  
وجنت عايه ليلة عقريه لها سائل في كل واد وقاطر  
إلى أن يقول :

(١) ديوان الشريف ١ : ٤١١

وما غير دار المرء إلا مذلة ولا غير قوم المرء إلا فواقر  
وأخليت من قلبي مكاناً لذكرهم وقد يذكر البادي وتنسى الحواضر  
وتراه إذا مر بالحيرة ذات يوم، عاودته الذكرى المؤلمة، ذكرى آل  
المنذر، فيخطب أطلائهم ويقول: (١)

أين عقبانك الخواطف حلقه ن وأبقين عندك الأوكارا  
ورجال مثل الأسود مشوا فيك تداعوا قوائماً وشفاراً  
حينذا أهلك المحلون أهلاً يوم بانوا وحينذا الدار دارا  
لم يكونوا إلا كركب تآنى برهة في مناخه ثم سارا  
وتراه أيضاً إذا اجتاز بالمداين ووقعت عينه على إيوان كسرى، أخذته  
نشوة الاعتراز بالماضى المجيد، فاندفع مفتخراً بالإسلام وقوته على الفرس  
وقال: (٢)

سل يقوم نزل الدهر بهم فأساء اللبث فيهم والجوارا  
لم تكن عباؤهم منحولة أهد الدهر ولا المجد معاراً  
ضرب المجد عليهم بيته وغدوا دون حمى المجد إطاراً  
قد نزلنا دار كسرى بعده أربعا ما كن للذل ظواراً  
تصف الدار لنا قطانها المعالي والمساعي والنجاراً  
وإذا لم تدر ما قوم مضوا فسل الأثار واستنب الديارا  
آل ساسان حدا الخطب بهم واسترد الدهر منهم ما أعار

\* \* \*

(١) ديوان الشريف ١ : ٣٩٣ ، (٢) نفس المصدر ١ : ٣٧٢

ولسكن أهذا هو كل أثر الروح الفارسية السىء فى نفس الشريف؟ الم  
نصف هذا الأثر السىء بالبعد والعمق قبل قليل؟ فإذا كان هذا الأثر فى نفس  
الشريف بعيداً وعميقاً حقاً فأين إذن صدهاء فى شعره؟

ليس من العسير إذا ما كلفنا أنفسنا قراءة الأدب البويهى، أن نظفر  
بالجواب على هذه الأسئلة، فنحن إذ نقرأ هذا الأدب لانجد شاعراً واحداً  
من شعراء العصر البويهى الحقيقين من عالج شعر الحماسة والحرب والفخر  
على نطاق واسع غير الشريف الرضى، ذلك أن حياة هؤلاء الشعراء الحضرية  
المستقرة لم تعد تستسيغ حماسة فى خصام، أو نغراً بانتصار، أو  
اعتزازاً بنسب.

أما الشريف الرضى فقد كان على العكس من هؤلاء جميعاً، إذ ملأ  
ديوانه بشعر نائر صاحب بحيث يخيل إلى قارئه أن صاحبه كان بدوياً، يخوض  
المعارك ويحدو العيس فى فيانى نجد ومرتفعات الحجاز، وليس حضرياً يقيم  
فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى.

ترى ماذا نقول فى تعليل هذا الشعر؟

من السهل جداً أن نقول: إنه متكلف، مصنوع، وإنه تقليد واحتذاء  
لأساليب القدماء فى الشعر، فليس فى حياة الشريف الخاصة ما يدل على أنه  
كان محارباً يخوض غمرات القتال، ويقوم بالأعمال الجسام التى تحمله على هذا  
الجس العنيف والفخر المتطرف.

ولسكننا نظلم الشاعر، ونجور على الحق، إن تعجلنا فى الحكم عليه وعلى  
شعره قبل أن نتروى وتندبر ما كان يحيط به من ظروف، فقد يكون هذا  
الشاعر نائراً حقاً، وقد يكون متحمساً حقاً، وقد يكون له من ظروف حياته  
الخاصة وحياة طبقته « المنحلة » ما يجعله صادقاً فى هذه الثورة وهذا الجس

ولو كان ذلك في عالم الحلم والخيال . فليس من الضروري ان يكون الشعر تصويراً لأحداث واقعية ترى رأى العين وتلمس لمس اليد ، بل هو إحساس وانفعال بالأحداث وتصوير لهذا الإحساس والانفعال سواء كان ذلك في الماضى أم في الحاضر أم في المستقبل .

أريد أن أقول إن شعر الشريف الرضى فى أكثر أغراضه كان يمثل ظاهرة أدبية قائمة بذاتها تهدف إلى تصوير ما كان يحتلج فى نفوس طبقة معينة من آلام وآمال ، وأعنى بهذه الطبقة ، أولئك العرب المغلوبين على أمرهم فى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، فقد كانوا ينظرون إلى الحاضر وما أصابهم فيه على يد الأعاجم من فشل وإخفاق ، فيجزعون ويأملون ، وكانوا يتطلعون إلى المستقبل فتداعبهم الأحلام بالظفر والنجاح فيطمعون ويأملون .

فشعر الشريف - أو أكثره - على هذا الأساس كان يفتح عن أهواء حقيقية هى أهواء طبقة قد تأخرت وتدهورت واضمحلت فى مضمار الحياة ، حتى سبقها من كان أقل منها شأنًا ومرتبة ، وليس عجباً بعد ذلك إذا ثارت وإذا تحمست ، وإذا حنت إلى وطنها الأول ، فعبرت عن هذه الثورة وهذا الحماس والحنين بشعر يذكر بالماضى المجيد . ويقوى الثقة بالمستقبل المجهول على لسان شاعر عربى كالشريف الرضى .

وإنك لتستطيع أن تلمس ذلك واضحاً كل الوضوح إذا قرأت ديوان الشريف ، فهذا القدر الصخيم من شعره فى الحماسة والفخر والحرب يدلك على أن الشاعر كان يحدث نفسه بالمعالى ويلج عليها فى هذا الحديث ، لاسيما إذا عرفت أنه كان يعيش فى عصر وصل فيه إلى أعلى المناصب فى الدولة من هو أقل منه نسباً وحسباً وكفاية ، بل لقد وصل فيه إلى الوزارة من كان



طباخاً وإلى الملك من كان محتطب ويحمل الخطب على رأسه ، فلا تعجب  
إذن ، إذا ما رأيت الشريف الرضى يحدث نفسه بالخلافة أو الملك أو  
الوزارة فيردد هذه الأمنية كثيراً في شعره متحمساً ومفتخراً كقوله :

سأمضى للتي لا عيب فيها وإن لم أستفد إلا عناء  
وأطلب غاية إن طوحت بي أصابت بي الحمام أو العلاء  
أنا ابن السابقين إلى المعالي إذا الأمد البعيد ثنى البطاء  
إذا ركبوا تضايقت الفيافي وعطل بعض جمعهم الفضاء  
نماني من آباء الضميم نام أفاض على تملك الكبرياء

ولهذا تراه يقف حياته على هذه الأمنية فيعد لها العدة ويرسم لها  
الخططة ويوطد لها العزم ويعزف من أجل ذلك كله عن حياة اللهو والعبث ،  
وينصرف إلى حياة الجد والسكفاح ، إلى حياة الضرب والحرب وركوب  
الأخطار فينشده هادراً كما يهدير الفحول :

ومالي عند البيض يا قلب حاجة وعند القنا والخيل والليل مطلب  
أحب خليلي الصفيين صارم وأطيب داري الخباء المطنب  
ولى من ظهور الشدقيات مقعد وفوق متون اللاحقيات مركب  
لثامى غبار الخيل فى كل غارة وثوبى العوالى والحديد المنذب

ولسكن الأيام تمر وهو ما يزال فى دور التنى والحماس ، فلا الفرصة  
تواتيه ولا النفس تطاوعه على الإقدام فيشعر بالخيبة والخذلان فيستجمع  
قواه وينفجر متحمساً :

إلى كم ذا المتردد فى الأمانى وكم يلوى بناظرى السراب  
ولا نقع يثار ولا ققام ولا طعن يشب ولا ضراب  
ولا خيل معقدة النواصى يموج على شكائهما اللعاب

حتى إذا ينس من النجاح في الحياة الواقعية جنح إلى الوهم والخيال فخلق  
لنفسه جيشاً جراراً أغار به على الأعداء في غلس الفجر فغنم الأموال  
وسبي النساء ، وذلك حين يقول :

نبيتهم مثل عوالي الرماح إلى الوغى قبل نوم الصباح

\* \* \*

فوارس نالوا المنى بالقنا وصافحوا أغراضهم بالصفاح  
لغارة سامع أنبائها يغص منها بالزلال القراح  
دونكم فابتدروا غنمها دى مباحات ومال مباح  
فإننا في أرض أعدائنا لأنطأ العذراء إلا سفاح  
ولكن من أين أتى الشريف بهذه الجيوش؟ إنه أتى بها أو سيأتى بها  
من موطن الآباء ، من الحجاز فاستمع إليه حين يقول :

ورب ركائب من نحو أرضى تحب إليك بالعجب العجاب  
وتظهر أسرة من سر قومي تمد إلى انتظاري بالرقاب  
فكيف إذا رأيت الخيل شعماً طلعت من المخارم والعقاب  
عليها كل أبلج من قریش لبيق بالطعان وبالضراب  
يسير وأرضه جرد المذاكي وجو سمائه ظل العقاب  
وعندي للعدي لا بد يوم يذيقهم المسمم من عقابي  
فأنصب فوق هامهم قدوري وأمزج من دماهم شرابي  
وأركن في قلوبهم رماحي وأضرب في ديارهم قبابي  
فإن أهلك فعن قدر جرى وإن أملك فقد أغنى طلابي

أهي جيوش حقا ، تلك التي يتحدث عنها الشريف في شعره؟ أهي خطط  
حربية واقعية حقا؟ لا ، إنها أمان وأحلام ، إنها أفكار ملحة ورغبات

عنيفة كانت تجول في مخيلة الشاعر - كما جالت في مخيلة المتنبي - من قبل - فأقضت مضجعه وأرقت عينه ولهذا تراه يدفع نفسه إلى اقتحام الأخطار وركوب الأهوال تارة بالإغراء ، وأخرى باللوم والتعنيف :

يا نفس من هم إلى هممة      فليس من عبء الأذى مستراح  
قد آن للقلب الذي كده      طول مناجاة المني أن يراح  
يطمح من لا يجد يسمو به      إنى إذن أعذر عند الطراح  
وخطة يضحك منها الردى      عسراء تبرى القوم برى القداح  
صبرت نفسى عند أهوالها      وقلت من هبوتها لا يراح  
إما فستى نال العلا فاشفى      أو بطل ذاق الردى فاستراح

أرأيت كيف كان الواقع المؤلم يحز في نفس الشريف فيثيره ويهيجه ؟  
حقاً إنه لمن سخرية القدر أن يتقدم الشريف في موكب الحياة من لا يجد له ولا  
حسب كمجد الشريف وحسبه ! وإذن فهو معذور إذا ما فكر في خطة تعيد  
إلى هذا العنصر العربى ما فقد من سيادة وسلطان ، وهو معذور أيضاً إذا  
ما حدث نفسه بالمغامرة في سبيل المجد .

إلى هنا والأمور تسير وفق ما يشتهى الشريف لأنها تجرى في ميدان فسيح  
من الخيال ، بعيد عن عالم الحقيقة ، إذ ليس هناك من يقف في طريق صاحبها  
طالما هو يفسكر ويتخيل فيما بينه وبين نفسه ، واسكنه إذا حاول أن يبرز  
هذه الأفكار إلى حيز الوجود تراءت له العوائق والموانع السياسية والاجتماعية ،  
إذ لم يكن هناك ، في تلك البيئة العراقية ، من يعطف على العرب أو حتى على  
هذا البيت الهاشمى المقدس ، فالخلفية العباسى محجور عليه ، والعنصر العربى  
ضعيف ، متفسخ ، والملوك والوزراء والقادة والجند كانوا جميعاً من عناصر  
أعجمية . ومن هنا ينطوى الشريف على نفسه إذ عز النصير وقل المعين ،

فإذا هو تهب للهوا جس والالام « فيذوب كهدأ ويفنى وجدأ ، كما يقول ابن أبي الحديد ، وتهن أعصابه ويشتعل منه الرأس شديباً وهو ما يزال في ربيع العمر .

وطبيعي جدأ ، بعد هذا ، أن تنبو بالشريف أرض العراق فيجتويها بعد أن يثس من أهلها عرباً وعجماً ، وطبيعي جدأ أيضاً أن يتعلق بقوميته العربية فيحن إلى وطنها العربي الأول ، إلى نجد والحجاز ، فيجعلهما مصدر وحيه وإطامه بدلا من بغداد ، فتراه يكلف بالبادية وبمظاهرها كلفاً شديداً ، فالبرق يهبجه ، والظلل يصديه ، وحنين العيس يبكيه .

اقرأ هذه الآيات - وإن شئت فقرأ غيرها في الديوان - فإنك واجد فيها ما يدل دلالة قوية على وجود صلة روحية بين الشاعر وبين مظاهر تلك البيئة البدوية :

أيا لله أي هــوى أضاء	بريق بالطويلع إذ تراه
ألم بنا كنبض العرق وهنا	فلما جازنا مـلأ السماء
طربت إليه حتى قال صبحي	لأمر هاج منك البرق داه
أبت لي صبوتي إلا التفاناً	إلى الدمن البوائد وانثناء
خليلي اطلقنا رسني فإني	أشدكيا على عزم مضاه
فإن تريا إذا ما سرت شخصي	أمامكما فلي قلب وراء
وربت ساعة حبست فيها	مطايا القوم أمنعها النجاء
على طلل كتوشيع اليماني	أمح فخالط البييد القواء
فيألى منه يصبني أنيقاً	بساكنه ويبيكني خلاء
أنادي الركب دونكم ثراه	لعل به لدى دام دواه
تساقينا التذكر فأنثينا	كأنا قد تساقينا الطلاء

وعجنا العيس توسعنا حينئذ تغنيننا ونوسعها بكاء  
وتراه أيضاً - وقد نبت به أرض العراق - يعشق الحجازيات  
والنجديات ويهيم بهن فيلهمنه هذا الغزل الرقيق العذب النزيه الذى نفس  
فيه عن نفس أضنتها الأيام وأزعجتها الأحلام ، فلم تعد ترى فى هذا  
الوجود إلا ما يؤلم ويؤذى . ومن هنا كان هذا الغزل حسرات وآهات  
وزفرات ملتببة ، يجد فيه المنكوبون والمحطمون على صخرة الواقع ظلال  
نفوسهم وأشباح رؤاهم فيهتزون ويتأثرون من الأعماق. اقرأ معى هذه  
القطعة ثم تمنع فيها :

أيها الرائح المغند تحمل حاجة للعذب المشتاق  
اقر عني السلام أهل المصلى فبلاغ السلام بعض التسلاقي  
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد أن قلبي إليه بالأشواق  
وإذا ما سئلت عني فقل نضو هوى ما أظنه اليوم باق  
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومنى عند بعض تلك الحداق  
وابك عني فطالما كنت من قبل أعير الدموع للعشاق

ألا تصلح هذه القطعة عزاء لهؤلاء المعذبين فى الأرض ؟ ألا ترى فيها  
بلسماً لهذه القلوب الجريحة التى برح بها الشوق والوجد ؟ ألا ترى فيها  
نشيدهاً لهؤلاء الذين ذهب نفوسهم حسرات إثر من يحبون ؟ وأخيراً ألم  
تهج الدموع فى عينيك إن كنت من العشاق ؟ كذلك كان غزل الشريف  
الرضى يصلح لكل زمان ومكان لأنه يحوى قدراً مشتركاً من العواطف  
والأفكار .

بعد هذا كله أستطيع أن أقول ، إن فشل الشريف السياسى هو الذى  
حمل الشريف على أن يقول شعراً فى الحماسة وفى الفخر وفى الحرب ، وعلى

أن يتغنى ببلاد العرب موطن آبائه الأولين ، فكان تتاجه الأدبي من أجل ذلك بدوياً غريباً بين نتاج أدباء العصر البويهى .

أريد أن أقول إن الشريف كان ينظر إلى الحاضر المؤلم ، حاضر العرب في هذه البلاد ، فتأخذ اللوعة والحسرة على ماضٍ مجيد ، قد اندثر واحي على يد الأعاجم فيتحمس ويشور ، ثم يصطدم بالواقع القاسى فتفتقر قوته وتخور ، فيفصح عن ثورته الجارحة بهذا الشعر الحماسى والفخرى ، وعن ضعفه وفتوره بهذا الغناء الحزين ، بالبكاء على الطلول والدمن وبالغزل الرقيق وما إلى ذلك من فنون الشعر البدوى القديم ، ولعلك ، بعد هذا ، تستطيع أن تدرك السر في عدم تأثر الشريف بديئته العراقية كما تأثر بها معاصروه من أدباء العصر البويهى . وكذلك تستطيع أن تعرف السبب الذى من أجله كان مهيار الديلبى بدوياً في مقدمات قصائده وبخاصة إذا عرفت أنه كان تلميذاً للشريف وأنه كان وفياً مخلصاً لأستاذه أشد الوفاء والإخلاص وأنه كان مقلداً له في مذهبه الفنى تقليداً أعمى .

كذلك يجب أن نعلل هذا الشعر البدوى فى ديوان الشريف ، نعلله بأنه تيار أدبى يصور حياة طبقة منحلة قد فشلت فى حياتها السياسية والاجتماعية فدفعها هذا الفشل إلى الخروج من الواقع المحسوس إلى عالم الوهم والخيال .

وإذا عرفنا أن مصدر هذا الفشل الذى أصاب الشريف وغيره من أبناء طبقته هو تلك الطبقة الحاكمة من الفرس ، جاز لنا أن نقول إن شعر الشريف ما هو إلا ثمرة من ثمار هذا العهد الفارسى وإلا صدى من أصداة الروح الأعجمى الذى ساد المجتمع البويهى آنذاك .

## أفضل النماذج

### أثر التشيع في الأدب البويهي

ومن الظواهر الاجتماعية التي شجعتها السياسة البويهية وأيدتها ظاهرة التشيع ، فقد قويت هذه الظاهرة وازدهرت في هذا العصر فكان لها أثر واضح في الحياة الأدبية . وذلك أن بني بويه كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ، فنصروا المذهب الشيعي وأيدوه - كما مر بنا - حتى إنهم هموا أن ينقلوا الخلافة من بني العباس إلى أولاد علي لولا أن الصيمري قال لمعز الدولة حينما أراد أن يبايع محمد بن يحيى الزيدى العلوي : « إذإ بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان ، وأطاعه الديلم ورفضوك ، وقبلوا أمره فيك ، وبني العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مراراً وتمرض تارة وتستقل أطواراً لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ ، فعدل معز الدولة عن تعويله، (١)

والظاهر أن التشيع لم يصبح في هذا العصر مذهباً سياسياً يهدف إلى استرداد الخلافة من غاصبها كما كان في أول عهده فحسب ، بل اتسع معناه كثيراً ، وبخاصة بعد ما تأثر بعقائد الفرس الموروثة فأصبح ستاراً لبعض البدع الدينية فالإسماعيلية، والقرامطة، والقائلون بالتماسخ، والذين يؤهلون علياً، كل هؤلاء كانوا يتخذون من التشيع ستاراً ، فيظفرون برعاية البويهيين ومساعدتهم .

(١) حاشية ابن الأثير ٦ : ٣١٥

يحكى أن الوزير المهلبى ظفر بقوم يزعمون أن روح علي بن أبي طالب وروح فاطمة قد انتقلت إليهم فحبسهم ، ولسكنهم التجأوا إلى أهل البيت فأمر معز الدولة بإطلاقهم ، فلم يكن من الوزير إلا أن يذعن لمشيئته خوفاً من أن يتهم بالميل عن التشيع . (١)

ويروى ابن الأثير أيضاً أن القرامطة حينما قصدوا الشام لمحاربة جعفر ابن فلاح ، أرسلوا إلى عز الدولة بختيار ، يطلبون إليه المساعدة بالمال والسلاح فأجابهم إلى ذلك . (٢)

على أن البويهيين قد ذهبوا في نصرتهم لهذه المبادئ إلى أبعد من ذلك حينما سمحوا للقرامطة بأن يعينوا لهم نائباً في بغداد يتحكم بحكم الوزراء . (٣) ومهما يكن فقد شجع البويهيون التشيع بأوسع معانيه ، ذلك أن نشاطهم في هذا الميدان لم يقف عند ما ذكرناه بل تعداه إلى ابتداع طقوس مذهبية فرضوها على الناس فرضاً ، فكان لها أبعاد الأثر في قيام الفتن والمشاغبات وسفك الدماء بين طائفتي السنة والشيعه واستمرارها أجيالاً طويلة . قالوا : إن أهل بغداد كانوا قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون الصحابة ويفضلون الشيعيين أبا بكر وعمر على سائرهم ، ولا يقدحون معاوية ولا غيره من سلف المسلمين ، فلما جاءت هذه الدولة وهى متشيعه غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً .

ففى سنة ٣٥١ كسب عامة الشيعة ببغداد بأمر معز الدولة على المساجد : « لعن الله معاوية ولعن من غضب فاطمة فدكاً ، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى ... فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه الوزير المهلبى بأن يكتب مكان ما محى : لعن الله الظالمين

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٣٩ (٢) حاشية ابن الأثير ٧ : ٤٣ (٣) ابن الأثير ٧ : ١٢٦



قال رسول الله (ص) ولا يذكر في اللعن أحداً إلا معاوية ففعل ذلك ، (١)  
وفي سنة ٣٥٢ عاشر المحرم ، أمر معز الدولة الناس أن يقفلوا دكاكينهم  
ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء ، ويظهروا النياحة ، وينصبوا القباب ،  
ويخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن ، يدرن  
بالبلد بالنوائح ، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي ، ففعل الناس ذلك ،  
وكان هذا أول يوم نبح فيه على الحسين ببغداد . (٢)

وفي الثامن عشر من ذى الحجة من هذا العام ، أمر معز الدولة أيضاً  
بإظهار الزينة في البلد ، فأشعلت النيران وأظهر الفرح ، وفتحت الأسواق  
ليلاً كما يفعل ليالي الأعياد احتفالاً بعيد الغدير - يعني غدير خم وهو  
الموضع الذي يروي أن رسول الله (ص) قال فيه عن علي : من كنت  
حولاء فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه - وضربت الدباب  
والبوقات وكان يوماً مشهوداً . (٣)

وهكذا عملت السياسة البويهية جهودها في نشر هذه الطقوس المذهبية  
الغالية حتى أصبح أثرها في نفوس الشيعة قويا ، بل عنيفا كلما مر الزمان بحيث  
صار يوم عاشوراء يوماً مقدسا عندهم .

قال القمي : « من ترك السعي في حوائج يوم عاشوراء قضى الله له حوائج  
الدنيا والآخرة ، ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه ،  
يجعل الله عز وجل يوم القيامة فرحه وسروره . » (٤)

فيذهب القمي في إثارة العواطف وتجديد الآلام في يوم عاشوراء  
عندها بعيداً فيقول :

(١) ابن الأثير ٧ : ٤ (٢) ابن الأثير ٧ : ٧ والمنظم ٧ : ١٥

(٣) ابن الأثير ٧ : ٧ (٤) الحضارة الإسلامية ١ : ١١٥

« إذا نظرت السماء حمراء ، كأنها دم عبيط ، ورأيت الشمس على  
الحيطان كأنها الملاحف المعصفرة فاعلمى أن سيد الشهداء الحسين قد قتل. » (١)

وعلى هذا النحو استمر الشيعة يحتفلون بيوم بؤسهم ويوم نعيمهم  
هذين ، من كل عام ، ثم أضافوا إليهما أياما أخرى فكانت أيامهم طوال العام  
بين حزن وسرور يتجددان ويتضاعفان على مر السنين حتى أصبح حاضرم  
وثيق الصلة بماضيهم ، الأمر الذى جعلهم يتعلقون بترائمهم ، فيرجعون القهقري ،  
يقلمون صحائف التاريخ ويستلمون الأحداث ويتدارسون المآسى ،  
ويجسمون المصائب والكوارث التى حلت بآل البيت ، فتها لهم من ذلك  
كله آفاق فسيحة فى عالم الأحلام تهم فيها نفوسهم السكينية ، وتطمئن إليها  
قلوبهم المكسيرة .

وذلك أثر من آثار السياسة البوذية فى حياة الشعب ، باق على الأيام ،  
فكأن آل بويه لم يكفهم ما قد أصاب هذه الأمة من أرزاء وحن وفساد ،  
وتفكك فى جراب حياتها المختلفة حتى زادوها بلاء على بلاء فأشاعوا بين  
صفوفها التفرقة والأحقاد والضغائن ...

وكذلك كان الساسة وما يزالون مصدرأ للردائل والشور والآثام .

\*\*\*

وبعد ، فإذا كان من أثر هذه الظاهرة الاجتماعية فى الأدب ؟  
يقول النقاد : « إن الأدب يصور الحياة النفسية للأفراد والجماعات فى  
كل زمان ومكان ويحمل طابعها ويرسم ظلالها وألوانها . وإذا كان الأمر  
كذلك فإذا يمنع أدباء الشيعة من أن يستلموا هذه الحياة النفسية السكينية  
عند جماعتهم ويصوروها شعراً ونثراً يفيضان حزنا وأسى ؟

(١) الحضارة الإسلامية ١ : ١٠٣

حقاً لقد صور هؤلاء الأدباء الحياة النفسية عند الشيعة أقوى ما يكون التصوير ، فنجح إذ نقرأ أدبهم رفيعاً كان أو شعبيّاً ، نحس فيه آثار اللوعة ، ونحس فيه آيات الحزن العميق ، ذلك أن هذه الجماهير التي تملكها الأسي ، فترقرقت في مآقيها المومع واحتبست في صدورها العبرات كانت في حاجة ملحة إلى الأناشيد والأغاني الشجيرة ، لتتروح بها على سيد الشهداء الحسين بن علي ترتلها إذا ضمتها المجمع ، وتترنم بها في عرض الطريق لزيارة كربلاء ، ثم لتستعين بها بعد ذلك على إطفاء العواطف المشبوبة ، والمشاعر الملتهبة ، كلها تجددت الذكرى المؤلمة ، واستثيرت الأشجان .

فقد استحوذ على هذه الجماهير شعور قوى بعظم الكارثة التي حلت بنال البيت حتى عاودتها الأطياف في المنام ، فكان من أثر ذلك أن كثير الذين يحملون بفاطمة وهي تندب على ابنها ، وكثير النائحون والناائحات على الشهيد ، وكثير الشعر الذي ينظم ليناح به عليه .

فهذا أحمد بن المزوق النائح ينوح على الحسين بشعر الناشء الذي يقول فيه : (١)

بنى أحمد قلبى لكم ينقطع      بمثل مصابى فيكم ليس يسمع  
عجبت لكم تفنون قتلاً بسيفكم      ويسطو عليكم من لكم كان يسمع  
كأن رسول الله أوصى بقتلكم      وأجسامكم فى كل أرض توزع  
وكان الناشء حاضرأ فلطم لطمأ عظيماً على وجهه وتبعه المزوق والناس  
كلهم . وحدث الخالع فقال إنه رأى أبا القاسم الشطرنجى النائح فى المنام فقال  
له : أحب أن تقوم فتكتب قصيدة الناشء البائية فإننا قد نحنا بها البارحة فى  
المشهد وأولها :

(١) مجمع الأدباء ١٣ : ٢٩٢

رجائي بعيد والممات قريب ويخطيء ظني والمنون تصيب  
وكان الناشء هذا « يعتقد الإمامة وينظر عليها بأجود عبارة ، فاستنفذ  
عمره في مدح أهل البيت حتى عرف بهم ، وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة » (١)  
وكذلك كان ابن أصدق النائح وخب الناخبة المجيدة الحاذقة ينوحان في  
بغداد أو في الحائر على الحسين بقصيدة لبعض الشعراء المكوفيين على لسان  
فاطمة عليها السلام منها : (٢)

لم أمرضه فأسلو لا ولا كان مريضاً  
أيها العينان فيضا واستهلا لا تغيضا

وهكذا تنسج دائرة الأدب الشيعي ويعظم خطره في الحياة الأدبية  
في القرن الرابع بما كان قد تهيأ له من ظروف سياسية واجتماعية ، أتاحت له  
فرصة النمو والازدهار ، لاسيما بعد أن كان الصاحب بن عباد من أنصاره  
والخوارزمي والشريف ومهيار الديلمي من حاملي لوائه .

أما الصاحب بن عباد فقد كان يتشيع لآل البيت ويعطف عليهم حتى إنه ألف  
كتاب الإمامة في فضائل علي بن أبي طالب ، وعنى بنشر التشيع في أصبهان  
في أيام حكومته فيها ، وروى له هذا الكلام المسجوع في مدح سيد الأولياء  
صلوات الله عليه : « صهره الذي آخاه وأجابه حين دعاه ، قبل الناس ولباه ،  
وساعده وواساه ، وشيد الدين وبناه ، وهضم الشرك وأخزاه ، وبتفسه على  
«لفراس فداه، ومانع عنه وحماه . . . الخ ،

والشيعية تروى له شعراً كثيراً في مدح آل البيت وهجاء أعدائهم ، وقد  
بالغ صاحب كتاب (الإرشاد في أحوال الصاحب بن عباد) كثيراً في  
مقدار هذا الشعر إذ قال ما ترجمته :

(١) معجم الآداب ١٣ : ٢٨٢ وابن الأثير ٧ : ٨٧

(٢) نشرار المحاضرة للتوخى ٢١٨ و ٢١٩

« وللصاحب عشرة آلاف بيت في مناقب أهل البيت والتبرى من أعدائهم » .

ومن شعره الذى رواه هذا المؤلف أبيات فى مدح أمير المؤمنين وهى :

يا أمير المؤمنين المرتضى إن قلبى عندكم قد وقفنا  
كلها جددت مدحى فيكم قال ذو النصب نسيت السلفا  
من كم-ولائى على زاهد طلق الدنيا ثلاثا وكفى الخ  
وروى له أيضا أبيانا فى هجاء بنى أمية وهى :

قلت تحب معاويه ؟ قلت اسكتى يا زانية  
قلت أسأت جوابنا فأعدت قولى ثانيا  
يا زانية يا ابنة ألقى زانية أحب من شتم الوصى علانية ؟  
فعلى يزيد لعنة وعلى أبيه ثمانية  
وتروى له قصيدتان فى مدح الإمام الرضا مطلع الأولى :  
يا سائرآ زائرآ إلى طوس مشهد طهر وأرض تقديس

ومطلع الثانية :

يا زائرآ قد نهضا ، بمتدرا قد ركضا وقد مضى كأنه البرق إذا ما أومضا  
ولعل ذلك يفسر لنا صلته بالشريف الرضى ، فقد كانت بينهما مودة  
وتعاطف ، وكان من أثر هذه المودة أن مدحه الشريف بقصيدتين ورتناه  
بواحدة .

وأما ميهار الديلبى فإنه كان مجوسيا فأسلم على يد الشريف الرضى ودرس  
عليه التشيع فأحب أهل البيت حبا شديداً دفعه إلى مدحهم بشعر كثير ، كما  
دفعه أيضا إلى هجاء الصحابة هجاء مقذعا ، حتى قيل فيه إنه بإسلامه قد انتقل

من زاوية في النار إلى أخرى .

ومن شعره في ذلك قوله : (١)

وقائل لي « على ، كان وارثه  
فقلت كانت هنات لست أذكرها  
أبلغ رجالا إذا سميتهم عرفوا  
أطاع أولهم في أنغدر ثانيهم  
آبى في فارس والدين دينكم  
ما زلت مذيفت سنى ألوذ بكم

بالنص منه فهل أعطوه أم منعوا ؟  
يجزى بها الله أقواما بما صنعوا  
لهم وجوه من الشحنةاء تمتقع  
وجاء ثالثهم يفتقرو ويتبع  
حقاً لقد طاب لي أس ومر تبع  
- حتى محاً حقم شكى - وأنتجع

وقوله في رثاء الحسين : (٢)

مصابي - على بعد داري - بهم  
وليس صديقي غير الحزين  
قتيل به نار غل النفوس  
نسوا جده عند عهد قريب

مصاب الأليف بفقد الأليف  
ليوم الحسين وغير الأسوف  
كما نغر الجرح حك القروف  
وتالده مع حق طريف

\* \* \*

وكذلك كان أبو بكر الخوارزمي شيعياً متعصباً لأهل البيت ، صريحاً  
في موالاته وإخلاصه لهم ، ولهذا سلط قلبه على خصومهم فأصلاهم  
ناراً حامية .

فمن شعره قوله في هجاء فقيهه :

مجير صير ابنه ناصبياً  
ليس يرضى أن يدخل النار فرداً

مجيراً مثله وتلك عجيبه  
ساعة الحشر أو يقود حبيبته

(١) ديوان مبيار ٢ : ١٨٢ (٢) نفس المصدر ٢ : ٢٦٢

وقوله في هجاء علوى ناصبي :

شريف فعله فعل وضيع دنياه النفس عند ذوى الجود  
كأن الله لم يخلقه إلا لتنعطف القلوب على يزيد

وكان لتشييعه هذا أثر قوى في رسائله ، فهو حين يكتب لا يترك فرصة مناسبة أو غير مناسبة دون أن يستغلها في هجاء خصومه أو مدح طائفته أو إظهار التوجع والتفجع لما أصاب أهل البيت من ظلم وغصب وقتل .  
فإذا كتب إلى أبي محمد العلوى وأراد مدحه قال :

فإن كرن مثله في آل بيت أبي طالب رغم لأنوف النواصب، وهيهات،  
لقد أعظمت غلطا وسألت الله شظطا، فنجمنا معاشر الشيعة أنحس، وحظنا  
من الإقبال أنحس من أن يفلح في الدنيا طالبي أو يشقى فيها ناصبي... الخ (١)  
وإذا كتب رسالة إلى جماعة الشيعة في نيسابور أسهب وأطال في عرض  
ما أصاب هذه الطائفة وأنصارها من قتل وتشريد ومحنة وبلاء ، أيام  
الأمويين والعباسيين بأسلوب تسوده نغمة الحزن والسكابة :

فهو حين يكتب هذه الرسالة الطويلة يفتتحها بمواساة شيعته وحضهم  
على الثبات والصبر في ميدان الكفاح كما ثبت أسلافهم من قبل فيقول :  
« وأنتم ونحن - أصلحنا الله وإياكم - عصابة لم يرض الله لنا الدنيا ،  
فدخرنا للدار الأخرى ، ورغب بنا عن ثواب العاجل ، فأعد لنا ثواب الآجل ،  
وقسمنا قسمين : قسمنا مات شهيداً ، وقسمنا عاش شريداً ، فالخى يحسد  
الميت على ما صار إليه ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه . قال أمير المؤمنين :  
الحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور ... فإذا كنا شيعة أئمتنا في

(١) رسائل الخوارزمي (المطبعة العثمانية) ص ٢٢

(٢) نفس المصدر ص ٧٥ وما بعدها

الفرائض والسنن ومتبعي آثارهم في كل قبيح وحسن فينبغي أن نتبع آثارهم في الحن . غصبت سيدتنا فاطمة (ص) ميراث أبيها (ص) يوم السقيفة وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة ، وسم الحسن (رض) سرا ... الخ . وعلى هذا النحو يمتضى في رسالته معدداً حن الشيعة واحدة واحدة بأسلوب مؤثر أخاذ .

ولا يفوت الخوارزمي في هذا المقام أن يهجو آل مروان وآل الزبير وبني العباس هجاء لا ذعاً عنيفاً ، لأنهم قتلوا شيعة علي ، ومحو آثار بيت النبي ولأنهم يحبون فيأثم ويفرقونه على الديلمي والتركي ويحملونه إلى المغربي والفرغاني ، ويمنعون آل أبي طالب ميراث أمهم وفيه جدهم ، بينما يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها ويقترح على الأيام الشهوة فلا يطعمها ، وصفوة مال الخراج مقصور على الصفاة والكلايين والقوادين والمغنين والمسخر ، وهكذا .

ويتأسى الخوارزمي في هذه الرسالة أيضاً عن كساد التشيع في خراسان بنفاقه في الحجاز والعراقين والشام والجزيرة والجبيل ، وعن تحامل الوزراء والأمراء عليه في بعض الأقاليم بالتوكل على الأمير الذي لا يعزل ، وعلى القاضي الذي لم يزل يعدل ... على الله .

وهكذا نجد الخوارزمي في رسالته ما ينفك مندداً بخصومه ، مادحا لشيعة ، مكثراً من التعرض لذكر المذاهب .

\* \* \*

وربما كان الشريف الرضي أبرع أدباء الشيعة في تصوير آلامهم وآسيهم في شعره ، فغد ترك لنا شعراً في رثاء الحسين بن علي يمتاز بصدق العاطفة وقوتها وروعيتها ، ويظفر بإعجاب القارىء وتقديره .



ولعل سبب ذلك يعود إلى ظروف خاصة ، وأخرى عامة قد تأثر بها الشريف حين قال هذا الرثاء ، فقد أرهقت أعصابه السكوارث التي حلت بأهله وذويه وأنصاره ، وفزعته مناظر الدماء ، واندلاع النيران ، وارتكاب الجرائم ، وانتهاك المحارم في حى السكرخ من بغداد . وامتحنته السياسة بفراق أبيه وعمه ، وحرمانه من الثروة والجاه ، وهو ما يزال حتى غرض الإهاب لا يقوى على تحصيل قوت أو دفع أذى ، كما حاربه الزمان وعاكسه القدر في أمانيه وأحلامه .

كل ذلك أثر في نفس الشريف ، وكل ذلك أيضا قد خلق منه شاعراً حساساً يجيد الرثاء ويحسن البكاء والعيويل حتى على من لا تربطه وإياهم صلة رحم أو عاطفة ود . قال الشعالي : « ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المرثي منه ، » (١)

وليس غريباً بعد ذلك أن يتأثر الشريف بتلك المآتم الرائعة والمواكب الصاخبة التي كانت تقام في يوم عاشوراء ، اليوم الذي صرع فيه جده الحسين فلقد شهدها منذ الحداثة ، وسمع ما قيل فيها من قصص ، وما أنشد فيها من شعر حزين يرتله النائحون والنائحات ، فكان لذلك أبلغ الأثر في نفسه والأسى يبعث الأسى ، والذكرى تثير الشجون ، كما يقول القدماء . وإذن فلا عجب إذا صور الشريف مأساة جده وما أصاب أهله فأجاد التصوير ، بخمس قصائد طويلة من الرثاء الرائع .

ونحن إذ نقرأ هذا الشعر تتجسم أمامنا صورة الشاعر فنراه وهو يصور أحزانه ، كيف تهبجه الذكرى المؤلمة ، فتثور نفسه ، ويختلج قلبه وتضطرب أوصاله ، فإذا عواطفه تندفق كالسيل الآتي ينحدر من سفوح الجبال ، أو

(١) البقيمة ٢ : ٢٠٨

كالجلود حطه السيل من عل ، وإذا هو يرسل الشعر قويا عنيفا زاخراً  
بالعواطف الجارحة والمعاني القوية .

ونراه أيضا ، وقد وهنت أعصابه وتخاذلت أوصاله ، وأخذ منه الجهد  
كل مأخذ ، يئن أنين الشكلى أضناها الندب والنواح ، فيرسل الشعر وانيا ،  
رفيقا ، ممزوجا بلحن كئيب ، كألحان المفجوعين ينشدونها في ظلمات  
الليل .

هذا ، ولما كان من العسير علينا أن نتناول هذا الرثاء بالشرح والتحليل  
هنا ، إذ ليس هذا موضعهما فضلا عن أنهما يؤديان بنا إلى الإسهاب والتطويل ،  
فإننا مضطرون إلى الاستشهاد بقصيدتين اثنتين فقط هما المقصورة  
والرائية .

أما الأولى فإنها تمثل الثورة النفسية العنيفة والمشاعر الحادة عند الشاعر ،  
وتلائم ما كان يخالج نفوس الناس من شعور عنيف بالحزن ، ثم إنها بعد  
ذلك تتناسب مع ما كان يجري في المآتم من لطم على الصدور وضرب على  
الظهور وأصوات تنطلق من آخر الحلق بقوة وعنف ، في وزنها وفي قافيتها .  
وفي هذه القصيدة يصف الشاعر موقعة « الطف » وصفاً مثيراً ، يبعث  
العطف والإشفاق في نفس القارىء على أولئك الصرعى وهم تحت حرارة  
الشمس المحرقة ، تعفرهم الرمال ، وتجللهم الدماء ، وتنوشهم الوحوش ،  
يفتحها بنداء كربلاء أو مخاطبتها ، موجها إليها العتاب واللوم والتقريع  
كأنها هي المسؤولة عما جرى فرق أديمها من دماء ودموع فيقول : (١)

كربلاء لازلت كسربا وبلا      مالمقى عندك آل المصطفى ؟  
كم على تربك لـمـا صرعوا      من دم سال ومن دمعى جرى !

كم حصان الذيل يروى دمعا      خدها عند قتيل بالظما ؟  
تمسح التراب على إعجالها      عن طلي نحر رميل بالدماء  
وضيوف لفلاة قفرة      نزلوا فيها على غير قري  
تسكسف الشمس شموسا منهم      لاتدانيها ضياء وعلا  
وتنوش الوحش من أجسادهم      أرجل السبق وأيمان الندى  
ووجوها كالمصاييح فمن      قر غاب ومن نجم قد هوى  
ثم يخاطب جده رسول الله (ص) واصفاله المنظر الرهيب وكأنه من  
شهود المعركة ، فيقول :

يارسول الله لو عاينتهم      وهم ما بين قتلى وسبا  
من رميض يمنع الظل ومن      عاطش يسقى أنابيب القنا  
لرأت عينك منهم منظرأ      للوحشا شجوا وللعين قذى

ثم ينفذ منه الصبر ، ويستحوذ عليه الغضب ، فيوسع هذه الأمة الغادرة  
بنيها لوما وتقريرا ، فيقول :

ليس هذا لرسول الله يا      أمة الطغيان والبغي ، جزا!  
غارس لم يأل في الغرس لهم      فأذاقوا أهله مر الجنى  
جزروا جزر الاضاحى نسله      ثم ساقوا أهله سوق الإما  
ثم يعود إلى وصف الصريع ، وقد بلغ منه الهياج النفسى ذروته ،  
فيقول :

وصريعا عالج الموت بلا      شد لحين ولا مد ردا  
غسلوه بدم الطعن وما      كفتوه غير بوغاء اثرى  
مرهقا يدعو - ولا غوث له -      بأب بر وجد مصطفى  
وبأم رفع الله لها      علما ما بين نسوان الورى

أى جد واب يدعوهما جد، يا جد ، أغثنى ، يا أبا؟  
يا رسول الله ، يا فاطمة يا أمير المؤمنين المرتضى  
كيف لم يستعجل الله لهم بانقلاب الأرض أو رجم السماء؟  
وبعد أن يشفى غليله ، وبعد أن تهدأ عاطفته الثائرة ، يعزى نفسه بأن  
رسول الله سوف يقف من أولئك الغادرين موقف الخصم يوم القيامة  
فيشكدهم عند قاضى السماء ، فينالون جزاء ما ارتكبوه من آثام ، فيقول  
في ذلك :

يوم يغدو وجهه عن معشر معرضا ممتنعا عند اللقاء  
شاكيا منهم إلى الله وهل يفلح الجليل الذى منه شكا  
رب ! ما حاموا ولا آووا ولا نصرؤا أهلى ولا أغنؤا غنا  
بدلؤا دبنى ونالؤا أسرتى بالعظيأت ولم يرعؤا إلى  
لؤولى - ما قدولؤا من عترتى - قائم الشرك لأبقى ورعى  
نقضؤا عهدى وقد أبرمته وعرى الدين فمأبقؤ عرى  
حرمى مستردفات وبنؤ بنى الأدنؤن ذبح للعدا  
أترى لست لديهم كأمرى خلفؤه بجميئل إذ مضى  
ربى إلى اليوم خصم لهم جمئت مظلوما وذا يوم القضا  
أما القصيدة الثانية فإنها تصور الشاعر هادئا ، كايلا ، قد غمره الحزن  
العميق ، فانهمرت من عينيه الدموع ، وفارقه السلو : (١)

ورب قائلة والههم يحتفى بناظر من نطاف الدمع ممطور  
خفض عليك فلأحزان آونة وما المقيم على حزن بمعذور  
فقلت هيات ، فات السمع لأمه لا يفهم الحزن إلا يوم عاشور

(١) ديوان الشريف الرضى ١ : ٣٧٦

ياجد لازال هم يحرضنى على الدموع ووجد غير مقهور  
والدمع تخفصره عين مؤرقة خفر الحنية عن نزع وتوتير  
إن السلو لمحطور على كبدى وما السلو على قلب بمحطور

وبعد ، فقد مضى على يوم عاشوراء مئآت من السنين كانت خليقة بأن  
تخمد تلك العواطف المشبوبة الحزينة ، فلا تبقى منها إلا صدى تردده  
الأيام وإلا آيات من الحزن تغشى النفوس فلا تستطيع أن نستنزف دمعاً  
أو تثير عبرة ، ولسكنها السياسية الجائرة هى التى شامت أن تبعث الفتن النائمة  
جدعة ، فجعلت من يوم عاشوراء رمزاً للحزن المقيم عند هذه الطائفة  
ومصدرأ خصباً لأدب شك عند الشريف وعند غيره من أدباء الشيعة .

\*\*\*

ولعل من تمام البحث أن نشير هنا إلى ما أحدثه سيل التشيع الجارف  
فى نفوس أهل السنة من رد فعل ، وصدى عميق ، ذلك أنهم لم يقفوا  
وما كان ينبغى لهم أن يقفوا من هذه الطقوس الشيعة الغالية ، ومن ذلك  
الأدب الشيعى الغالى موقف المتفرج ، فقد كانا جديرين بأن يثيرا فى قلوبهم  
الغيرة على عقائدهم ، ويبعثا فى نفوسهم السخط الشديد على من أهانوا  
الصحابة وأسأوا إليهم . ولهذا نراهم يتذكرون طقوساً سنية مقابل تلك  
الطقوس الشيعة ، وينشئون أدبا سنيا مناقضا للأدب الشيعى .

قال ابن الأثير ، وابن الجوزى أيضا (١) : « ادعت جماعة السنة أن  
اليوم الثامن من يوم الغدير كان اليوم الذى حصل فيه النبى (ص) فى الغار ،  
وأبو بكر معه ، فعملت فيه مثل ما عملت الشيعة يوم الغدير ، وجعلت إزاء  
يوم عاشوراء يوماً بعده بثمانية أيام نسبتة إلى مقتل مصعب بن الزبير ،

(١) ابن الأثير ٧ : ٢٠٠ والمنتظم ٧ : ٢٠٦

وزارت قبره بمسكن<sup>(١)</sup> كما يزار قبر الحسين في كربلاء .  
وقد ظهر أثر هذا الصراع المذهبي في الأدب أيضا وكان من أبطاله  
أديبان هما بديع الزمان الهمداني ، وأبو الحسن علي بن سعيد  
السكري .

ويدلنا على مدى أثر هذا الصراع وقوته في الأدب إكثار السكري من  
مدح الصحابة ومناقضة شعراء الشيعة حتى سمي من أجل ذلك بشاعر  
السنة . (٢)

ويدلنا على ذلك أيضا ما كتبه بديع الزمان إلى الشيخ الرئيس ابن عامر  
مستنجا بيه على هؤلاء القادحين والناخين الذين يسبون الصحابة ، وهاجيا  
هذا المذهب الذي آذن بالخراب والدمار وذلك حين يقول : (٣)

« . . . والله ما دخلت هذه الكلمة بلدة إلا صبت عليها الذلة ، ونسخت  
عنها الملة ، ولا رضى بها أهل بلدة إلا جعل الله الذل لباسهم ، وألقى بينهم  
بأسهم ، هذه نيسابور منذ فشت فيها هذه المقالة في خراب واضطراب  
وأموالها في ذهاب وانتهاب وأسواقها في كساد وفساد . . . الخ إلى أن  
يقول :

« فليُنظر الناظر أية زندق قدح القادح ، وأى خطب باغ النائح ، لاجرم  
إن الله تعالى سلط عليهم السيف القاطع والذل الشامل والسلطان الظالم  
والخراب الموحش ، ولما أعد الله لهم في الآخرة شر مقاما ، وأنا أعيد بالله  
هراة أن يجد الشيطان إليها هذا المجاز وأعيد الشيخ الرئيس أن لا يهتز لهذا

---

(١) مسكن موضع في العراق قتل فيه مصعب بن الزبير قتله عبد الملك بن  
هروان سنة ٧١ هـ (٢) ابن الأثير ٧ : ٣١٢ (٣) رسائل الهمداني ص ٤٢٤  
وما بعدها

الأمر اهتزازاً يرد الشيطان على عقبه .

وليس هذا الهجوم العنيف على مذهب التشيع وأهله بغريب عن بديع الزمان الذي كان سنياً ، متعصباً لسنيته ، فقد ذكر ياقوت: (١) أنه كان متعصباً لأهل الحديث والسنة وأنه مدح الصحابة وهجا الخوارج وأجابه عن قصيدة رويت له في الطعن عليهم ، بقصيدة طويلة تعد خمسة وأربعين بيتاً ، تنقل منها هذه الأبيات :

وكنتي بالهم والكآبه	طعانة ، لعانة ، سبابه
للسلف الصالح والصحابه	أساء سمعاً فأساء جابه
تأملوا يا كبراء الشيعة	لعشرة الإسلام والشريعه ا
أستحل هذه الوقيعه	في تبع الكفر وأهل البيعه ؟
فكيف من صدق بالرساله	وقام للدين بكل آله ؟
ناهيك من آثاره الشريفه	في رده كيد بني حثيفه
واستعلم الآفاق والأقطارا	من أظهر الدين بها شعارا
ثم سل الفرس وبيت النار	من الذي قل شبا الكفار

وعلى هذا النحو يمضي في مدح الصحابة وهجاء الخوارج بأقنع الألفاظ .

ولعل هذا التناحر المذهبي وهذه المناقضات الأدبية بين الشيعة وأهل السنة ، يفسران لنا بعض الظروف التي لا بدت حياة البديع والخوارج .

ذلك أن أبا بكر الخوارجي مثلاً كان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً فيمدحهم ويغلو في هذا المديح ، بينما كان يغض من سلطان خراسان ويطلق

(١) معجم الأدباء ٢ : ١٩٦

لسانه بما لا يقدر عليه (١). فتراه يتصل بالحكام هناك ويمدحهم ، ثم تسوء علاقته بهم فيهجومهم (٢). ترى لم كان ذلك ؟ وما سببه ؟  
لا شك عندي في أن مصدر ذلك أن آل سامان ورجال دولتهم كانوا سنين ، وأن آل بويه كانوا شيعة ، وطبيعي جداً أن يجد في ظل هؤلاء ما لا يجده في ظل أولئك.

وكذلك نفس تلك المناظرة الأدبية التي جرت بين البديع والخوانزمي بأنها مظهر من مظاهر ذلك النزاع المذهبي المتصل بين الطائفتين فقد مر بنا قبل قليل أن هذين الأدبيين الكبيرين كانا يتعصبان لمذهبيهما تعصبا شديداً ، وكانا يختصمان من أجل ذلك خصاماً عنيفاً . فإذا كان ذلك كذلك كما يقول القدماء . فإذا يمنع من أن تقوم في نفس البديع وفي نفوس طائفته فكرة الانتقام من هذا الخصم الجبار الذي أوسع الصحابة والخلفاء وأهل السنة ثلماً وتقربوا بأسلوبه اللاذع الساخر ؟ لا شيء طبعاً . وإذن فليتخذ البديع من قوة بيانه وسلاطة لسانه وسيلة لإضحالك الناس من هذا الشيعي العنيد والسخرية منه . وهكذا كان .

ومن مظاهر هذه الخصومة المذهبية أيضاً أن الخوانزمي تصدى لمقامات البديع فقدم فيها وعابها ، واتهمه بأنه لا يحسن سواها ، فرد عليه البديع وتحداه ، وطلب إليه أن يروض طبعه على خمس مقامات ، بل على مقامة واحدة ، ثم تناول قصيدة له فنقضها (٣).  
ذلك أثر التشيع في الأدب عند الشيعة وأهل السنة وهو يمثل لنا جانباً آخر من جوانب تأثير الحالة السياسية في حياة الأدب والأدباء في العصر البويهي .

(١) اليتيمة ٤ : ١٢٦ (٢) نفس المصدر ٢ : ١٢٣ (٣) رسائل الهمداني ص ٢٨٩



## الباب الثالث

# أثر البيئة الاجتماعية

في الأدب البويهى

تمهيد

لقد ألمنا في فصل سابق بالحياة الاجتماعية على عهد بنى بويه ، فرأينا أن اضطراب الحالة السياسية والإدارية ، وفساد الحالة الاقتصادية ، وظهور العبادات الشرقية في المجتمع من جديد قد سببت جميعا اختلالا هائلا في التوازن الاجتماعى بين الطبقات وتفسخا عاما فى الأخلاق كان من آثارهما إفراط فى الترف والتعيم عند الخاصة وإفراط فى البؤس والحرمان عند العامة ، وكان من آثارهما أيضا انتشار اللهو والمجون بين الناس على اختلاف طبقاتهم .

هذا ، ولما كان الأدب رجعا وصدى للبيئة العامة ، أو تصويرا لمظاهرها المختلفة ، وإفصاحا عما تثيره هذه المظاهر فى النفس الإنسانية من أهواء ونزعات ، فإنه من الطبيعى أن يتأثر الأدب البويهى بهذه البيئة الاجتماعية فيصور مظاهرها المختلفة من غنى وترف وفقر وبؤس ومجون وخلاعة ، كما صور مظاهر البيئة السياسية والبيئة الطبيعية ، وهكذا كان .

ذلك أن من يقرأ النتاج الأدبى لهذا العصر ويمعن فى قرائته ويحاول

أن يتلمس آثار البيئة الاجتماعية فيه يجد صوراً أدبية مختلفة تصور ظواهرها  
تصويراً دقيقاً، منها ما يمثل حياة الترف والنعيم، ومنها ما يمثل حياة الفقر  
والحرمان، ومنها ما يمثل حياة اللهو والمجون.

وواضح من هذا أننا نريد أن نقول إن تلك الصور الأدبية — بالرغم  
من اختلافها — كانت صدى للنعيم والحرمان والمجون، تلك الظواهر  
العامة التي سيطرت على المجتمع حينذاك، ولذلك آثرنا أن ندرسها تحت  
ثلاثة موضوعات رئيسية هي: أدب النعيم، وأدب الحرمان وأدب المجون  
وسنفرد لكل منها بحثاً خاصاً به ليتسنى لنا توضيح مدى أثر التيارات  
الاجتماعية العامة في حياة الأدب والأدباء في هذا العصر.



## إِفضْلُ الأَوَّلِ

### أدب النعيم

كان أدب النعيم صدى لحياة الترف والذهو في البيئات الأرستقراطية ، في تصور الملوك والوزراء وأهل الثروة واليسار ممن أقيمت عليهم الدنيا فتجمع المال في خزائنها ، وتركز الغنى الفاحش في قصورهم . أقول في مثل هذه البيئات الناعمة نشأ أدب النعيم حيث كان يعيش كبار الأدباء كابن العميد والصاحب ابن عباد والوزير المهلبى وابن يوسف والصائب وغيرهم من الأدباء الذين عاشوا في أكنافهم وتلذذوا عليهم وأخذوا عنهم وتأثروا خطاهم باعتبارهم أساتذة الجليل ورعاة النهضة الأدبية في ذلك العصر . ولهذا كان من الضروري أن يتأثر أدبهم بظواهر الحياة الاجتماعية التي كانت تحياها طبقتهم الأرستقراطية فيصور التأنق في أساليب العيش والإسراف في اللذة والمتعة والتسلية والميل الشديد إلى المجاملات والتعاضم والملق والنفق ونحوها فينتج عن ذلك صور أدبية تصف أطعمتهم وأخرى تصور مجالس لهوهم ، وثالثة تمثل هيوالم ونزعاتهم وهى الإخوانيات .

أما وصف الأظعمة فقد كان أثرا من آثار عناية القوم بطعامهم وتأنيقهم فيه ، ذلك أن هؤلاء المترفين قد هجروا العادة الإسلامية القديمة التي كانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ليأخذ كل واحد منه ما يشتهى ، واستعاضوا عنها بالعادة الروسية التي تقضى بأن توضع ألوان الطعام بعضها

يُعد بعض (١) ففي أوائل القرن الرابع كان الوزير أبو الحسن بن الفرات يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتّاب الذين اختص بهم « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكثيرى ، ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل ، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والباريق فغسلوا أيديهم وأحضرت المائدة مغشاة بديبقي فوق مكبة خيازر ومن تحتها سفرة آدم فاضلة عليها وحواليها مناديل الغمر . . . فإذا وضعت رفعت المسكبة والأغشية وأخذ القوم في الأكل وأبو الحسن ابن الفرات يحدّثهم ويؤانسهم ويباسطهم فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ، ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية ورطايات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم » .

وكان من أثر هذا التأنق في الطعام أن عنى المؤلفون عناية كبيرة بفن الطبخ ، فمن ذلك أن ابن مسكويه المؤرخ المشهور قد ألف كتابا « في تركيب الباجات من الأطحمة » ، « أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبخ بكل غريب حسن » .

ومن ذلك أيضا أننا نجد الوشام يعقد فصلا في آداب الطعام عند الظرفاء فيقول فيه : « اعلم أن أول ما استعملوه تصغير اللقم والتجالل

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٩٦

عن الشره والنهم وأكل الأوساط الرقاق والبزماورد الدقاق ، وليس يأكلون العصبية والعضلة ولا العرق والكلوة ولا السكرش والقبة ولا الطحال والرئة ولا يأكلون القديد ولا الثريد . . . ولا يمششون من الطعام كراديس قصب الساق الغليظ وإنما مشاشهم ما لان وصفه لا ما غاظ وكبر ، ويأخذون ما نقل من المشاش على ظهور الأصابع ويطحونه ناحية من الخوان ، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان ولا يتعدون مواضعهم ولا يلطعون أصابعهم ولا يملأون باللحم أفواههم ولا يذسمون بكبرها شفاههم . . . ولا يأكلون قدراً بائتة ولا قدراً مسخنة . . . ولا شيئاً من السكوا ميخ والمالح ، وأكل ذلك عندهم من الفضائح .

هكذا كان الأغنياء المترفون يتأنقون في طعامهم ، ويتفننون في إعداد موائدهم ويتبعون في أكلهم آداباً خاصة لا يجيدون عنها ، ولهذا فليس عجباً إذا رأينا الأدباء يتأثرون بهذا الجانب المترف من حياتهم فيصفون الطعام ويحاضرون بأوصافه وتشبيهاته ويقولون فيه الشعر ما وسعهم القول ، فقد ذكر الشعالي أنه « كان يتادم عضد الدولة بعض الأدباء والظرفاء ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلاتهما وغيرها إلا وأنشد فيه لنفسه أو لغيره شعراً حسناً ، فبينما هو ذات يوم معه على المائدة ينشده كمادته إذ قدمت بهطة فنظر عضد الدولة كالأمرياء بأن يصفها فأرتج عليه وغلبه سكوت معه خجل فارتجل عضد الدولة وقال :

بهطة تعجز عن وصفها يامدعي الأوصاف بالزور ؟ !  
كأنها في الجام بحلوة لآلىء في ماء كافور

وكما كان عضد الدولة يعنى بهذا اللون من الأدب ، كذلك كان أبو الفضل ابن العميد ، فقد كان أصحابه يهدون إليه الأطعمة والحلوى والكتب المؤلفة

في فن الطبخ فيتخذ من ذلك وسيلة للمقارنات الشعرية التي تتناول وصف  
الطعام ، مثال ذلك أن ابن خلاد القاضي أهدى إلى ابن العميد شيئاً من  
الأطعمة وكتب إليه في وصفها ، وابن العميد إذ ذاك في عقب مرض عرض  
له ، فكتب إلى ابن خلاد قصيدة طويلة منها : (١)

قل لابن خلاد المفضى إلى أمد في الفضل برز فيه أى تبريز  
ماذا أردت إلى منهوض نائبة مدفع عن حمى اللذات ملهوز (٢)  
هزرت بالوصف في أحشائه قرماً ما زال يهتز فيها غير مهزوز (٣)  
لم يترك فيه فحوى ما وصفت له من الأطايب عضواً غير محفوز (٤)  
أهديت نبرمة أهدت لآكلها كرب المطامير في آب وتموز (٥)  
ما كنت لولا فساد الحسن تأمل في جنس من السمن في دوشاب شهرين (٦)  
هل غير شتى حبوب قد تعاورها جيش المهاريس أو نخز المناخير  
رمت الحلاوة فيها ثم جمّت بها تحذى اللسان بطعم جدمزوز (٧)  
أوقعت للشعر في أوصافها شغلا بين القصائد تروى والأراجيز  
ومنها في الشواريز : (٨)

(١) اليتيمة ٣ : ١٣ (٢) الملهوز من لهز فلاناً إذا لكره وقيل ضرب به بجمع  
كفه في اللمزمة والرقيه والمدفع الفقير الذليل الذي لا يضيف إن استضاف .  
(٣) القرمة اشتداد الشهوة للحم (٤) المحفوز المقطون (٥) النبرمة نوع  
من الحلوى والمطامير جمع مطمورة وهي الحفيرة تحت الأرض تخبأ فيها الحبوب ونحوها .  
(٦) الشهرين نوع من التمير (٧) الممزوز إذا كان طعمه بين الحلو والحامض  
وتحذى تقرص . (٨) الشواريز جمع شيراز وهو اللبن الرائق المستخرج ماؤه .

لا أحمد المرء أقصى ما يوجد به  
ما متعة العين من خمد تورده  
إذا عصرناه أصناف الشواريز  
مستغرق الحسن في توشيع وجنته  
يزهى عليك بحال فيه مركز  
يوفي على القمر الموفى إذا اتصلت  
بدائع بين تسهيم وتطريز  
يسراه بالكأس أو يمناه بالكوز  
أشهى إليك من الشيراز قد وضحت  
في صحن وجنتها خيلان شو نيز (١)  
وقد جرى الزيت في مثنى أسرتها  
فضارعت فضة تعلى بابرز  
فأجابه ابن خلاد بقصيدة منها :

يا أيها السيد السامى بدوخته  
أتى قريضك يزهى فى محاسنه  
تاج الأكر من كسرى وفيروز  
يا حسنه لو كفيننا حين ييهجنا  
زهو الربى باشرت أنفاس نيروز  
أقررت بالعجز والألباب قد حكمت  
خطب النبارم فيه والشواريز  
به على فقدك اليوم تعجيزى  
وكذلك أهدي ابن خلاد إليه كتاباً فى الأطعمة وابن العميد ناقه من  
غلة كانت به فكتب إلى ابن خلاد قصيدة منها : (٢)

فهمت كتابك فى الأطمه  
فكم هاج من قرم ساكن  
وما كان نولى أن أفهمه  
وأوضح من شهوة مبهمه  
وأرث فى كبدى غلة  
ومن الجوع نيرانها مضمه  
ومنها قوله فى الوسط وهو من جيد الوصف :

ودونك وسطاً أجاد الصنا  
فن صدر فائقة قد ثوت  
ع تليفق شطريه بالهنده  
ومن عجز ناهضة ملقمه  
ودنر بالجوز أجرازه  
وقانى بزيتونها والجبه  
ودرهم باللوز ما درهمه  
ن صفائح من بيضة مدغمه

(١) الشونيز الحبة السوداء (٢) يتيمة الدهر ٣ : ١٤

تقن أسطر فيه مشكولة      بملح ومن أسطر معجمه  
وفوف بالبقل أعطافه      فوافي كحاشية معابه  
موشى تخال به مطرفاً      بديع التفاويف والنممه  
إذا ضاحكك تباشيره      أضاءت له المعدة المظلمه  
فأجابه ابن خلد بقصيدة منها :

هلم الحليفة والمقلبه      وأدن المحيرة المفعمه  
لأكتب ماجاش في خاطرى      فقد عظم الخوض فى النبرمه  
وعجل على بهدى وذى      فإن من الخوض فى ملحمه  
ألا حينذا ثم يا حينذا      كتان المصنف فى الأطعمه  
كفانا به الله ما راعنا      بعلة سيدنا المؤلمه  
أطاب الحديث له فى الطعا      م ففتق شهوته المبهمه  
أيا ذا الندى والحجى والعلا      ومن أوجب الدين أن نعظمه  
لئن كان نبرمتى أفسدت      ولم تأت صنعتها محكمه  
فسوف يزورك شيرازنا      فنقسم بالله أن تكرمه  
يمس بشونيزه كالعرو      س يخطر فى الحلة المسهمه  
ويزهى الخوان يتقدمه      عليه ويحمد من قدمه  
ويرمز إخواننا دونه      كأن تحاورهم زمزمه

وقد وصفوا إلى جانب هذا ، الهريسة والباقلان والقطائف والسكباجة  
وخبز الأرز ورؤوس الخمران ونحوها . من ذلك ما كتبه الصان إلى صديق له  
يستدعيه ويصف ما عنده من رؤوس الخمران والشراب والفتق إذ قال :

طباخنا صانع رؤوسا      يسقط فى طيبها الخلاف  
مبيضة كاللجين لونا      شهية كلها نطاف



وأخذها في الرقاق يحكى صريع حتى له لحاف  
من بين عجل إلى خروف تزهى بتنضيدها الصحف  
مختلفات القدود لسكن لها بأسنانها ائتلاف  
وكها راضع صغير له على ضرعها اعتكاف  
قد أسمنتهن أمهات من طول إرضاعها عجاف  
نسقى على ذلك روح دن أرق أسمائها السلاف  
والنقل من فستق جنى رطب حديث به القطاف  
لى فيه تشبيهه فيلسوف ألفاظه عذبة خفاف  
زمرد زانه حرير فى حق عاج له غلاف

\* \* \*

وكما تأفق هؤلاء المترفون بطعامهم ، كذلك تأنقوا فى مجالس شرابهم  
وطربهم ، ذلك أن هذه المجالس كانت من لوازم العيش الأنيق عندهم ،  
فعنوا بها عناية كبيرة تتناسب وما كان فى بيئاتهم من نعيم وبذخ وإسراف ،  
لهذا كانوا يزيتون أرضها بالأزهار والورود ، ويعنون بالآلاتها وروائحها  
ونخرها وفواكهها ، حتى إنه كان فى بيوت الكبراء منهم - إلى جانب صاحب  
المطبخ - رجل يسمى الشرابى شأنه العناية بهذه الأشياء . (١)  
وكانوا يختارون لهذه المجالس أطرف الندماء وأملحهم وأطيبهم عشرة ،  
فالوزير المهلبى وغيره من وزراء العراق مثلا كانوا يميلون إلى القاضى  
التنوخى جداً ويتعصبون له ويعدون له ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء حتى  
قالوا فيه : « هو ريحاننا فى القدح وذريعتنا إلى الفرح » ، وكذلك وصف  
الصاحب بعض بنى المنجم فقال : « عشرته أطف من نسيم الشمال على أديم

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٢٠٣

الماء الزلال . (١)

وكذلك كانوا يختارون لها أجمل السقاة والساقيات ، وأبرع المغنين والمغنيات ، كل ذلك لتكون هذه المجالس أقوى على إثارة اللذة التي رموا أنفسهم في أحضانها ، فهذا تاج الدولة قد أسلم قياده لساق فاتن الطرف ، مليح الوجه ، قد ملك عليه قلبه وذلك حين يقول :

سقاني سحراً خمره وقد لاحت لي النثره  
غزال فاتن الطرف مليح الوجه والطره  
أنا الملك وقد ملكت قلبي صاحب الوفه  
وقد زرفن صدغيه على أبهى من الزهره  
فن أسود في أبيض في أحمر في صفه  
إذا حاول أن يجهر أو تبسول له نقره  
أعان الشيخ إبليس عليه فأتى مكره

وإذن فقد كانت هذه المجالس أنيقة ، تشغل فراغاً كبيراً من حياة المترفين في هذا العصر ، ولهذا تأثر بها الأدباء كما تأثروا بألوان الطعام فصوروها شعراً ونثراً . ففي أدب الصاحب مثلاً نجد وصفا رائعاً لمجالس الشراب الأنيقة في البيئات الأرستقراطية التي كان يتفنن أصحابها في إرضاء الذوق المترف وفي إمتاع الحس والشعور أيضاً . فقد كانت هذه المجالس تشيع البهجة والسرور في كل جارحة من جوارح الإنسان .

يدلنا على ذلك تلك الفصول والاستزارات العديدة التي كتبها الصاحب في وصف مجالسه الخاصة ومجالس الوزير المهلب في بغداد .  
من ذلك ما كتبه في وصف أحد مجالسه فقال : (٢)

(١) من غاب عنه المطرب ص ٩٤ (٢) بقيمة الدر ٣ : ٨٠

« نحن ياسيدي في مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، فقد تفتحت  
فيه عيون النرجس وتوردت فيه حدود البنفسج وفاحت مجامر الأترج ،  
وفتقت فارات النارنج ونظقت السنة العيدان وقام خطباء الأوتار وهبت  
رياح الأقداح ونفقت سوق الأانس وقام منادى الطرب وطلعت كواكب  
الندماء وامتدت سماء الند فبجياتي لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد  
وتتصل الواسطة بالعقد . »

ومن ذلك أيضا ما كتبه في وصف أحد مجالس المهلبى فقال :  
« قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض مستدير ينصب  
إليه الماء من دجلة بالدواليب وقد مدت الستارة وفيها حسن العكبر اوية  
فغنت :

سلام أيها الملك اليماني لقد غلب البعاد على التدانى  
فطرب الأستاذ أبو محمد - أيده الله تعالى - بغنائها واستعادها الصوت  
مراراً وأتبعته آياتها هي :

تطوى المنازل عن حبيبك دائماً وتظل تسكبه بدمع ساجم  
هلا أقت ولو على جمر الغضا قلبت أوحد الحسام الصارم  
وتبعته جارية ابن مقلة ولا غناء أطيب وأطرب وأحسن من غنائها  
فغنت بيتين للأستاذ وهما :

يامن له رتب بمسكنة القواعد في الفؤاد  
أيحل أخذ الماء من متلهب الأحشاء صادى

ففتنت الجميع ، ثم انبسطنا في الشرب واشتغل الشدو وارتفع الأمر عن  
الضبط والأصوات عن الحفظ ، وانفقت في أثناء ذلك مذاكرات ومناشدات  
ومجاوبات وافترقتنا . .

وكما وصف الصاحب هذه المجالس نثرأ كذلك وصفها غيره من الأدباء  
شعراً كقول عبيد العزيز بن يوسف في وصف مجلس عضد  
الدولة : (١)

فيا مجلسا عز الخلافة محقق بأقطاره والند والنور والخمر  
وقد أرجت أرجاؤه وتعطرت بساطع نشر ما يقاس به نشر  
وفتح فيه الزجس الغض أعينا محاجرهما بيض وأحداقها صفر  
كأن الشموع المشعلات خلاله ثواكل عبرى ما ينهنها الزجر  
إذا قطعت منها الرؤوس فضاحكمت وكان على قطع الرؤوس لها بشر  
وهكذا كانت هذه المجالس أسواقا للأنس والذلة تقام في بيوت الأغنياء  
فتفتيح فيها عيون الزجس وتورد فيها خدود البنفسج ويعطرها شذا  
الأترج والتارنج والند وتنطلق في أرجائها ألحان العود وأنغام الوتر وشدو  
المغنى ، وتدور فيها على الندامى كؤوس الراح .

\* \* \*

وكان لهذه المجالس أيضا أثر آخر في الأدب مصدره ميل الخواص إلى  
الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التي تتجلى فيها اللباقة  
العقلية ، فقد كان نداماؤهم يتبسطون معهم في أخبار العادة وما يحسن من  
الهزل وينسكبون عن الحكايات الطويلة التي يفنى باقتصاصها زمان المجلس  
وتتعلق بها النفوس وتحبس على أواخرها الكؤوس لأنها بجالس القصاص  
أولى منها بمجالس الخواص ، قال ابن المعتز : (٢)

بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام  
ويحكى عن أبي الورد ، أنه كان من عجائب الدنيا في المطايبه والمحاكاة ،

(١) اليتيمة ٢ : ٩٦ (٢) أدب النديم لكشاجم ص ٣٤ - ٣٥

وكان يخدم مجلس المهلب ويحكي شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هي ،  
فيعجب الناظر والسامع ويضحك الشكوان . (١)

فهذا الميل إلى ما يمتع ويضحك ويعجب من الأشياء كثيراً ما كان يحمل  
الأدباء الذين يغشون مجالس الأصدقاء والأغنياء والأدباء على قول الشعر  
ارتجالاً وبدون ترويض فكان ذلك سبباً في شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة  
التي أكثر الأدباء من نظمها حتى زاحمت القصائد ، فقد كان الأدباء يتناولون  
مادة هذه المقطوعات مما يدور على ألسنة الجالسين من النوادر والملح  
والفكاهات والألغاز والأحاديث والمعميات وما تحويه هذه المجالس من أشياء  
كالفواكه والأزهار وآنية الشراب وأدوات الترف والزينة ونحوها .

من ذلك قول الشعالي في الزيت على سبيل الإلغاز :

حاجيت شمس العلم في ذا العصر      نديم مولانا الأمير نصر  
ما حاجة لأهل كل مصر      في كل ما دار وكل قصر  
ليست ترى إلا بعيد العصر

وقول الصاحب في الند :

ند لفخر الدولة استعماله      قد زاد عرفاً من نسيم يديه  
فسكاً نما عجزه من أخلاقه      وكأنه طيب الثناء عليه  
وقول الصابي في عتيقة الطيب :

وعتيقة للطيب إن تستدعها      تبعث إليك أمامها بدشيرها  
يلقاك قبل عيائها أرج لها      فسكاً نه مستأذن لحضورها  
نفحاتها لم تدر من كافورها      تأتيك أم من مسكها وعبيرها؟  
لا عيب فيها غير أن نسيمها      مثل اللسان يشيع سر ضميرها

(١) البيهقي ٢ : ١٤٢

وقد أولع أدباء هذا العصر بهذه الطريقة من النظم ولما شديداً بحيث لم يتركوا غرضاً من الأغراض إلا تناولوه ولا شيئاً من الأشياء إلا وصفوه بأبيات قليلة . كل ذلك ليثبتوا قدرتهم على قول الشعر في مواقف الارتجال وليرضوا رغبة الناس في المستحدث من المعاني والأشياء . ولعل ما أورده الثعالبي من هذه المقطوعات الشعرية في مختلف الأغراض خير دليل على ما نقول .

\* \* \*

وأما الأخوانيات فقد ازدهرت في هذا العصر أيضاً كما ازدهر الأدب الرسمي ، وكان سبب ازدهارها يتصل بأخلاق الطبقة العليا ونزعاتها اتصالاً وثيقاً ، وتعليل ذلك أن هذه الطبقة - كما مر بنا - قد فقدت كثير من الصفات الكريمة واستعاضت عنها بالذل والضعفة وفقدان الشعور بالكرامة والاستخفاف بكرامة الغير وبالملق والنفاق ونحوها لأسباب ذكرناها فيما تقدم . والأمثلة على ذلك كثيرة ولا حاجة بنا إلى الإطالة فيها ولا سكتنا نود أن نذكر هنا مثلاً واحداً يصور لنا بوضوح وجللاء ضعف شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه في مثل هذه البيئات المترفة التي ساد فيها حب المال وحب المنصب والجاه وذلك أن الوزير المهلبي على جلالة قدره كان يلحقه من فحش معز الدولة وشتمه عرضه مالا صبر لأحد عليه فيحتمل ذلك احتمالاً من لا يكثر له وينصرف إلى منزله .<sup>(١)</sup> وأدهى من ذلك أن معز الدولة قد ضربه ذات يوم بالمقارع مائة وخمسين مقرعة يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبيته ثم يعيد عليه الضرب ، ولكن الوزير قبل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع إلى الوزارة .<sup>(٢)</sup>

(١) تجارب الأمم ٦ : ١٤٦ (٢) نفس المصدر ٦ : ١٩٠

ولاشك في أن هذا المثل إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه الطبقة قد استهانت بكل شيء في سبيل الاحتفاظ بمناصبها وجاهاها حتى أصبحت هياكل فارغة وطبولا جوفاء فلجأت إلى تكلف العظمة والأبهة والكبرياء لتسد هذا الفراغ وتكمل هذا النقص ، فظهر أثر ذلك في اتخاذها الألقاب الكاذبة المعارضة لروح الإسلام مثل الأوحده وكافى الكفاة وأوحده الكفاة ، كما ظهر في تكلفها في أساليب المكتاتبات التي عظمت شأن الخطاب إلى حد الإسراف .

على أننا لم نأت بشيء جديد حين نقول بهذا الرأي فقد سبقنا إليه الوزير ابن سعدان حينما سأله أبو حيان التوحيدى أن يأذن له في كاف المخاطبة وتاء المواجهة إذ قال : (١)

« لك ذلك ، وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرك ، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة ؟ إن الله تعالى على علو شأنه . . . يواجه بالتاء والكاف . . . وكذلك رسوله (ص) . . . وهكذا الخلفاء ، فقد كان يقال للخليفة يأمر المؤمنين أعزك الله ، ويأمر أصلحك الله ، وما عاب هذا أحد ، وما أنف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبير ولا شريف ، وإنى لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه ويحسبون أن في ذلك ضعة أو خطأ زراية ، وأظن أن ذلك لعجزهم وفسولتهم وانحزالهم وقلتهم وضؤولتهم ، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم ، وأن هذا التكلف والتجبر يمنحون عنهم ذلك النقص ، وذلك النقص يمتفى بهذا الصلف ، هيئات ، لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ، ومن مقابح الزهو والكبرياء . »

وواضح من هذا أن ابن سعدان المعاصر لهؤلاء القوم يعلل لجوءهم إلى

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ : ٢٦

تكلف الخيلام والزهو والكبرياء بأنه ، تعويض ، عن هذا النقص الذي تولد في نفوسهم بسبب عجزهم وضعفهم وقتلهم وضؤولتهم .  
على أن أبا حيان التوحيدى فى تعقيبه على هذا الكلام بالقول المأثور :  
« ما تعاضم أحد على من دونه إلا بقدر ما تصاغر لمن فوقه ، يعطينا صورة دقيقة مركزة لطبيعة العلاقات الاجتماعية فى البيئات الأرستقراطية . ذلك أن الطبقة العليا قد استبد بعضها ببعض ، فكان الفرد منها يتعاضم ويتعجب على من هو أدنى منه منزلة ، ثم يتصاغر ويتخاذل لمن هو أعلى منه مرتبة .

ولما كان الناس فى كل زمان يقلدون كبراءهم وذوى الشأن منهم سرت عدوى هذا الداء من الطبقة العليا إلى غيرها من الطبقات بحيث أصبح التعاضم على التابع والتصاغر للمتبوع من سمات المجتمع البوهي التى جعلت علاقة الرئيس بالمرؤوس والشريف بالمشروف والغنى بالفقير مبنية على المجاملة والملق والنفاق ، قائمة على تبادل الود الكاذب والإخلاص المزيف والاحترام المتكلف وما إلى ذلك من الأخلاق التى تسود المجتمعات المتحولة فى كل زمان ومكان .

وما لا ريب فيه هو أن مجتمعا كهذا المجتمع الذى بنيت فيه علاقة الفرد بالفرد على أساس الخداع والتويه لا بد أن يندر فيه الوفاء والألفة والصدقة والصدق ونحوها ، ويشيع فيه الغدر والجفاء والقطيعة والمسكر وما إليها ، وقد صدق أبو حيان التوحيدى السكاتب العظيم فى كتابه الصدقة والصديق الذى صور فيه انهيار العلاقات الاجتماعية فى عصره حين قال : (١)

« إن الصدقة والألفة والأخوة والمودة والرعاية والمحافظة قد نبذت نبذاً ورفضت رفضاً ووطئت بالأقدام ولويت دونها الشفاه وصرفت

(١) الصدقة والصديق ص ٢٤



عنها الرغبات ، .

كل ذلك قد انعكس صداه في الحياة الأدبية فأنتج فناً من الأدب بعينه هو فن « الإخوانيات » ، فقد كانت هذه الظاهرة الاجتماعية من البواعث القوية على ازدهاره في هذا العصر وفي هذه البلاد دون سواها ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما شاعت الإخوانيات في الأدب البويهى بينما لا تكاد نجد لها أثراً في الآداب الإقليمية الأخرى .

ففى خراسان مثلاً نجد الإسكافى ، وهو كما يقول الثعالبي لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدها في الكتابة والبلاغة ، كان أكتب الناس في السلطانيات ولكنه إذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع . وقد دهش الثعالبي نفسه لهذا الأمر وعجب منه ، أما نحن فلا ندهش له ولا نعجب منه ، وإنما نفسره بأن الشروط الاجتماعية التي هيأت لنشوء الإخوانيات وازدهارها في فارس والعراق كانت معدومة في خراسان أو كالمعدومة ، ولهذا فلا عجب إذا برع الإسكافى وغيره من أدباء خراسان في السلطانيات وقصروا في الإخوانيات .

ومهما يكن فقد راجت الإخوانيات في العصر البويهى رواجاً منقطع النظير لتوافر أسبابها ودواعيها ، إذ عنى بها الأدباء عناية كبيرة فأكثرها من المراسلات الإخوانية شعراً ونثراً إلى حد الإسراف ، حتى إننا نجد من بينهم من اقتصر في كتاباته على الرسائل الإخوانية دون غيرها . نلاحظ ذلك عند كاتب كبير كأبي بكر الخوارزمي الذي رماه الهمداني بأنه لا يحسن من الكتابة « إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع المتداول بكل قلم ، المتناول بكل يد وفم » . (١)

(١) رسائل الهمداني ص ٧٦

وكان هؤلاء السكتاب يوجهون رسائلهم إلى الأصدقاء والتلاميذ والأمراء والوزراء والعمال والقضاة والعلماء وغيرهم في مناسبات مختلفة وأغراض شتى، كالتهنئة والتعزية، والاستعطاف والعتاب، والتزلف والتقرب، والشكر والاعتذار، والإهداء والاستهداء، والاستزارة والشوق، وشكوى الدهر ونحوها، فسكتبوا مثلاً يهتنون بالأعياد، وبارتفاع المنصب، وبالتخلص من الشر، وبقدوم مولود، وكتبوا أيضاً بعد نكبة أو محنة أو خلع، أو بمناسبة المرض، أو الخروج إلى حرب، أو الشكر على هدية ونحو ذلك من الأغراض الكثيرة.

على أن من تنهياً له الفرصة فيقرأ ما نظمه الشعراء وما أنشأ السكتاب في مثل هذه الأغراض يلاحظ أن أكثر هؤلاء الأدباء كانوا مسوقين إلى النظم والسكتابة سوقاً، مدفوعين إليهما مدفوعاً، تحت تأثير تلك الحالة الاجتماعية التي ألمنا بها منذ قليل.

وإلا فلماذا يكلف الأدباء أنفسهم هذا العناء حينما يهتنون وبعزون ويستعطفون ويتشوقون مثلاً؟

لقد كان الأديب في العصر البيهقي يهني إنساناً لا تربطه به رابطة ود أو تعاطف، ويعزى آخر بحدوث وفاة لا يثير في نفسه حزناً ولا يبعث في قلبه حسرة ولا في عينه دمعة. وكان يستعطف وجيهاً فيسبغ عليه آيات الإجلال والإكبار وهو لا يضر له غير البغض والاحتقار، أو يتشوق إلى لقاء من يكون لقاءه في العين قذى وفي القلب شجي.

أليس في هذا الصنيع عناء أي عناء؟ أليس في هذا التكلف إرهاق أي

إرهاق لنفس الأديب؟

حقاً إنه إجهاد وترويض للنفس الشاعرة حينما تحمل على أن تفرح

هو تأسى بغير ماداع إلى الفرح والأسى ، وحينما ترغم على الإعجاب والشوق  
حون أن يكون لهذا الإعجاب والشوق سبب .

وايكن ما حيلة الأديب في مثل هذه المواقف وتقاليد المجتمع حينذاك  
كانت تفرض على الناس أن يحامل بعضهم بعضاً وينافق بعضهم لبعض  
فيتبادلون العواطف المبتذلة من ولاء متصنع وود من يف ومواسات متكلفة  
وشوق إلى اللقاء كاذب . لا شك في أنه مضطر كل الاضطرار إلى مجاراة  
ميول مجتمعه حينما ينظم أو يكتب .

وإذ كان الأدباء متأثرين في إخوانياتهم بأخلاق اجتماعية مبنية على  
المجاملة والنفاق ، على المبالغة في هذه المجاملة وهذا النفاق ، غلوا في معانيهم حتى  
أحالها الغلو مضحكة مبتذلة ، ونمقوا في ألفاظهم حتى جعلها التضميق قبيحة بغیضة .  
ولهذا نراهم مثلاً إذا كتبوا في الشوق والفراق أغاروا على معاني العشاق المتيهين  
فانتحلوها ، وإذا كتبوا إلى مريض سنفحوا الدموع وعافوا الهجوع ، وإذا  
كتبوا إلى رجل عظيم تذللوا وتضرعوا كما يتذلل العبد إلى سيده ويتضرع ،  
وهكذا . فهذا أبو بكر الخوارزمي يكتب في الفراق ، في فراق صديق لا  
حبيب فيقول : (١)

« قد كنت أحسب الفراق يسير الخطب ، هين الوقع ، قليل العبء والثقل  
خفيف السكل والظل ، حتى دهيت بفراق سيدي فعلت من مقدار الفراق ما  
كنت جهلته ، ووجدت من شخصه ما كنت أضلته ، وعلمته من طريق  
المطالعة والمعرفة وإنما كنت أراه من طريق التخيل والصفة ، وتذكرت قول  
جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم هذا الفراق فعلت ما لم أفعل

(١) رسائل الخوارزمي ص ٣٢ و ٣٣ المطبعة العثمانية

ولكنني لو علمت أنني أقعدت تحت أعباء الاشتياق، وأنفسح تحت ثقل الفراق،  
لصحبت سيدي فراشاً أو ركابياً أو طباخاً أو شاكرياً ، ولو وسعت أكثر  
من ذلك لقات أصحابه كاتباً أو حاجباً أو نديماً أو صاحباً أو مغنياً أو ضارباً...  
وهكذا يمضى إلى آخر الرسالة .

وهذا أبو الفضل بديع الزمان يكتب في الشوق فيقول (١)  
« يعز عليّ - أطل الله بقاء الشيخ الرئيس - أن ينوب في خدمته قلبي  
عن قدمي ، ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي ، ويرد مشرعة الأانس به  
كتابي قبل ركابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة .

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره ، وقبلت جداره ، وما نى حب الحيطان ، وامكن  
شغفاً بالقطان ولا عشق الجدران ، ولكن شوقاً إلى السكان ، وحين عدت  
إلى العوادى عنه أمليت ضمير الشوق على لسان القلم معذراً إلى الشيخ على الحقيقة  
عن تقصير وقع وفنور في الخدمة عرض ، ولكنني أقول :

أن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى أن لا أراك عقاباً  
وهذا صاحب بن عباد يكتب إلى عبد الرحمن الشيرازي ، وقد شكّا

إليه علة التقرس فيقول: (٢)

عناني من الهم ما قد عناني فأعطيت صرف الليالي عناني  
ألفت الدموع وعفت الهجو ع فعيّناي عينان نضاختان  
لسقم ألح على سيدي به قد غفرت ذنوب الزمان  
وهذا ابن العميد يكتب قصيدة طويلة إلى بعض إخوانه منها هذه

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٣ (٢) اليتيمة ٢ : ١٠٠

الآيات : (١)

قد ذبت غير حشاشة وذماء ما بين حر هوى وحر هواء  
لا أستفيق من الغرام ولا أرى خلوا من الأشجان والبرحاء  
وصروف أيام أقمن قيامتى بنوى الخليلط وفرقة القرناء

وهذا عبد العزيز بن يوسف أيضا يكتب إلى صاحب فيقول: (٢)  
« كتابي - أدام الله عز مولانا - وحالي فيما أعانيه من تمثل حضرته وتذكر  
خدمته ، والمواقف التي سعدت فيها برؤيته ، وأفدت من مشاهدته  
حظها . . . حال امرئ هب وقد أوردته الأحلام مناهل أمله ، فهو يتلف  
تذكراً ويتلذذ تحميراً ، ويناجي النفس تمثلاً ، ويراقب المنى تعاملاً ، وأحمد الله  
تعالى على الأحوال كلها . . . وأقول:

أقول وقلبي في ذراك مخيم وجسمي جنيب للصبا والجنائب  
يجاذب نحو صاحب الشوق مقودي  
وقد جاذبتني عنه أيدي الشواذب  
سقى الله ذاك العهد عهداً من الحيا

وتلك السجاييا الغرغر السحاب  
وإن وإن روعت بالبين شأم طوالع عتبي من طلاع العواقب  
وما أنا بالناسي صنائعك التي كتبتني على الرق ضربة لازب  
هكذا كان الأدباء في هذا العصر يتكلفون العواطف المبتذلة ويصنعون  
المعاني الغالية في إخوانياتهم ويوجهونها إلى الأمراء والأعيان والأقران  
والأصحاب في مناسبات شتى ، خاضعين في ذلك لظروف حياتهم الاجتماعية ،  
مستجيبين لمؤثراتها .

(٢) نفس المرجع ٢ : ٩٠ - ٩١

(١) البيهية : ١٨٣

## الفصل الثاني

### أدب الحرمان

وأدب الحرمان هذا كان صدى للحياة البائسة في الأوساط الفقيرة ، كما كان أدب النعيم صدى للحياة المترفة في البيئات الغنية ، فقد كانت أغلبية الأمة - كما ذكرنا - تحيا حياة فقر وبؤس وإملاق، تظللها المحن والخطوب ويغشاها الجوع والمرض والموت . وقد ذكرنا من التاريخ ما يؤيد هذا من الأمثال . ونريد الآن أن نؤيده بنص أدبي واحد من نصوص كثيرة أفاضت في حياة البؤس عند المعدمين في العصر البويهى . وهذا النص مقتطف من رسالة استغاثة خاصة وجهها بديع الزمان إلى أحد السكبراء يصف فيها ما أصاب إحدى المدن من محنة وبلاء ، وذلك حين يقول :

« والسكنى أخبره بما عرض لها - يعنى المدينة - ولهم بعد فصول أصلها عنها ، فيهم فشت الأمراض الحادة فخبطت عشواء ، وأفنت رجالا ، ثم جد الغلام ، وفقد الطعام ، ووقع الموت العام ، فمن الناس من لم يطعم أسبوعا حتى هلك جوعا ، ومنهم من تبلغ بالميتة إلى يومنا هذا وهو ينتظر نجبه ، ليلحق صحبه ، ومنهم من لا يجد القوت والدرهم على كفه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق ، وإن هول السلطان أعظم وأطم وأمر المطالبات أكبر وأهم » (١)

(١) رسائل الهمداني ص ١٢٧

وقد كان الأدب الذى يصور حياة البؤس نوعين :

الأول : أدب التسول أو السكدية، وهو يصور التشبث بأسباب الحياة، والتحايل على كسب القوت بكل وسيلة ممكنة .

والثانى : أدب الشكوى، وهو يصور الإخفاق والفشل ومعاكسة القدر فى الحياة وما تحدثه هذه الأمور فى نفس الإنسان من مرارة وجزع ونقمة على الأوضاع القائمة .

أما أدب التسول فقد كان صورة حياة طائفة كبيرة من المجتمع البوهي، هى طائفة المكدين الذين تنكرت لهم الأيام، وقست عليهم ظروف الحياة ففشلوا فى الحصول على ما يقيم الأود عن طريق العمل المثمر كالزراعة والصناعة والتجارة، ولهذا لجأت إلى مختلف الحيل وشتى الأساليب فاتخذت منها وسيلة أو وسائل للحصول على المال . فاستمرت هذا العيش السهل وأمعنت فى التسول والتسكدى حتى خسرت كثير آ من الصفات التى يكون بها الإنسان إنسانا .

على أن حرفة التسول ليست جديدة فى المجتمع، بل هى قديمة قدم الفقر والغنى فى الحياة، فقد ذكر البيهقى أنه قيل للحطيمية : أوص للمساكين بشيء فقال : أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة ان تبور . (١)

وكان الجاحظ أول من عرض لموضوع السكدية من الكتاب ، إذ كشف عن هذه الناحية من نواحي المجتمع فتكلم على أصناف المكدين وما يمتازون به ويحتالون . ثم جاء البيهقى فى أوائل القرن الرابع فنقل عن الجاحظ وتوسع فى الكلام على أصناف المكدين وطبقاتهم وأعمالهم ونواديرهم . (٢)

(١) المحاسن والمساوى ص ٢٩٣ (٢) نفس المصدر ص ٦٢٤

ولسكن هذه الحرفة لم تسكن شائعة في العصور السابقة كما كانت شائعة في العصر البويهي، فقد اتسع مداها وعظم خطرها، فانتشرت انتشاراً كبيراً بين الناس. يدلنا على ذلك ما ذكره المقدسي من أن الخطبة لا تسمع من صياح السؤال في شيراز، وأن الكرامية كانوا لا ينفكون من أربع خصال: التقى والعصية والذل والسكدية، وأنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً غير السكدية وركوب السكبيرة. (١)

وهكذا انتشرت هذه الحرفة حتى ضرب بها المثل، قال بديع الزمان من رسالة وجهها إلى أحد القضاة:

« مثل أيّد الله القاضي مثل رجل من أصحاب الجراب والحراب، (٢) تقدم إلى القصاب يسأله فلذة كبد، فسد باليسرى فاه وأوجع بالأخرى قفاه، فلما رجع إلى مسكنه كتب إليه توقيعاً يطلب حملاً رضيعاً. » (٣)

ومهما يكن فقد اشتهر من هؤلاء المتسولين في هذا العصر جماعة تعرف بالساسانية أو بنى ساسان، نسبة إلى رجل اسمه ساسان، قيل فيه إنه ساسان بن اسفنديار الذي كان من حديثه أن أباه لما حضرته الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته فأنف ساسان من ذلك واشترى غنماً وجعل يرعاها، وعير بأنه راعي الغنم، ثم نسب إليه كل من تسكدي. وقيل كان ساسان ملكاً من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ونهب كل ما كان له، واستولى على ما يملكه فصار رجلاً فقيراً يتردد في الأحياء ويستعطي، فضرب به المثل. وقيل فيه أيضاً إنه كان رجلاً فقيراً حاذقاً في الاستعطاء دقيق الحيلة في

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٢٩ و٤١٠ و٤٤٠ (٢) أصحاب الجراب هم أصحاب السكبة الذين يتأبطون الجراب ويأوون إلى المآجد.

(٣) رسائل الهمذاني ص ٢٤١



الاستجداء ، فنسب إليه المسكون .

ويرى الأستاذ الشيخ محمد عبده في هذه التسمية غير هذا الرأي فيقول :  
إن الساسانية وبني ساسان وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان ،  
وأنه جد السفلة وشيخهم ، إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية التي أسسها  
أردشير بابك ، فلما محقها الإسلام وبقي من أطرافها أفراد سقطوا في السنة  
فتيان المسلمين الأولين ، فسكنوا يطردونهم من مكان إلى مكان ، ويعبرونهم  
بعنوان آبائهم ، فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب ، صارت  
نسبة قذف وسب ، وكان في إشهار هذا الاسم بالتحقير غاية سياسية فضلاً  
عما تظمح إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب ، وهي الأبقى لدولة الساسانية  
ذكر في لسان ولا أثر في جنان ينبيء عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر  
أمرها بالبال فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد وهو السفالة والدناءة ، ثم نسي  
ذلك بمرور الأيام ، وبقي اللفظ مستعملاً في الشحاذين وهم أدنى طبقة في  
الناس . (١)

وقد ورد ذكر بني ساسان في مقامات بديع الزمان الهمداني ، كما ذكرهم  
الحريري في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية التي أوضح فيها كثيرًا من  
البواعث الدافعة على التسول فقال :

« سمعت أن المعاش إماره ، وتجارة وزراعة وصناعة ، فارست هذه  
الأربع لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحدث منها معيشة ، ولا استرغدت  
عيشة ، أما فرض الولايات وخلص الإمارات فسكأضغات الأحلام والفيء  
المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، وأما بضائع التجارات  
فعرضة للمخاطرات وطعمة للغارات ، وما أشبهها بالظيور الطائرات ، وأما

(١) شرح مقامات الهمداني ص ٩٧

اتخاذ الضياع والتصدى للازدراع فمنهكة للأعراض وقيد عاقبة عن الارتكاض  
وقلبا خلا ربها عن إذلال أو رزق روح بال ، وأما حرف أولى الصناعات  
فغير فاضلة عن الأقوات ولا نافقة في جميع الأوقات . . . ولم أرها هو  
بارد المغنم ، لذيد الطعام ، وافي المسكب ، صافي المشرب إلا الحرفة التي وضع  
ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرمت في الخافقين نارها ، وأوضح  
لبنى غبرام منارها . . . إذ كانت المتجر الذي لا يبور والمنهل الذي لا يغور . .  
وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم  
سل سيف . . . ولا يرهبون من برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد . . .  
أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ولا يتقون  
سلطاناً . .

وعلى أية حال فقد أطلق لفظ الساسانية أو بنى ساسان على أولئك  
الصعاليك الذين كانوا يجردون في طلب القوت الذي لم يكن إليه سبيل إلا  
ببيع الدين ، وإخلاق المرومة ، وإراقة ماء الوجه ، وكذب البدن ، وتجرع  
الأسى ، ومقاساة الحرفة ، ومض الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان . (١)

وكان هؤلاء الصعاليك يطوفون في الآفاق ويتنقلون بين البلدان  
والأرياف جماعات ووحداناً ، يستجدون ، ويحتالون ، ويمخرقون على الناس  
فبيتزون منهم الأموال . وقد أشار بديع الزمان الهمداني في مقاماته إلى كثرة  
تنقل هذه الجماعة وإمعانها في التسول بقوله على لسان عيسى بن هشام :  
« يا أبا الفتح ! بلغ هذه الأرض كيدك ، وانتهى إلى هذا الشعب صيدك  
فأجابه أبو الفتح :

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٤٣

أنا جواله البلا د وجوابه الأفق  
أنا خذروفة الزما ن وعمارة الطرق  
لا تلتنى - لك الرشا د - على كديتي وذق

وقد كان ينتمى إلى هذه الطائفة من هو شاعر أو من هو ملهم بنوع من الثقافة كالقصص والأحاديث وما إليها، كما كان لبعضهم آراء ونظرات في الحياة تدل على أنهم كانوا يشعرون بفساد النظام الاجتماعي في عصرهم، فتقدموا نقداً لاذعاً وسخروا منه ومن أهله، وبرروا سلوكهم في الحياة بأنه استجابة لها ومجارة لاساليبها المعكوسة ونظمها الفاسدة، كقول أبي دلف الخزرجي :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرناك الغرور  
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور  
وقول بديع الزمان في مقاماته :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم  
الحرق فيه مايح والعقل عيب ولوم  
والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

فبدأ الصعاليك في الحياة على هذا يتمشى مع المبدأ المشهور الغاية تبرر  
الواسطة ، ويتفق والرأى القائل بأن « خير السلوك ما لامم البيثة » ،  
متأثرين في ذلك بواقع حياتهم وظروفها .

\* \* \*

هذه الظواهر الاجتماعية التي نشأت عن الفقر المدقع كان من صدها  
ظهور نوع من الأدب جديد لم نجد له أثراً في غير هذه البلاد ، هو ذلك  
الأدب الذي صور حياة البؤس عند الصعاليك والأفاقين وأبناء الشوارع

والطرق . فقد أثرت هذه الظاهرة الاجتماعية - ظاهرة التسول - في الحياة الأدبية فألهمت بديع الزمان الهمداني مقاماته المشهورة التي سنتكلم عليها فيما بعد ، كما أنها قد هيأت الفرصة المناسبة لظهور شاعرين كبيرين صوراً في شعرهما آلام الصعاليك وأساليب معيشتهم وفنون حيلهم وتقاليدهم وألفاظهم الصعلوكية .

وهذان الشاعران هما الأحنف العكبرى وأبو دلف الخزرجي . أما الأحنف العكبرى فهو أبو الحسن عقيل بن محمد العكبرى ، شاعر المسكدين وظريفهم ومليج الجملة والتفصيل منهم ، وكان الصاحب معجباً بظرفه وشعره فقال فيه : ولو أنشدتك ما أنشدني الأحنف العكبرى لنفسه وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن الطريقة في الشعر ، لامتلأت عجيباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه ، ولا أقل من إيراد موضع اقتخاره فإنه يقول : (١)

على أنى بحمد الله في بيت من الجمد  
بإخـواني بنى ساسا ن أهل الجد والحد  
لهم أرض خراسا ن فقاشان إلى الهند  
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند  
إذا ما أعوز الطرق على الطراق والجند  
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والسكرد  
قطعنا ذلك النهر - سج بلا سيف ولا غمد  
ومن خاف أعاديه بنا في الروع يستعدى  
وإذن فالأحنف كان يفخر بانتسابه إلى بنى ساسان وكان يعتز بهم ، ولم

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٨٥

لا يفخر ويعتز؟ ألم تكن هذه البلاد كلها خاضعة لسيطرتهم؟ ألم يجوبوا  
أقطارها ويقطعوا مسالكها بلا سيف ولا رمح آمنين ، مطمئنين ، فلا  
يحذرون عدواً ولا يخشون قاطع طريق؟ بلى! ثم... أليس من دواعي  
الفخر والاعتزاز أن يتزيا الطراق والجند بزي الصعاليك ويتسبوا إليهم  
إذا ما أرادوا اجتياز سبيل؟ نعم!

ولسكن ، أكان الأحنف جاداً حقاً في هذا الفخر والاعتزاز؟ أم أنه  
كان هازلاً؟ أما أنا فليست أرى في هذا الشعر موضعاً لفخر أو اعتزاز ،  
كما توهم الصاحب . فالشاعر - كما يخيل إليّ - لم يكن جاداً في حمده لله على  
أنه في بيت ماجد ، كما لم يكن فرحاً بهذا الملك العريض ، وإنما كان ساخراً  
عابثاً ، فهو لم يكن من البساطة والسذاجة بحيث يرى في حرفة التسول مجداً  
عريضاً يستحق أن يفخر به إنسان . وهل يفخر بالتشرد ويعتز بالسكدية  
من يشكو الاغتراب وفقدان الوطن وندرة الأليف وقلة الرزق؟ لقد كان  
الأحنف يرى أن الحشرات الحقيرة كالعنكبوت والخنفساء أسعد منه حظاً  
وأحسن منه حالاً في هذه الحياة ، إذ أنها تتمتع ببيت تسكن فيه وأليف  
تطمئن إليه ، أما هو فإنه لم يكن له مثلها إلف ولا سكن ، وإذا كانت هذه  
نظرتة إلى الحياة فجدير به أن يزدرىها ويعجب بمقاييسها ويسخر من نظمها  
فيزعم أن السكدية حرفة محترمة تقى أصحابها من الشرور في الوقت الذي  
يتعرض فيه التجار والجند وأهل الفضل للأخطار .

وإلا فكيف نوفق بين قوله السابق وقوله :

العنكبوت بنت بيتا على وهن      تأوى إليه وما لى مثله وطن  
والخنفساء لها من جنسها سكن      وليس لى مثلها إلف ولا سكن

وقوله :

عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر أنذال  
بالآمان أقول لابل المعاني فغذائي حلاوة الآمال  
لحرزك يقول بالوقف في السرأي ورجل تقول بالاعتزال  
الاسمبيل إلى التوفيق بين هذا وذاك إلا إذا فهمنا الأبيات الأولى على أنها  
هزل وسخرية مصدرهما سخط الشاعر على أنظمة الحياة القائمة التي عبثت  
بالإنسان واستهانت به فخرمته الرابطة الوطنية والاجتماعية وضنت عليه بما  
يسد الرق ، فعاش شريداً ، غريباً ، ذليلاً ، بأثماً .  
على أن ما وصلنا من شعر الأحنف يؤيد ما ذهبنا إليه ، فهو يعبر عن  
حزن دفين ، وألم مضم يحز في نفسه ، وشعور بالخيبة في ميدان الحياة ،  
وذلك حين يقول :

ترى العقيان كالذهب المصفى تركب فرق أنفار الدواب  
وكيسى منه خلو مثل كفى أما هذا من العجب العجائب !  
وقوله :

رأبت في النوم دنيا مزخرفة مثل العروس ترامت في المقاصير  
فقلت جردى أفتقالت لي على عجل  
إذا تخلصت من أيدي الخنازير

وقوله :

قد قسم الله رزقي في البلاد فما يكاد يدرك إلا بالتفاريق  
ولست مكتسباً رزقا بفلسفة ولا بشعر ولسكن بالمخاريق  
والناس قد علموا أنني أخوحيل فلست أنفق إلا في الرساتيق  
كذلك كان الأحنف يصور في شعره آلامه وبؤسه ، ويشكوفيه غربته  
وتشرده وقلة رزقه ، ويسجل فيه أيضاً احتجاجه على ظلم المجتمع وقسوته .

وأما أبو دلف الخزرجي ، مسعر بن مهلهل ، « فهو شاعر كثير المالح والظرف مشحوذ المديية في الجديدة ، أخلق التسعين في الأطراف والاعتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، في خدمة العلوم والآداب ، (١) حتى قال :

وقد صارت بلاد الله في ظعنى وفي رحلى  
تغايرن بلبى و تحاسدن على رحلى  
فما أنزلها إلا على أنس من الأهل

وكان أبو دلف ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده ... ويرتفق بخدمته ويرتزق في جمالته ويتزود كتبه في أسفاره فتجرى مجرى السفاتج في قضاء أوطاره .

وقد نظم أبو دلف الخزرجي قصيدة رائية عارض فيها دالية الأحنف العكبرى ونهج نهجه فيها ، فشرح فيها أصناف المسكدين شرحا وافيا كافيا ، تقدم فيه كثيرا على الجاحظ والبيهقي .

وهذه القصيدة تعرف بالقصيدة الساسانية ، وهي طويلة جداً ، فاختار منها الثعالبي ما يقرب من مائتي بيت ، بدأها الشاعر بأبيات رقيقة شرح فيها آلامه وآلام إخوانه من بني ساسان ، وما يلقون من جهد ومشقة في أسفارهم واعترايهم ، ثم عقب على ذلك بأبيات في الفخر على طريقة زميله الأحنف في الدالية ثم أسهب بعد ذلك في بيان أنواع المسكدين وفنون حيلهم وأساليبهم في الحصول على المال . كل ذلك كان بالفاظ صعلوكية لا تفهم ، ولذلك عنى الثعالبي بتدوين شرحها . وفيما يأتي نذكر أمثلة لهذه الأغراض . قال أبو دلف في الشكوى والفخر :

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٤

جفون دمعها يجرى      لطول الصد والهجر  
وقاب ترك الوج      د به جمرأ على جمر  
لقد ذقت الهوى طع      مين من حلو ومن مر  
ومن كان من الأحرار      ر يسلو سلوة الحر  
ولا سيما في الغر      به أودى أكثر العمر  
تعربت كغصن البيا      ن بين الورق والخضر  
وشاهدت أعاجيباً      وأواناً من الدهر  
على أنى من القوم البه      اليل بنى الغر  
بنى سامان والحامى      الحى فى سالف العصر  
تغربنا إلى أنا      تنائينا إلى شهر  
فظل البين يرهيننا      نوى بطناً إلى ظهر  
كما قد تفعل الريح      بكشب الرمل فى البر  
فنحن الناس كل النا      س فى البر وفى البحر  
أخذنا جزية الخلق      من الصين إلى مصر  
لنا الدنيا بما فيها      من الإسلام إلى الكفر  
فنصطاف على الثلج      ونشتو بلد التمر

وقال فى أصناف المسكدين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع حيلهم :

ومنا الكاغ والكافة والشيشق فى النحر (١)  
ومن دروز أو حر ز أو كوز بالدغر (٢)

(١) الكاغ والكافة المتجانان والمتجانة ، والشيشق الحدايد والتعاويد  
بمعلقونها على أنفسهم (٢) دروز إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء ،  
وحرز ، إذا كتب التعاويد والأحراز ، وكوز ، إذا أقام فى المجلس ، والمكوز  
هو الذى يقوم فى مجالس القصاص فىأمر القاص أصحابه بإعطائه ، ثم إذا تفرقوا  
تقاسموا ما أعطوه . والدغر ، المقاسمة .



- ومن درع أو قشع مع أو دمع في القر (١)  
ومن رعس أو كبس أو غلس في الفجر (٢)  
ومن شدد في القول ومن رمد في القصر (٣)  
ومن كدى على كيسا ن في السر وفي الجهر (٤)  
ومنا النائح المبكي ومنا المنشد المطري (٥)  
ومن ضرب في حب علي وأبي بكر (٦)  
ومن يروي الأسانيد وحشوكل قطري (٧)

(١) درع : إذا جاء الهراس وطلب قصعة من المريسة فإذا أعطاه إياها لحسها .  
وقشع إذا منى وعينه إلى الأرض اطلب القطع . دمع ، إذا بكى في الأسواق عند  
البرد حتى يعطى .

(٢) رعس : إذا طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا تمر  
وتينة ، وكبس : إذا دار ، فإذا نظر إلى رجل قد حل سستجته كبسه وأخذ منه  
قطعة . وغلس : إذا خرج إلى الكدبة بغلس .

(٣) ومن شدد : قوم يكون معهم دفاتر حديث يروونها ويشددون على الناس  
في اللواط وشرب الخمر . القصر ، هو الاتون يدخله الواحد من القوم فطرح نفسه  
في الرماد ثم يخرج وعليه غبرة الرماد ويوهم أنه آوى إليه من شدة البرد وعدم اللبوس .  
(٤) كيسان ، قوم عرفوا قوماً من الكيسانية والغلاة فيجبونهم ويكدون عليهم  
بالمذهب (٥) النائح المبكي ، قوم بنو حون على الحسين بن علي ويروون  
الأشعار في فضائله ومرائيه (٦) ومن ضرب في حب . . . الخ : قوم يحضرون  
الأسواق فيقف واحد جانبا ويروي فضائل أبي بكر (ض) ، ويقف الآخر جانبا  
ويروي فضائل علي (ض) فلا يفوتهما درهم الناصبي والشيعي ثم يتقاسمان الدراهم .  
(٧) ومن يروي الأسانيد : هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطريق .

وعلى هذا النحو يسهب أبو دلف في سرد أصناف المسكدين ، ويمعن في تعداد مهنهم وحررفهم وحيلهم ، حتى لقد بلغ عددها المئات . وقد كان يستعمل في كل ذلك لغة خاصة هي لغة الصعاليك التي كانت تعرف بمناكاة بني ساسان .

والظاهر أن هذه المناكاة كانت معروفة لدى العامة والخاصة ، فقد ذكر الثعالبي أن الصاحب كان يحفظ مناكاة بني ساسان حفظاً عجبياً ، وكان يعجبه من أبي دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ويجريان فيما لا يفظن له حاضرهما . ولما أتخفه أبو دلف بهذه القصيدة اهتز لها ونشط وتبجح بها وتحفظ كلها وأجزل صلته عليها .<sup>(١)</sup>

وقد توسع أبو دلف في قصيدته هذه في معنى السكديّة والمسكدين كثيراً ، بحيث جعل الشعراء والأشراف والخليفة أيضاً من أصناف المسكدين ، ولعله كان جاداً في ذلك لا متندراً كما يقول الثعالبي . فالفقر والبؤس وسوء الحال قد دفعت كثيراً من الأشراف والشعراء والسكتاب وحتى بعض الخلفاء إلى الاستجداء الصريح ، فهذا بديع الزمان الهمداني يصرح في إحدى رسائله ، ولا يأنف ، بأنه يحترف السكديّة إذ يقول :

« أنا - أطل الله بقاء الشيخ العميد - مع أحرار نيسابور في صنعة لا فيها أهان ، ولا عنها أصان ، وشيمة ليست بي تناط ، ولا عنى تماط وحرقة لا فيها أдал ولا عنى تزال ، وهى السكديّة التي على تبعتها وليست لي منفعتها » .<sup>(٢)</sup>

وهذا ابن الحجاج يملأ شعره بألفاظ المسكدين وأهل الشطارة ومعانيهم كقوله :

(١) البيتمة ٣ : ١٧٥ (٢) رسائل الهمداني ص ١٦٤

يا سادتي قول ميت في مثل صورة حي  
لم يبق في الخرج شيء أتأذنون بشيء؟  
وقوله وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجدا:

رأيت كلاب مولانا وقوفا ورابطة على ظهر الطريق  
فمن ورد له ذنب طويل يعقفه ومهلوب خلوق  
تغذى بالجداء فوددت أني وحق الله خر كرش سلوق  
فيا مولاي رافقتي بكلب لآكل كل يوم مع رفيقي  
أرى القصاب قد أضحى عدوى لشوم البخت والملاحى صديقي

ولابن الحجاج هذا هجاء كثير ينحو فيه نحو الصعاليك في مهاتراتهم  
وتسايهم .

لهذا كان من حق أن دلف أن يقول في قصيدته الساسانية هذه:  
ومنا شعراء الأراض أهل البدو والحضر  
ومنا سائر الأنصار والأشراف من فهر  
ومنا قيم الدين المصطفى الشائع الذكر  
يكدي من معز الدولة الخبز على قدر

وهما يمكن فإننا نستطيع أن نقول إن القصيدة الساسانية يمكن أن  
تعتبر من خير المصادر التي تلقى ضوءاً على أحوال العصر الاجتماعية، كما  
أنها تعتبر خير مصدر لدراسة حياة الصعاليك وتقاليدهم بصورة خاصة .

\* \* \*

هذه صورة من أدب التسول، قد ألمنا بها إلماماً، وهناك صورة  
أخرى منه ممثلة في المقامات، وهي عبارة عن حكايات قصيرة قد صيغت  
بأسلوب أدبي رفيع، يدور كل منها حول رجل واحد بصير بالاحتيال

لكسب الرزق الطفيف عن طريق التكدي .

والمقامات جميع مقامة ، وأصل المقامة في اللغة كالمقام موضع القيام  
كمكانة ومكان ، وقد استعملت في المجلس استعمال الأضداد كقول المسيب :

وكالمسك ترب مقامانهم وترب قبورهم أطيّب

وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كقول ليبد العامري :

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصر قيام

وقول زهير بن أبي سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوهمم وأندية ينتابها القول والفعل

ثم سميت الأحذوثة من الكلام مقامة كأنها تذكر في مجلس واحد تجتمع  
فيه الجماعة لسماعها . قال الشريشي : « والمقامات المجالس واحدها مقامة ،

والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين

للمحدث ما بين قائم وجالس ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ، ويجلس ببعضه

أخرى ، قال الأعمش : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل

الخير » . (١)

وقد تتبع بروكلمان تطور معنى « مقامة » منذ العصر الجاهلي حتى القرن

الرابع فقال ماملخصه إن أقدم معان المقامة يرجع إلى أيام الجاهلية إذ كانت

عبارة عن مجتمع القبيلة ، ثم اتخذت شكلا دينيا في أيام الأمويين إذ أصبحت

أحاديث زهدية تروى في مجالس الخلفاء ، ثم تطور معناها فصارت تقرن

بالشعر والأدب وأخبار الوقائع القديمة . ولما سكنها في القرن الثالث الهجري

تهبط من مستواها الرفيع إلى مستوى السكدية والاستجداء بلغة مختارة ، ولم

تتخذ شكلها الحقيقي إلا على يدي بديع الزمان ثم الحريري .

يتضح من هذا أن المقامات بمعناها الاصطلاحي لم تكن معروفة قبيل البديع، وأن البديع هو أول من ابتدعها من كتاب العربية، وقد أيد الحريري هذا الرأي بما لا يتطرق إليه الشك وذلك حين يقول في ديباجة مقاماته : « وبعد فإنه جرى ببعض أندية الأدب الذي ركزت في هذا العصر ريجحه وخبت مصايحه ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان فأشار من إشارته حكم وطاعته غم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليح ، هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سياق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدي بعده لا نشاء مقامة ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته » (١)

ثم تابع الحريري صاحب صبح الأعشى في هذا فقال : « إن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر ، وإمام الأدب ، البديع الهمداني ، فعمل مقاماته المشهورة ، المنسوبة إليه ، وهى فى غاية البلاغة وعلو الرتبة فى الصنعة » . (٢)

فالتقدم إذن يعترفون بأن البديع هو أول من فتح باب عمل المقامات وأنه أستاذ كل من كتب فى هذا الفن من بعده ، ولم يخالفهم فى هذا المنهج غير أبى إسحق الحصرى صاحب زهر الآداب ، فقد ذهب إلى أن البديع كان متأثرآ بآبان دريد حين كتب مقاماته ، وذلك حين قال فى عرض كلامه على بديع الزمان :

« ولما رأى - أى البديع - أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنخبها من

(١) شرح المقامات للزختمرى ط ليدن ص ٣ (٢) صبح الأعشى ١٤ : ١٠

معادن فكره وأبداها للأبصار والبصائر وأهداها للأفكار والضمائر في معارض عجمية وألفاظ حوشية ، فجاء أكثرها تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له حججها الأسماع، وتوسع فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب منصرفه ، عارضها بأربعمئة مقامة في السكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى، عطف مساجلتها ووقف مناقلتها بين رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الإسكندري وجعلهما يتهاديان الدر ويتناقضان السحر في معان تضحك الحزين وتحرك الرصين ، وتطالع منهما كل طريقة وتوقف منهما على كل لطيفة . .

وقد يظهر لقارى هذا النص أول وهلة أن الحصرى يذهب إلى أن مبتدع المقامات هو ابن دريد لا البديع ، وأن مقامات البديع لم تكن إلا صدى لأحاديث ابن دريد .

هذا ما يتبادر إلى الدهن ، أو يخاطر بالبال حين تقع العين على كلام الحصرى، ولسكننا حين نعيد قراءة هذا النص بامعان وتدقيق يساورنا الشك في صحة هذه الدعوى ، ذلك لأنها لا تستند إلى أساس معقول ، وإلا فأين مواطن التأثير والتأثير المتبادلين بين ابن دريد في أحاديثه وبين البديع في مقاماته؟ وأين العلاقة الفنية بين هذين الأثرين الأدبيين؟ أم هي في خصائص الأسلوب أم هي في المعاني والأفكار؟ أم هي في الموضوع؟ أم هي في هذه الأمور جميعا؟

لم يشر الحصرى في نصه إلى شيء من ذلك ، ولم يتعرض إلى ذكر وجوه الشبه بين أحاديث ابن دريد والمقامات ، تلك الوجوه التي يمكن أن تتخذ

دليلاً على وجود التقليد والاحتذاء بين أديب وأديب ، وربما كان كلام  
الحصرى دالاً على وجود الاختلاف أكثر من دلالاته على وجوه الاتفاق  
بين هذين الأثرين الأدبيين . فأحاديث ابن دريد - كما يقول الحصرى -  
غريبة مسرفة في الغرابة ، غريبة في معانيها ، لأن المؤلف استنبطها من ينابيع  
صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، لأنه جاء بها من عالم الوهم والخيال ،  
وغريبة في لغتها أيضاً لأن المؤلف وضعها في معارض حوشية وألفاظ  
عجبية ، ولهذا كانت هذه الأحاديث مما تنبؤ عن قبوله الطباع ، وتمجحه  
الاسماع .

أما المقامات فقد كانت على العكس من ذلك تماماً ، كانت مألوفاً قريبة  
المأخذ ، سهلة التناول ، لأن المؤلف استمد معانيها من الواقع الملموس ، من  
حياة المسكين الذين كثروا في عصره ، ومن نوادرهم ولطائفهم وطرانقهم ،  
ثم صاغها بألفاظ ، هي در من الدر ، وسحر من السحر ولهذا كانت هذه  
المقامات رقيقة ، تدوب ظرفاً ، جميلة ، تقطر حسناً ، وكانت لطيفة تضحك  
الخرين ، وتحرك الرصين . . . ، ثم هي - بعد ذلك كله - أقرب إلى الفن  
الروائي وأدخل فيه من حيث إنها تقوم على المساجلة والحوار بين شخصين  
ومن حيث إنها تدور على بطل واحد .

وقد يتضح لنا من هذا التحليل أن كلام الحصرى لا يدل على وجود  
خصائص فنية مشتركة بين أحاديث ابن دريد ومقامات البديع وإنما هو يدل  
على أنهما كانا على طرفي نقيض شكلاً وموضوعاً . فإذا صح هذا الاستنتاج ،  
وإذا استقامت مقدماته ، فإن الحصرى لم يكن يرمى في كلامه هذا إلى القول  
بأن في أحاديث ابن دريد ما يشبه المقامات أو مصادر للمقامات ، كما يزعم  
المقدسى ، وإنه لم يكن يريد أن يقول إن ابن دريد هو أول من كتب في

هذه المقامات كما يدعى الدكتور زكي مبارك .

إلى أى شيء يرمى الحصرى إذن؟ وماذا يقصد؟ وهل من سهيل إلى توجيه جديد لهذا النص؟

أغلب الظن أن الحصرى أراد أن يقول إن تأليف ابن دريد - أعني مجرد التأليف - قد أوحى إلى البديع بتأليف مقاماته ، ويؤيد هذا الرأى ما لاحظناه سابقاً من انعدام وجوه الشبه التي لا بد من أن تتوافر بين نصين أدبيين لكي تتحقق المعارضة بينهما .

ويؤيده أيضاً ورود كلمة «عارض» في رواية ياقوت مسندة إلى ضمير يعود على ابن دريد نفسه ، لأعلى أحاديثه الأربعين كما جاء في رواية زهر الآداب ، مما يدل على أن المعارضة وقعت بين صنيع المؤلفين لا بين آثارهما الأدبية . فكأن الحصرى أراد أن يقول إن البديع قد ابتدع مقاماته كما ابتدع ابن دريد أحاديثه، ولهذا فهما متشابهان في عملهما من حيث إن كليهما كان مبتدعاً مبتدعاً لما أنشأ من أدب ، ولكنهما بعد ذلك مختلفان من حيث إن كليهما قد نهج في أدبه منهجاً خاصاً ، تدل عليه تلك الفروق التي لاحظناها سابقاً بين أحاديث ابن دريد والمقامات . ومن هنا أصبحت المعارضة بينهما مستحيلة .

فإذا كان ذلك ما يرمى إليه الحصرى في كلامه ، فإنه ليس بشيء ذى خطر ، ذلك لأن وضع الأحاديث والقصص لم يكن وفقاً على ابن دريد وحده ، وإنما شاركه فيه كثير من الأدباء قدماء ومعاصرين . ولهذا فمن الخطأ أن يقال إن البديع كان متأثراً بابن دريد دون غيره من الكتّاب ، إذ ما المانع من أن يتأثر البديع بهؤلاء القصاص والرواة الذين عاصروه أو تقدموه ، إن كان وضع الأحاديث والقصص مما يمكن أن يعتبر عاملاً من عوامل



التأثر والتأثير بين أديب وأديب؟ لاشيء طبعاً .

هذا من ناحية ، وأما من ناحية أخرى فإننا لم نجد بين الكتّاب الذين عاصروا بديع الزمان من أخذ عليه هذا المأخذ فرماه بالتقليد أو المجازاة بل بالعكس نجد الخوارزمي - وقد كان خصماً ألد للبيديع - يعجب بالمقامات ويستحسنها ، حتى إنه ليذهب إلى أن البيديع لا يحسن سواها . (١) وتلك شهادة لها قيمتها دون شك ، لأنها صادرة عن كاتب قدير كان يتسقط هفوات خصمه ، ويتربص به الدوائر . فلو كانت المقامات تقليداً أو احتذاءً لأحاديث ابن دريد لما فات الخوارزمي أن يتخذ من ذلك وسيلة لمهاجمة البيديع والقدح فيه ، والغرض منه ، كما هاجمه وقدح فيه وغض منه في نواح أخرى .

ونتساءل بعد هذا ، لماذا حمل الباحثون المعاصرون كلام الحضري من المعاني فوق ما يحتمل ، فأساءوا إلى البيديع إذ جحدوا فضله وأضافوا إلى ابن دريد ما ليس له ؟

أكبر الظن أن سبب ذلك إنما يعود إلى اعتمادهم على زهر الآداب دون غيره من المصادر باعتباره الأصل الذي نقل عنه الناقلون فيما بعد . ولكن فاتهم أن هذا الأصل قد دخله التحريف فأحال معناه ، وجعله متهافتاً ، متناقضاً ، فنحن إذ نقارن بين ما ورد في زهر الآداب وما ورد في معجم الآداب نجد اختلافاً واضحاً بين الناقل والمنقول عنه في أكثر من موضع . مثال ذلك أن عبارة : « وأهداها للأفكار والضمائر في معارض عجمية وألفاظ حوشية » ، قد وردت في معجم ياقوت على هذا النحو : « وأهداها... في معارض حوشية وألفاظ عنجبية » ، وأن عبارة : « عارضها ... » قد وردت فيه هكذا « عارضه ... » . (٢)

(١) رسائل الهمداني ص ٣٨٩ - ٣٩٠ (٢) معجم الآداب ٢ : ٩٧٠

تري أى الروايتين أقرب إلى الصواب؟ رواية ياقوت أم رواية زهر الآداب؟  
رواية الناقل أم رواية المنقول عنه؟ . لاشك عندي فى أن رواية ياقوت أصح  
من رواية زهر الآداب ، بالرغم من أن الأولى مأخوذة عن الثانية ، فقد يتراعى  
لى أن أيدى النساخ قد عبثت بهذا الأصل فحرفت ألفاظه عن مواضعها ،  
فتغير معناه تبعاً لهذا التحريف ، أستدل على ذلك من ورود كلمة « عجمية »  
فى غير موضعها ، من إقحامها فى كلام لا ينسجم معها لفظاً ولا معنى ، إذ  
استعملت فى ثنايا كلام سيق فى وصف أحاديث منتزعة من صميم الحياة  
العربية القديمة ، بعيدة كل البعد عن الحياة الفارسية ، تلك هى أحاديث ابن  
دريد . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن يكون الحديث عن  
مقاول حمير ثم يوضع فى معارض عجمية ؟ بل كيف يوضع ذلك الحديث  
فى معارض عجمية ثم تنبو عن قبوله الطباع ولا ترفع له حججها الأسماع ؟  
وهل كانت هذه الأسماع وتلك الطباع إلا فارسية ، عصرية ؟ فلماذا إذن تنبو  
عنه ولا تأنس به ؟

ما من ريب فى أن استعمال « عجمية » فى مثل هذا الموضع من كلام  
الحصرى يجعله متناقضاً ، ولا سبيل إلى اجتناب هذا التناقض إلا إذا سلطنا  
بصحة عبارة ياقوت ، أعنى إلا إذا اعتبرنا « عجمية » محرفة عن « عجمية »  
و « عارضها » محرفة عن « عارضه » ، وهكذا .

وليس غريباً بعد ذلك أن نرى المعاصرين يخذعون عن أنفسهم بهذا  
التحريف الذى أصاب كلام الحصرى فى زهر الآداب فيذهب بعضهم - وقد  
ضلته عبارة « فى معارض عجمية » الواردة فى وصف أحاديث ابن دريد -  
إلى القول بأن ابن دريد هذا قد « ابتكر نوعاً من الآداب اشتقه من الحياة

الفارسية ليعارض به أدبها ، (١) ، مع أن هذا النوع من الأدب لم يكن من الحياة الفارسية في شيء . وقد أشرنا إلى ذلك منذ قليل . وكذلك يذهب آخرون ، وقد ضللهم النص المحرف ولا سيما عبارة « عارضها بأربعمائة مقامة » ، إلى القول بأن ابن دريد هو أول من ركض في هذا المضمار (٢) ، وأن أحاديثه كانت من أهم الأصول التي اعتمدها بديع الزمان في إنشاء المقامات . (٣)

لقد زعموا ذلك دون أن يؤيدوا زعمهم هذا بالحجة والدليل ، اللهم إلا المقدسي ، فإنه حين افترض وجود صلة فنية متينة بين المقامات وأحاديث ابن دريد حارل أن يدلل عليها بما يمكن أن يكون بينهما من خصائص فنية مشتركة ، ولهذا لجأ إلى الموازنة فخرج بهذه النتيجة ، وهي أنك : « إذا راجعت أحاديث ابن دريد المروية في أمالي القالي تجد في جميعها روح الحكاية . كما تجدها في المقامات ، وتجد فيها هذا الميل إلى التسجيع في أثناء الوصف . . . » (٤)

ذلك أم ما توصل إليه المقدسي من الخصائص المشتركة بين هذين الأثرين الأدبيين مطمئناً إلى أنها تكفي لإثبات تلك الصلة الفنية التي ادعى أنها صلة متينة لا شك في متانتها .

وليس من شك في أن اطمئنان المقدسي إلى هذه النتيجة أمر غريب جداً لأنه مبني على أساس واه متداع ، ذلك لأن روح الحكاية والميل إلى التسجيع

(١) تاريخ الأدب العربي للسابعي ص ٢٦٢

(٢) الأدب العربي للإسكندر ص ٢١١

(٣) تطور الأساليب الثرثرة للمقدسي ص ٣٧٨

(٤) المصدر السابق ص ٣٨١

لم يكونوا من خصائص المقامات وأحاديث ابن دريد وحدهما، بل كانا من الخصائص العامة التي نجدتها في الأحاديث والأسمار والأخبار والقصص . ونظرة عامة إلى الحياة الأدبية في القرن الرابع توحى إلينا بأن كلف الأدباء بالسجع ونزعتهم إلى القصص كانا من الظواهر الأدبية الشائعة في هذا العصر، وإذا كان الأمر كذلك فإنه من الخطأ أن نعتبر البديع متأثراً بابن دريد إذا ما نزع إلى القصص أو مال إلى السجع في مقاماته ، ولا نعتبره متأثراً بالذوق الأدبي العام في عصره .

بعد هذا كله نستطيع أن نقول إن المقامات بمعناها الاصطلاحى أو بشكلها الفنى المعروف لم تتحقق إلا على يدى بديع الزمان الهمداني ، كما نستطيع أن نقول إن البديع هذا لم يكن متأثراً حين أنشأ هذه المقامات بأحد من الكتاب الذين سبقوه ، وإنما كان متأثراً بواقع الحياة العامة : بالبؤس والحرمان والإملاق ، تلك الظواهر الإجتماعية التي حملت كثيراً من الناس على التكسب والتسول بمختلف الوسائل والحيل فكان منهم الغزاة المتصنعون والأعراب المنتجعون ، والزهاد وأبناء السبيل ، والخواة والقرادة والسحرة والمشعوذة والقصاص ، والنائحون وغير ذلك ممن تألفت منهم تلك الطائفة الكبيرة الذين كانوا يسمون بالساسانية أو بنى ساسان . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

فالمقامات إذن كانت صدى لحرقة الكديه ، وصورة لحياة المسكين ، ولهذا لم تكن بدعاً بين الآثار الأدبية في هذا العصر في أسلوبها ومعانيها فهي من حيث الأسلوب خاضعة للذوق الأدبي العام الذى كان يكلف بالسجع ويهيم بالمحسنات البديعية ، ويميل إلى تضمين النثر حكماً وأمثالا وأشعاراً وهي - من حيث المعانى - لم تكن تختلف عما أثر عن شعراء

الصعاليك من شعر صعلوكي .

وإذا شئت دليلاً على ذلك فاقراً القصيدة الساسانية لأبي دلف الخزرجي والدالية للأحنف العكبرى وغيرهما ، ثم اقرأ المقامات ، ثم وازن بين هذه وتلك ، فإنك ستجد مصدر الإلهام في جميعها واحداً ، وستجد الكثير من المعاني والأفكار والآراء مشتركا ، أريد أن أقول إن جميع هذه الآثار الأدبية كانت تصدر عن واحد هو الصعلكة ، وأن جميعها كان يصور حياة الصعاليك وما لازمها من تشرد واغتراب وذلة وبؤس ووسائل احتيال ومخرقة ، وما نشأ عنها من آراء وحكم تقال في الناس والزمان والحياة ، ولهذا نجد أبا الفتح - كما صوره البديع في المقامات - يشبه الأحنف وأبا دلف وغيرهما من الصعاليك في أخلاقه وسلوكه وتشرده وحيله وآرائه ، حتى إننا نراه ينطق بلسان أبي دلف في بعض الأحيان ، إذ استعار قوله في الزمان فخنم به إحدى المقامات .

وعلى هذا ، كانت المقامات نوعاً من أدب الصعلكة الذي ازدهر في هذا العصر ، وليكنها ، بعد ذلك ، تمتاز عنه بأسلوب أدبي رفيع بعيد عن التكلف والإغراب ، خال من الألفاظ والعبارات الصعلوكية التي نجدتها في شعر أبي دلف وابن الحجاج مثلاً ، كما أنها تمتاز بنزعتها القصصية من حيث إنها قائمة على الحوار والنقاش بين شخصين خياليين ، ومن حيث إنها تدور حول بطل واحد هو أبو الفتح الإسكندري ، فهي إذن رواية ، أو شبيهة بالرواية ، ذات فصول متعددة أراد المؤلف أن يصور بها حياة الشحاذين ممثلة في شخص أبي الفتح الإسكندري .

ونحن إذ نقرأ المقامات نجدتها تصور أبا الفتح مجرباً قد عرك الحياة وعركته فيلأ حلوها ومرها ، وتصوره ملماً بأطراف ثقافة واسعة ، فيقول الشعر

« يمتزج بأجزاء النفس رقة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقة » .<sup>(١)</sup>  
ويغشى مجالس الأدب ويشارك فيها يدور فيها من مذاكرات ومناقشات  
حول الأدب والآداب ، سائلا ومجيبا ومباحثا وناقداً . فقرأه مثلاً يسأل  
الحاضرين « عرفوني أى بيت شطره يرفع وشطره يدفع ؟ وأى بيت نصفه  
يغضب ونصفه يلعب (٢) » ؟ ويجيبهم إذا سألوه عن شاعر كزهير  
فيقول : (٣) « يذيب الشعر والشعر يذيبه ويدعو القول والسحر يجيبه » ،  
وتراه أيضاً يبدى رأيه فى الجاحظ وأدبه فيقول : (٤) « فهلوا إلى كلامه  
فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان  
الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله » .

وكذلك نجد لها تصوره متجليا بالعلوم ، قد راض صعا بها ، وخاض  
بجارها ، حتى كان له فى كل كثافة سهم<sup>(٥)</sup> . وتصوره فقيها يحسن النقاش  
فى المسائل المذهبية ، حين يهاجم المعتزلة ويدحض آراءهم واحداً بعد  
واحد بالدليل والبرهان بمثل قوله : (٦) « وتقولون خالق الظلم ظالم أفلا  
تقولون خالق الهلك هالك ؟ أتعلون يقينا أنكم أخبث من إبليس ديناً ؟  
قال : رب أغريتنى ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم . وتقولون خير  
فاختار ، وكلا فإن المختار لا يبيع بطنه ولا يفقأ عينه ولا يرمى من خالق  
ابنه » .

هكذا كان أبو الفتح الإسكندرى بطل المقامات : عالماً ، أديباً ، ذا عقل  
راجح ورأى سديد ، وبيان خلاب « يسمع الصم ، وينزل العصم » ، وليكنه  
بالرغم من هذا العلم والفضل رضى بالعيش الرذل واطمأن إليه ، أعنى أنه

- 
- (١) المقامة الأسدية (٢) المقامة الشعرية (٣) المقامة القرظية  
(٤) المقامة الجاحظية (٥) المقامة العراقية (٦) المقامة المارستانية

رضى أن يعيش عن طريق التسول فأراق ماء وجهه وأهدر كرامته، وتبرأ  
من مروءته . وهان على نفسه حتى صدق عليه قول الشاعر :

من ين يسهل الهوان عليه      ما الجرح بميت إسلام  
ولسكن لماذا رضى أبو الفتح الإسكندري بهذا المصير التعس فعاش  
صعلوكا متشرداً ، مهين الكرامة ، ذليل النفس ، وقد كان له من أدوات  
العلم والفضل والذكاء ما يمكنه من العيش حراً كريماً بين أبناء وطنه ؟  
يخيل إلى أن بديع الزمان حين أخرج بطله على هذا النحو أراد أن  
يتخذ منه رمزاً للرجل العالم الفاضل الذى تقسو عليه ظروف الحياة  
فتضطره إلى الانحدار فى هوة السكدية اضطراراً ، أو أنه أراد أن يتخذ منه  
مثلاً لهؤلاء الأدباء والعلماء الذين ألح عليهم الحرمان فحملهم على السخرية  
من العقل والعلم والأدب والتقاليد ، والانضواء تحت راية السخف والهزل  
والاستهتار ، إذ ليس من الصعب علينا أن نجد بين أدباء العصر البويهى من  
يشبه أبا الفتح الإسكندري من وجوه كثيرة كابن الحجاج وابن سكرة  
وأبى الورد، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى وبديع الزمان  
الهمداني نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف .

ولسكن لماذا نكلف أنفسنا مشقة التخييل والظن فى التعرف على  
الأسباب التى حملت هذا الرجل المثقف على التكدى والتسول ، وهو نفسه  
يصرح بهذه الأسباب فى كل مقامة من مقاماته .

فقد ألقى عيسى بن هشام على أبى الفتح مثل هذا السؤال فى غير موضع  
من المقامات ، فأجابه بما لا يخرج فى معناه عن قوله هذا : (١)  
هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

---

(١) المقامة السامانية

الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم  
والمال طيف وليكن حول اللثام يحوم

أو قوله : (١)

بؤسا لهذا الزمان من زمن كل تصاريف أمره عجب  
أصبح حربا لكل ذى أدب كأنما ساء أمه الأدب  
فأبو الفتح الإسكندري إذن يصرح بأنه لم يكن حراً في تصرفه وسلوكه  
في الحياة ، وإنما كان يصدر في هذا التصرف وهذا السلوك عن عوامل  
قسرية قاسية تضطره إلى أن يسير في هذه السبيل أو تلك اضطراراً دون أن  
يكون له في ذلك إرادة أو اختيار ، شأنه شأن الريشة في مهب الريح ، أو  
السفينة في عرض البحر تتقاذفها أمواجه ، ذلك لأن هذا الزمان الغشوم  
العاقى لا ينفك يحارب أهل العلم والأدب والفضل دون هوادة أو لين ،  
بينما تراه يسالم الأذنياء وضعاف النفوس وصغار الأحلام وسخفاء العقول  
ويفسح لهم من صدره مكاناً رحيباً ، حتى لقد أصبح الحق والغباء وضعف  
العقل من الأمور المستحسنة التي لاغنى للإنسان عنها في هذا الزمان ، كما أصبح  
المال - وهو عماد الحياة - سريعاً في انتقاله سرعة الطيف ، وشيك التحول  
كثير التردد ، وليكنه إنما يحوم حول اللثام الخبيثاء ولهذا أصبح لزاماً على  
من يريد أن يثرى أو يكون ذا مال ، أن يتخلق بأخلاقهم ويتصف  
بصفاتهم .

وإذا كان هذا أمر الزمان ، وتلك صفات أهله ، فما ذنب أبي الفتح إذا ما  
أهمل عقله وازدرى علمه وأدبه ، وانطلق في سخفه وهزله سعياً وراء الرزق  
والقوت ؟

(١) المقامة المراقية



لا شك في أنه على حق إذا تصعلك وتسول، وإذا احتال ومخرق، وإذا  
تجانن وتساخف، وإذا دجل وموه، وهو الذي قد جمع جمع به الدهر عن ثمة  
ورمه، وأتلاه زغاليل حمر الحواصل... ونشزت عليه البيض وشمست  
منه الصفر وأكلته السود وحطمته الحر... الخ. (١)

ولهذا فلا نعجب إذا رأينا أبا الفتح ينحدر إلى هوة السكدية فيحمل  
أوزارها وتبعاتها الثقيلة المزرية بالكرامة والمروءة، فيجعل حياته كلها  
سلسلة من الأسفار والمغامرات في طلب المال.

وإن نظرة بسيطة إلى المقامات تصور لنا أبا الفتح جوالاً، خفيف الحركة  
سريع التنقل، كثير التلون، وتصوره حولا قلبا في أخلاقه وطباعه، وفي  
حيله وأساليبه، وفي آرائه وأفكاره، فقد كان أبو الفتح يلبس لكل حالة  
لبوسها، لأنه يريد أن يلائم بين سلوكه وبين بيئته، وأن يجارى زمانا أمعن  
في الباطل وتمادى في الغرور، ولذلك كان من الخفة والنشاط بحيث يستطيع  
أن يتغير ويسرع في التغير كلما تغيرت ليالي الزمان. وإن شئت شاهدنا على  
ذلك فاقراً قوله هذا: (٢)

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور  
لا تلتزم حالة والسكن در بالليالي كما تدور

كذلك كان أبو الفتح لا يثبت على حال كما كان زمانه لا يثبت على  
حال. نلاحظ ذلك في كثرة تنقله واضطرابه في البلاد، فهو لم يترك بلداً في  
العراق وفارس وسجستان وخراسان وقزوين وطبرستان وأرمينية وأذربيجان  
والأهواز وبلاد العرب وغيرها إلا دخله، وفي ذلك يقول: (٣)

(١) المقامة البصرية (٢) المقامة القرظية (٣) المقامة الأذربيجانية

أنا جواله البلا د وجوابه الأفق  
أنا خذروفة الزما ن وعمارة الطرق  
لا تلنى لك الرشا د على كديتى وذق

ونلاحظ ذلك أيضا في تنوع أساليبه وحيله في التسول وفيما يعقب عليها من آراء وحكم يبرر بها سلوكه في اكتساب الرزق ، فتراه مثلا في المقامة الساسانية زعيما لكتيبة من بنى ساسان قد لفوارؤوسهم وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجرا يذق به صدره ، يقول وهم يرسلونه ، ويدعو ويجاوبونه .

وفي المقامة الخمرية إماما يصلى في الناس وناسكا يدعوهم إلى اجتناب الخمر أم الكبائر ، ولكنه ما إن ينتهى من صلاته وخطبته في المسجد حتى يؤم الحان ليقوم بوظيفة المطرب فيه ، فإذا كشف أمره وعوتب في ذلك قال مفتخراً :

دع من اللوم ولكن أى دكك تـرانى  
أنا من يعرفه كل تـهانى ويمانى  
أنا من كل غـبار أنا من كل مسكان  
ساعة ألزم محرا بأ وأخرى بيت حان

وفي المقامة القزوينية متنكراً في زى الغزاة المجاهدين ، يخطب الناس فيقول : يا قوم وطئت داركم بعزم لا العشق شاقه ولا الفقر ساقه وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وخيلا مسومة وقتا طير مقنطرة وعدة وعديداً ومراكب وعبيداً وخرجت خروج الحية من جحره وبرزت بروز الطائر من وكره ، مؤثراً ديني على دنيائى ، جامعاً يمنائى إلى يسراى ، وأصلا سيراى بسراى ، فلو دفعتم النار بشرارها ورميتم

الاروم بحجارها واعتتموني على غزوها ، مساعدة وإسعاداً ، ومرافدة  
وارفاداً ولا شطط فكل على قدر قدرته ، وحسب ثروته ، ولا أستكثر  
البدرة وأقبل الذرة ولا أرد القرة . . . حتى إذا انتهى من كلامه قال له  
أحدهم : أنت من أول النبيط ؟ فيجيب بقوله :

أنا حالي من الزما ن كحالي مع النسب  
نسبي في يد الزما ن إذا ساهم انقلب  
أنا أمسى من النبيط وأضحى مع العرب

وفي المقامة القرديّة قراداً ، يرقص قرده ، ويضحك من عنده ، فإذا  
فرغ من شغله وانفض المجلس من حوله قال له عيسى بن هشام بعد أن  
سوف أمره : ما هذه الدناءة ويحك ؟ فأجاب :

الذنب للأيام لا لي فاعتب على صرف الليالي  
بالحق أدركت المنى ورفلت في حلل الجمال

وفي الموصلية دجالاً يدعى إحياء الموتى وكشف الضر والبلاء ، فتجوز  
حيله على الناس المغفلين ، ويفوز منهم بالطعام والشراب ، ثم يفر هارباً  
وهو ينشد :

لا يبعد الله مثلي وأين مثلي أيننا ؟  
لله غفلة قوم غنمتها باللهويننا  
أكتلت خيراً عليهم وكلت زوراً وميننا

هكذا كانت حياة أبي الفتح ، ذلك الشحاذ المثقف ، قائمة على الأسفار  
والاغتراب والتشرد والدجل والتمويه والاحتيال ، وكانت على اختلاف  
تواحيها مبنية على مبدأ « الغاية تبرر الوسطة » ، ذلك المبدأ الذي ساد  
جوانب الحياة الاجتماعية في العصر البويهى .

يظهر لنا بما تقدم أن المقامات في مجموعها كانت صدى لظاهرة السكدية كغيرها من فنون الأدب الصعلوكي ، ولم تكن فناً من الأدب يقصد منه التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر كما خيل لابن الطقطقي . (١)

\*\*\*

وأما أدب الشكوى ، وهو النوع الثاني من أدب الحرمان ، فقد كان أثراً لما أصاب الناس في هذا العصر من ضروب المحن والنكبات وألوان الفاقة والبؤس ، فذوو المناصب الكبيرة كثيراً ما كانوا يتعرضون للقتل والسجن واستصفاء الأموال ، والأغنياء قبلما تصفوا لهم الحياة لأنهم مهـددون بالاستيلاء على أموالهم ، والمثقفون لا يكادون يحصلون على الكفاف من العيش والطبقة العامة فريسة للجوع والمرض والجهل .

وقد كثر تعرض الناس للبلاء حتى قال ابن زرعة في ذلك : (٢)  
« والناس أهداف لأغراض الزمان ، مقلبون بحوادث الدهور ، ولا فئكك لهم من المنكاره ، كما قالت العامة في التحذير من التعرض له « تنح عن طريق القافية » .

لهذا كثرت الشكوى من النكبات والظلم والفقر وسوء الحال كثرة هائلة لانجد لها مثيلاً في أي عصر من العصور ، فمكان من أثر ذلك هذا الأدب الشاكي الحزين الذي نقرأه في دواوين الشعراء ورسائل الكتاب يندبون فيه الحظ العاثر ، ويشكون فيه الجوع والعري وقلة الرزق ويسجلون فيه مرارة الفشل والإخفاق في ميدان الحياة .

فهذا أبو إسحق الصابي على ما كان يتمتع به من مكانة ممتازة ومحل

(١) الفخرى ص ١٣ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣ : ٢٣

رفيع في الدولة ، دفع في أيام عضد الدولة إلى النكبة العظمى والطامة الكبرى ،  
فألقى في السجن سنين قال خلالها كثيراً من الشعر الشاكي أفرد له صاحب  
اليتيمة فصلاً خاصاً به نذكر منه هذه الآيات :

أخرج من نكبة وأدخل في أخرى فنجسى بهن متصل  
كأنها سنة مؤكدة لا بد من أن تقيمها الدول  
فالعيش مر كأنه صبر والموت حلوه كأنه عسل  
وهذا أبو بكر القومسي الفيلسوف كان من الضر والفاقة ومقاساة  
الشدة والإضاعة بمنزلة عظيمة ، قال يوماً :

« ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغ مني ، إن قصدت  
دجلة لاغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لا تميم بالصعيد  
عاد صلباً أملس ، وكان العطوى ما أراد بقصيدته غيري وما عني بها  
سواي ثم أنشد : (١) »

من رماه الآلهة بالإقتار وطلاب الغنى من الأسفار  
هو في حيرة وضنك وإفلاس وبؤس ومحنة وصغار

\* \* \*

هجم البرد مسرعاً ويدي صفير وجسمي عار بغير دثار  
فتسرت منه طول التشارين إلى أن تهتك أستاري  
ونسجت الأطمار بالخيط والإبرة حتى عريت من أطماري  
وسعى القمل من دروز قبضي من صغار ما بينهم وكبار  
يتساعون في ثيابي إلى رأسي قطاراً تجول بعد قطار  
ثم وافى كانون وأسود وجهي وأتاني ما كان منه حذارى  
وهذا أبو حيان التوحيدى على « علمه الواسع وأدبه الفياض وفلسفته

(١) معجم الأدباء ١٥ : ١٠

وبلاغته وتصوفه واتصاله بالوزراء والعلماء وكده في الحياة بالوراقة ونسخ  
السكتب . . . . . (١) ، كان يشكو فقره وبؤسه ، ويكثر من الشكوى بأسلوب  
يستثير الدمع ويبعث على الرثاء والإشفاق ، فمن ذلك قوله في مقدمة كتاب  
الصدقة والصديق : (٢)

« . . . . . ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس  
من الحرق والأسف والحسرة والغيط والكمد والومد ، وكأنني بغيرك إذا  
قرأها تقيضت نفسه عنها وأمرت نغده عليها وأنكرت على التطويل والتحويل  
بها وإنما أشرت بهذا إلى غيرك لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك  
وذلك لعلمك بحالي واطلاعاك على دخلي ، واستمراري على هذا الإنفاض  
والعوز اللذين قد نقصنا قوتي ونكثا مرتي وأفسدا حياتي وقرناني بالآسى  
وحجاباني عن الآسى لأنني فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق  
. . . . . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب  
الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ،  
محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقفاً لما لا بد من حلوله ، فشمس  
العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيدش إلى أقول ، وظل  
التلبث إلى قلو ص . . . . »

وقوله من رسالة وجهها إلى أبي الوفاء المهندس : (٣)

« خلصني أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني  
من قيد الضر . . . . أكنفي مؤونة الغداء والعشاء . !

(١) ظهر الإسلام ص ١١٦ (٢) الصدقة والصديق ص ٥

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٣ : ٢٢٦

إلى متى السكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذاوية ، والقميمص المرقع ، وباقلي  
درب الحاجب ، وسذاب درب الرواسين ؟ إلى متى التآدم بالخبز والزيتون ؟  
قد يح والله الخلق وتغير الخلق ، الله ، الله ، في أمرى !  
اجبرنى فإننى مكسور ، اسقنى فإننى صد ، أغنى فإننى ملهوف . . . قد  
أذلتنى السفر من بلد إلى بلد ، وخذلتنى الوقوف على باب باب ونكرنى  
العارف بى وتباعده عنى القريب منى .  
وهذا شاعر من الشعراء يحن إلى الطعام ويتحسر عليه ولا يخفى حقه  
على المنعمين فيقول :

نفسى تحن إلى الهلام م الموت من دون الهلام  
من لحم جمدى راضع رخص المفاصل والعظام  
هذا لأولاد الحظا يا والبغايا والحرام  
حتى القدور الراسيات وإن صمدن عن الكلام  
وقصاعهن إذ أتيتك طافات ، بالسلام

وكما شكوا الأدباء من النكبات والفقر والجوع وما إليها ، كذلك شكوا  
من الزمان وتبرموا بأهله حتى لقد أصبح الشعر الذى قيل فى هذا الموضوع  
وتناً قائماً بذاته عند كثير من الشعراء لكثرة ما نظفوا فيه من شعر  
كابن لئلك البصرى والشريف الرضى وابن الججاج وأبى الحسن السامى  
وابن سكرة الهاشمى وأمثالهم حتى إنه قلما نجد أديباً فى هذا العصر لم يكن  
له شعر أو نثر فى هذا الباب .

ومما لا ريب فيه أن مصدر هذه الشكوى من الزمان هو الخطوب  
والحن التى ألحت على الناس فى هذه الفترة فطبعت حياتهم بطابع الحزن

والكآبة وولدت في نفوسهم حقداً على هذه الأوضاع الفاسدة وبغضاً لها، فلما أرادوا أن يعبروا عن آلامهم وأشجانهم ويفصحوا عن سخطهم ونقمتهم على بواعثها وأسبابها لم يستطيعوا أن يكونوا صرحاء في مواجهة الظالمين والطغاة بظلمهم وطغيانهم خوفاً من البغاش والتسكيل . لهذا تجاهلوا مصدر الفساد الحقيقي وكنوا عنه بالزمان أو الدهر أو الدنيا أو نحو ذلك من الألفاظ التي توهمها قوة مسيطرة على هذا العالم تدبر شؤونه وتصرف أموره ، فنسبوا إليها كل ما يصيب الإنسان في هذه الحياة من خير وشر .

بيد أن هذا الزمان ، أو ما يرادفه من الألفاظ ، أعشى ، يتصرف في مقدرات البشر على غير أساس من العدل والإنصاف ودون تمييز بين الحق والباطل ، فيقبل ويدبر ، ويتسم ويعبس ، ويفى ويفدر على غير هدى ولا بصيرة .

فهذا الزمان إذن مصدر البلاء وأس الداء ، فهو لذلك جدير بمحمد البائسين والمنكوبين ، خليق بالذم والثلب والهجم بأشنع الأوصاف ، وهؤلاء الأفراد من بني الإنسان الذين يجارونه في نزقه وطيشه وعشه ، ويسرون في ركبته هم أيضاً شركاء معه في الإثم يستحقون اللوم والتقريع والذم .

هذه الحياة النفسية السكتية التي سيطرت على الناس في هذه الحقبة قد أنتجت شعراً غنائياً حزينا لعله أروع وأصدق ما قيل من شعر زمن بني بويه ، ذلك لأن المعاني التي تناولها هذا الشعر مشتركة بين الناس على اختلاف الزمان والمكان ، ولأنها خالدة ما بقي على وجه الأرض ظلم واستعباد واستغلال ، إذا قرأناها أحسنا في القلب وجيبا ، وفي النفس اختلاجاً ، لأنها تعبر عما في



صدورنا من سخط ونقمة على ما في دنيانا من أمور مقبلوبة وأوضاع معكوسة ، ونظم فاسدة أورثتنا كثيراً من ألوان البؤس والحрман ، ومن هنا كان الخلود صفة لازمة لأدب الشكوى من الزمان .

وربما كان ابن لنكك البصرى ، أبو الحسن محمد بن محمد ، أكثر الناس شكوى من الزمان وأشدهم سخطاً على أبنائه ، وقد قال فيه الثعالبي إنه « فرد البصرة وصدر أدبائها ، وبدر ظرفائها في زمانه ، والمرجع إليه في لطائف الأدب وطرائفه طول أيامه ، وكانت حرقة الأدب تمسه وتجشمه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه (١) ، ولهذا بالغ ابن لنكك في هجو الزمان والدنيا ، فرماهما تارة بالجنون والمجون والضلال ، وأخرى بالجور والعسف والتفاهة ، كقوله :

يا زمانا ألبس الأحرار ذلاً ومهانه  
لست عندي بزمان إنما أنت زمانه  
كيف نرجو منك خيراً والعلافيك مهانه ؟  
أجنون ما نراه منك يبدو أم مجانه ؟

وقوله :

جار الزمان علينا في تصرفه  
عندي من الدهر ما لو أن أيسره  
وأى دهر على الأحرار لم يجر ؟  
يلقى على الفلك الدوار لم يدر

وقوله :

لا مكث الله دنيانا فقيمتها  
ليست تفي عند ذى عقل بقيراط  
دنيا تأبت على الأحرار عاصية  
وطاوعت كل صفعان وضراط

(١) اليتيمة ٢ : ١١٦

وبالغ أيضا في هجو أهل زمانه وتلبيهم ، فرماهم بالجهل والحق وقلة  
الإنصاف والذل واللؤم ونحو ذلك ، وشبههم بالبقر والحميز والسحاب الخالي  
من المطر ، والسرو الذي ليس له ثمر . . . . . الخ .  
فقال :

لا تخدعناك اللحي ولا الصور      تسعة أعشار من ترى بقر  
تراهم كالسحاب منتشراً      وليس فيه لطالب مطر  
في شجر السرو منهم مثل      له رواء وما له ثمر

وقال :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم      وبقيت في خلف بلا أكناف  
بطيالس وقلائس محشوة      يتعاشرون بقلة الإنصاف

وقال :

لم يبق حر إليه يختلف      بل كل نذل عليه مختلف  
يا فلكا دار بالندالة والجم      ل إلى كم تدور يا خرف ؟  
فعاقل ما يبيل أنملة      وجاهل باليسدين يغترف

وهكذا أمعن ابن لنكك في ذم الزمان وثلب أبنائه ، ولسكن الزمان  
كان معنا في خذلانه ، جاداً في الإساءة إليه ، فبقى طول حياته حليف الهمم  
والحسرة والضجر ، يردد هذا اللحن الكشيب :

إن أصبحت همي في الأفق عالية      فإن حظي ببطن الأرض ملتصق  
كم يفعل الدهر بي ما لا أسر به      وكم يسيء زمان جائر حنق ا  
كم نفخة لي على الأيام من ضجر      تكاد من حرها الأيام تحترق

\* \* \*

أما الشعراء الذين لجوا أبواب الحياة ، وجالوا في ميادينها سعياً وراء

الرزق ، أو طابا للمعالى والمجد ، فنجحوا مرة وأخفقوا مرات ، فإنهم  
صوروا الزمان خصما جباراً ، قوى الشكيمة ، شديد المراس ، لا يغلب ،  
يصارع الأقوياء ، ويعبث بالضعفاء ، فإذا هم جميعاً فريسة للنسكيات  
والأحزان . ومن ذلك قول تاج الدولة :

حتى متى نكبات الدهر تقصدني      لا أستريح من الأحزان والفكر  
إذا أقول مضى ما كنت أحذره      من الزمان رمانى الدهر بالغير

وقول ابن نباتة السعدي :

في كل يوم لنا في الدهر معركة      هام الحوادث في أرجائها قلق  
حظي من العيش أكل كل غصص      مر المذاق وشرب كل شرقي  
وصوروه حولاً قلباً ، يتغير ويتبدل ، كالموس ، لا يبقى على حال ،  
كقول الشريف الرضي :

وخلائق الدنيا خلائق موسم      للمنع آونة وللإعطاء  
طوراً تبادلك الصفاء وتارة      تلقاك تنكرها من البغضاء  
ونعتوه بالخسة والقيح والعسف      والرعونة ، والطيش والغدر ، ونحو  
ذلك ، كقول الصابي :

قاسيت من دهرى سفيها      ما إن رأيت له شديها  
ثبتت نصال سهامه      في ثغرة لي تفتحيها  
فكأنني استقبلته      بمقائلي إذ أتقيها

وقول ابن الحجاج :

إلى كم يخاسني دائماً      زمانى المقبح في عشريني  
تحيفني ظالماً غاشماً      وكدر بعد الصفاء عيشتي

وقول الشريف :

بليت وغيرى لا يبتلى بأمرين ما فيهما مطعم  
بدهر ألوم ولا يرعوى ومولى أقول ولا يسمع

تلك إلمامه عامة بأدب الحرمان تصور لنا جانبا من جوانب الحياة  
الاجتماعية فى العصر البويهى ، أرجو أن أكون قد وفقت فى عرضها  
بعض التوفيق .



## الفصل الثالث

# أدب المجنون

لم يكن المجنون غريباً عن المجتمع الإسلامي طوال القرون الثلاثة التي سبقت هذا العصر ، بيد أنه كان محصوراً في نطاق ضيق ، وفي بيئات محدودة ، كان مقصوراً على طائفة الخلعاء والمستهترين يمارسونه في مجالسهم الخاصة ، أو في بعض المحلات العامة في شيء كثير من التستر والاستخفاء ، ذلك لأن الرأي العام في المجتمع الإسلامي حينذاك كان يستنكر المجنون ويأباه ، ولأن السلطان كان يطارد الماجنين وينزل بهم العقاب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فالأحوص والعرجي والوليد وأبو نواس وأضرابهم كانوا يلقون من الحكومة أذى واضطهاداً ونفيّاً وسجنناً كما كانوا يلقون من الناس نبذا وإعراضاً واستنكاراً.

أما في القرن الرابع في ظل بني بويه ، وفي فارس والعراق خاصة فقد كان الأمر مختلفاً جداً عن قبل ، ذلك لأن المجنون قد أصبح في هذا العصر شيئاً مألوفاً ، لا ينكره العرف ولا يأباه الذوق الاجتماعي ، ولأن الحكومة في هذا العصر أيضاً لم تعد ترى في ممارسة هذا المجنون ما يوجب حداً أو عقاباً ، بل بالعكس كانت تنظر إلى الزنا والرقص في المحلات العامة مثلاً نظرها إلى أية وسيلة من وسائل الارتزاق المشروعة كالزراعة والتجارة فهي لذلك كانت تفرض على الزواني والراقصات في فارس ضريبة

تضمنها لمن يشاء . قال الأستاذ متر : (١) ، وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام ٣٠٠ هـ حال البغاء في الصين وتكلم عن الزواني ، وهن يثبتن في ديوان خاص بهن ، يسمى ديوان الزواني ، وعليهن في كل سنة ضريبة يؤدينها لبيت المال ثم قال : « ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن ، ولسكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ للشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة وكان يضمن هذه الضريبة . يقول البيروني بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات طلباً للمال : « وهكذا كان عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية من عزاب الجند . » وقد أخذ الفاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش . »

وإذا كان هذا موقف الأمة والسلطان معاً تجاه المجون فإننا نستطيع أن نتصور بعد ذلك كيف يكون السبيل ممهداً لانتشار اللهو والعبث والخلاعة ، وكيف يكون الاستخفاف والاستهتار بالدين والأخلاق والتقاليد الاجتماعية .

فكان من نتيجة هذا التساهل من جانب الأمة والحكومة أن كثرت دور البغاء العلني ، وبيوت الغناء واللهو والخلاعة في المحلات العامة والخاصة . يدلنا على ذلك ما تحدث به المقدسي عن شيوع الفسق والفجور في فارس والأهواز فقال وهو يتكلم عن مدينة السوس قصة خوزستان : « ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة ، ثم لا ترى لقرائهم ولا لمشايخهم هيبته ولا لمذكريهم قيمة ولا حسبة ويقطعون أوقاتهم بالرقص . » (٢)

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤١ (٢) أحسن التقاسيم ص ٤٠٧

وقال في أهل شيراز . « عدو لهم لوطة وتجارهم فسقة وسلاطينهم ظلمة...  
يدخلون الحمامات بلا ميازر ، ولا ترى على مجوسى غياراً ، ولا لصاحب  
طيلسان مقداراً . . . ولقد رأيت أهل الطيالس سكارى ، ويلبسه  
المسكدون والنصارى ، وبه دور الزنا ظاهرة ، ورسوم المجوس مستعملة ،  
وفي المقابر مجتمع الفساق » . (١)

ويدلنا على ذلك أيضاً ما تحدث به التوحيدى عن كثرة المغنين والمغنيات  
في بغداد ، وعن شدة شغف الناس بالغناء عامتهم وخاصتهم ، وذلك حين  
يقول : « ولو ذكرت هذه الأَطراب من المستمعين ، والأغاني من الرجال  
والصبيان والجوارى والحرائر لطال وأمل ، وزاحت كل من صنف كتاباً في  
الأغاني والألحان ، وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة » . ثم قال :  
« وقد أحصينا - ونحن جماعة في السكرخ - أربعائة وستين جارية في  
الجانبيين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون  
بين الحنق والحسن والظرف والعشرة ، هذا سوى من كنا لانظر به ، ولا  
نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر  
بالغناء وبالضرب ، إلا إذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخاع العذار في  
هوى قد حالفه وأضناه ، وترنم وأوقع وهز رأسه ، وصعد أنفاسه وأطرب  
جلاسه ، واستكتمهم حاله وكشف عندهم حجاب به وادعى الثقة بهم  
والاستئمانه إلى حفاظهم » (٢)

ومما له عظيم الدلالة على انتشار بيوت اللهو والشراب في المجتمع  
البويهى ما نقرأه في العهود والوصايا الرسمية من أمر بالاشدد على أهل  
الريب والحانات والمواخير ، ونهى عن الملاهى والخمر وسائر المنسكرات

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٢٩ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٨٣

والقبائح .

وهكذا انتشرت مواطن الفسق والفجور والشراب في المحلات العامة والخاصة فعمرت بطلاب اللذة والمتعة يمارسون فيها لذة السكر ولذة الولع بالغلمان والعبث بالجوارى ولذة السماع، وعمرت أيضا بطلاب الدرهم والدينار ممن كانوا يتاجرون أو يتأجرن بالخمر والألحان والغناء والأجساد. والظاهر أن التجارة في هذه المواطن الموبوءة كانت تخضع لقانون العرض والطلب، ذلك أننا نلاحظ في بعض الأحيان هبوطا هائلا في أسعار بضائعها، فقد كان هناك على شاطئ دجلة مكان للهو كان فيه إلى جانب الخمر والغناء ظي غرير أو ظبية غريرة، ومع ذلك لا يدفع قاصده لهذه المتعة إلا درهمين اثنين طول الليل والنهار :

مجلس في فناء دجلة يرتاح إليه الخليل والمستور  
طار في الهواء فالبرق يسرى دون أعلاه والحمام يطير

\*\*\*

ليس فيه إلا نهار وخمر وممات من نشوة ونشور  
وحديث كأنه زهر المنثور حسنا أو لؤلؤ منشور  
وجريح من الدنان تسيل الرا ح من جرحه وقدر تفور  
ولك الظبية الغريرة إن شئت وإن عفتها فظي غرير  
فتمتع بما تشاء نهاراً ثم بت معرسا وأنت أمير  
كل هذا بدرهمين فإن زد ت فأنت المبهجل المحبور

وكان العابثون الذين يرتادون هذه المواطن يعكفون على اللذات في شره ونهم شديد، ويمارسونها دون تستر أو احتشام، فكأنهم كانوا يريدون بذلك أن يتحدوا الدين الذي حرّمها أو يستخروا من الأخلاق والعرف



والتقاليد التي استنكرتها .

وكان يحلو لهم أن يسموا هذه اللذات ومواضعها ومصادرهما وآلاتها بأسمائها الصريحة دون كناية أو إشارة أو إيحاء ، ذلك أنهم كانوا يجدون في حكاية هذه المنكرات والقبايح والمحظورات كما هي عارية مكشوفة ، لذة أى لذة ، فشاعت من أجل ذلك ألفاظ الفحش والمقاذير بين عامة الناس وخاصتهم . ومالوا إليها وأعجبوا بها حتى قال قائلهم : « إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخى جدا » .

ومهما يمكن أن يقال في هذا الموضوع فإن ظاهرة المجون قد طغت على المجتمع البويهى طغيانا لا مثيل له ، بحيث أصبح الشراب عادة للكثيرين حتى عند ذوى المناصب الدينية ، كما أصبح الولع بالغلغان والعبث بالجوارى شأن العامة والخاصة . وبالإضافة إلى هذا وذاك كانت ألفاظ المقاذير والفحش دائرة على كل لسان .

\* \* \*

هذه الظاهرة الاجتماعية العامة قد انعكست صورتها في الحياة الأدبية . انعكاسا تاما ، فلونت الأدب بلون ماجن خليع لم يشهده من قبل ولا من بعد ، وربما كان كتاب البتيمة لأبى منصور الثعالبي هو خير الكتب الأدبية التي احتفظت لنا بهذا النوع من الأدب الذى رسم ظلال الحياة الماجنة في عهد بنى بويه ، وذلك لأن المؤلف قد أكثر في كتابه من إيراد الشواهد التي تصور الجوانب اللاهية من حياة الناس عموما وحياة الأدباء خصوصا . فهو حين يترجم لشعرائه وكتابه يعنى كثيرا بأخبار لوهم ومجونهم وتظرفهم مستشهدا على ذلك بالشعر والنثر ، وقد يطغى عليه هذا الاتجاه حتى نراه لا يذكر من القصيدة أو القصائد التي كانت تقال في المدح أو فى التهنية أو فى

تغيرهما من الأغراض إلا الآيات التي تصور عبث الممدوح وتهتكه ، مكررا هذا الصنيع في غير موضع من الكتاب .

ويبدو لي أن الثعالبي كان يتعمد هذا الأمر تعمداً لإرضاء لذوق العصر ومجازاة لميول أهله الذين كانوا يستسيغون هذا النوع من الأدب ويفضلونه على ما سواه ، ودليلي على ذلك ما كان من عنايته الشديدة بشعر ابن الحجاج وابن سكرة ، وإكثاره من رواية هذا الشعر على فحشه وإقذاعه بحيث استوعبت الشواهد التي اختارها منه أكثر من سبعين صفحة من صفحات الكتاب . (١)

وكان هذا الأدب الماجن كثيراً ، وكان متنوعاً ، منه ما قيل في الخمر وما يتصل بها ، ومنه ما قيل في الغلمان والجوارى ، ومنه ما قيل في وصف السومات والعورات ، والمقاذر والإفحاش . ولسكن هذه الأنواع الأدبية كانت كلها تصدر عن واحد واحد هو ذلك الميل العام إلى المتع واللذات الذي سيطر على النفوس في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية زمن بني بويه . وسنتناول كلا من هذه الأنواع الأدبية الثلاثة بالبحث فيما يأتي :

## ١ - أدب الخمر والغناء

أما أدب الخمر فقد كان نتيجة لانتشار الشراب ودوره في هذا العصر كما كان عليه الحال قبل الإسلام ، فشربته العامة والخاصة حتى ذوو المناصب الدينية كالقضاة والفقهاء ، فقد كان القاضي التنوخي يشرب الخمر وينادم الوزير الملهبي في جملة القضاة الذين كانوا ينادونه ، قال الثعالبي : (٢) ويحكى

(١) راجع كتاب يتيمة الدهر للثعالبي طبعة بيروت الجزء الثاني من ص ١٨٨-٢٧٠

(٢) اليتيمة ٢ : ١٠٦

أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم ابن قريعه وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان الوزير المهلبى فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذت السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءة شراباً قطربلياً أو عكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبغات ومخانات البرم والمنشور . . . وإياهم عنى السرى بقوله:

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخانق البرم

فإذا أصبحوا عادوا لعاداتهم في التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة  
وحشمة المشايخ السكبراء . .

وكذلك كان أحد القضاة يحضر مجالس الشراب في منزل كاتب للخليفة، وكان لا يشرب إلا قارصاً فأرسل صاحب المنزل غلاماً وأحضر خماسية من دكان إسحق الواسطى فيها من الشراب الذى كان بأيديهم إلا أن على رأسها كاعداً وختماً مكتوباً عليه « قارص من دكان إسحق الواسطى » فشرب القاضى منه ثم سأل عن الشراب فقبل له « قارص، فقال لابل والله الخالص ثم ثنى وثلك فاضطرب أمره وأنشأ يقول:

ألا فاسقنى الصهباء من حلب السكرم ولا تسقنى خمرأ بعلمك أو على  
أليست لها أسماء شتى كثيرة ألا فاسقنيها واكن عن ذلك الاسم

فكان كلما أتاه الغلام بالقدح سأله عنه فيقول تارة مدام وتارة خندريس

وهو يشرب فإذا قال له خمر حرد واستخف به . . . فلم يشرب القاضي إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر حتى تبطح في المجلس ولف في طيلسانه وحمل إلى داره . (١)

هذه القصص وغيرها ، وتلك الأشعار التي أثرت عن بعض رجال الدين في الخمر كلها تدل دلالة قاطعة على انتشار الشراب بين طبقات الأمة المختلفة كما أنها تدل على عدم استنكار المجتمع لهذه الظاهرة .

أما الغناء فقد كان من مستلزمات الشراب منذ القديم ، ولكن أمره قد استفحل في هذا العصر ، إذ كثرت دوره العامة والخاصة ، كما كثرت دور الشراب ، فارتادها الناس على اختلاف طبقاتهم حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية كابن فهم الصوفي وأبي الحسن الجراحي القاضي والمعلم غلام الحصرى شيخ الصوفية وابن معروف قاضي القضاة وأبي سليمان المنطقي الفيلسوف المشهور وغيرهم كثير .

وقد كان تأثر الناس عند سماعهم الغناء قويا وعنيفا فكان منه ما يسر وما يبكي وما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه ، إذ كثيراً ما كان السامعون لشدة تأثرهم وانفعالهم يمزقون ثيابهم ويدقون الحائط برؤوسهم أو يتمرغون في التراب ويهيجون ويزبدون وبعضون أصابعهم ويركعون بأرجلهم ويلطمون وجوههم . (٢)

وللاستشهاد على هذا ننقل نصين اثنين من النصوص التي ذكرها أبو حيان التوحيدي في وصف المغنين والمغنيات وفي وصف أطراب المستمعين

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٣٦ وما بعدها

(٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ٢٠٨ نقلا عن حكاية أبي القاسم البغدادي

في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» ، وذلك حين يقول : (١)  
«... ولا طرب ابن فهم الصوفي على غناء «نهاية» ، جارية ابن المغني  
إذا اندفعت بشدوها :

أستودع الله في بغداد لي قرأ بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه  
ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه

فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض ، وتمرغ في التراب وهاج  
وأزبد وتمغر شعره ، وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه ، ومن يجسر  
على الدنو منه فإنه يعض بتنابه ويخمش بظفره ، ويركل برجله ، ويخرق  
المرقعة قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لظمة في ساعة ، ويخرج في العيادة  
كأنه عبد الرزاق المجنون صاحب السكيل في جيرانك بباب الطاق» .

وحين يقول : (٢)

«ولا طرب أبي سليمان المنطقي إذا سمع غناء هذا الصبي الموصل النابغ الذي  
قد فتن الناس وملا الدنيا عيارة وخسارة وافتضح به أصحاب النسك والوقار  
وأصناف الناس من الصغار والكبار بوجهه الحسن وثروره المبتسم وحديثه  
الساحر وطرفه الفاتر ، وقده المديد ولفظه الخلو ودله الخلوب وتمنعه  
المطمع وإطعامه الممنوع وتشكيكه في الوصل والهجر ، وخلاطه الإباء بالإجابة  
ووقوفه بين لا ونعم ، إن صرحت له كني وإن كنيته له صرح ، يسرقك  
حنك ، ويردك عليك ، يعرفك منكراً لك ، ويشكرك عارفاً بك ، فحال  
حالات وهدايتة ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادي ، ومنية السائق  
والهادي ، في صوته الذي هو من قلائده :

عرفت الذي بي فلا تلهني فليس أخو الجهل كالعالم

«(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٦٦ (٢) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٧٤

وكنت أخسوفه بالدعا وأخشى عليه من المسألم

وهكذا انتشر الغناء - كما انتشر الشراب - بين عامة الناس وخاصتهم  
فملك عليهم عواطفهم ومشاعرهم وطربوا له طرباً صاخباً وافتتنوا به افتتاناً  
عجيباً . وإلا فهل هناك أدل على انتشاره وافتتان الناس به من تسربه إلى  
نبات المنصوفة والزهاد وكبار الفلاسفة ؟

وبعد ، أفلا يمكن أن يقوم في نفس القارىء ما يحمله على التساؤل  
فيلقى علينا هذا السؤال وهو : لماذا فتح المجتمع البويهى صدره للشراب والغناء  
ومهد لها سبيل الذبوع والانتشار ؟

وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نعود إلى الوراء ، إلى ماضى  
الامة الفارسية التى خضع لها المجتمع البويهى فى هذا العصر سياسياً واجتماعياً  
فهذا الماضى وحده هو الذى يستطيع أن يضع أيدينا على موطن السر فى هذا  
الامر ، فلنرجع إذن إلى صحائفه ولنقرأ سطورره فإذا نجد ؟

نجد أن عادة الشراب عند الفرس قديمة جداً ، ترجع إلى طقوسهم  
الدينية ، فقد كان الفرس القدماء يتناولون من أجل آلهتهم عصيراً مسكراً  
يستخرجونه من عشب « الهوما » الذى يكثُر على سفوح الجبال فى بلادهم ،  
وبالرغم من استياء نبيهم « زردشت » من هذه الوثنية ، بقيت عادة تقديم شراب  
« الهوما » المسكر إلى الآلهة متبعة فى الديانة الزردشتية ، إذ كان على الكاهن  
أن يشرب جزءاً معلوماً من هذا العصير المقدس وأن يقسم الباقي على الحاضرين  
من المؤمنين فى أثناء تأدية الطقوس الدينية ، وإذا كان الناس من الفقير بحيث  
لا يستطيعون تقديم مثل هذه القرابين الشبيهة للغاية فلا بأس عليهم من أن

يتقرر بوا إلى آلهتهم بالزلفى والإغراق فى الضراعة والابتهاال. (١)  
ونجد أيضا أن الفرس القدماء كانوا يحبون الغناء والرقص والعزف  
على العود والنأى والنقر على الدفوف والطبول، (٢)  
وإذن فقد كان الميل إلى الغناء عند الفرس قديما وكانت الخمر عندهم  
مقدسة، وكان شربها بين يدي آلهتهم بعد نوعا من العبادة ووسيلة من وسائل  
التقرب والتزلف إليهم .  
وإذا كان الأمر كذلك ، فأين هذه النظرة الزردشتية إلى الخمر من نظرة  
الإسلام إليها؟ لاشك أن النظرتين كانتا على طرفى نقيض .  
ثم ... أليس فى هذا ما يفسر لنا تقديس أبى نواس للخمر ونبته إياها  
بالأسماء الحسنى؟ بلى ! لقد كان أبو نواس وأضرابه من شعراء الفرس  
يصدرون فى شعرهم الخمرى عن مزاج روى فارسى قديم انبعثت أصداؤه  
من الماضى السحيق فرددته نفوسهم فى ظل الإسلام .  
وإذا كان ذلك قد حصل والمجتمع ما يزال خاضعا للروح الإسلامى فكيف  
به وقد أصبح فى هذا العصر خاضعا للروح الفارسى فى ظل بنى بويه؟ لاشك  
فى أن هذا الانتقال من عهد عربى تسوده الروح الإسلامى إلى عهد فارسى،  
يؤدى حتما إلى ظهور العادات الشرقية وسيطرتها على المجتمع من جديد ومنها  
عادة الشراب والسماع .  
ذلك هو السر فى عدم استنكار المجتمع البويهى لشرب الخمر وسماع  
الغناء وذلك هو السبب فى تساهله إزاء الشاربين والسامعين على اختلاف  
طبقاتهم .  
ولسكن ما يزال أمامنا سؤال آخر يحتاج منا إلى جواب وهو : لماذا

(١) قصة الحصار الفارسية ص ٣٩ ، ٤٩ (٢) نفس المصدر ص ٦٧

أنهمك الناس في الشراب والغناء إلى هذا الحد ؟! وهنا نستعين بطبيعة الحياة الاجتماعية لذلك العصر ، كما استعنا بالتاريخ منذ قليل ، وذلك أن حياة الناس في عهد بني بويه - كما مر بنا - كانت محفوفة بالمكاره والأخطار ، مثقلة بالمصائب والخطوب إذ كثيراً ما كانوا يتعرضون للقتل والقبض والمصادرة والنهب والجوع والمرض لاضطراب الحالة السياسية والاجتماعية واختلال التوازن الاقتصادي بين الطبقات مما جعلهم فريسة للقلق والخوف والجزع. ولذلك نراه إذا ما دهمتهم جيوش الهم والحزن أغرقوها في كؤوس الخمر وبددوها في طيات الأغاني والألحان . فقد كان الخمر والغناء يؤلفان جواً بهيجاً ينسى الهموم، ويمحو القلق ، ويشيع في جوانب النفس غبطة وإنشراحاً ولذة ومتاعاً ، فإذا هي تخلق في عالم من الأحلام لذيد ، بعيد كل البعد عن حياة واقعية قاسية كان يحياها القوم ، عن حياة لم يكن لها أمس ولا غد فالأمر قد ولى ، والغد مهيب مخوف ، وليس لهم منها إلا الساعة التي هم فيها :

أمر غد أنت منه في لبس وأمس قد فات فإله عن أمس  
إنما العيش عيش وقتك ذا فبادر الشمس بابتة الشمس  
ولم يكن ابن لسنكك قاتل هذين البيتين وحيداً في تردده هذه النغمة ،  
بل شاركه في ذلك كثير من أدباء العصر على اختلاف طبقاتهم .  
فقال أبو الفتح: <sup>(١)</sup> واعتمد على خمس إذا أصابك الهم ، :  
براح وريحان وساق مهفرف ونغمة ألحان وطلعة إخوان  
وقال الصابي :

(١) من غاب عنه المطرب ص ٩٩



كوكب الإصباح لاحا      طالعاً والديك صاحبا  
فاسقنيها قهوة تأ      سو من الهم جراحا  
حرم الماء وأبعد      ه وإن كان مباحا  
أقراح أنا حتى      أشرب الماء القراحا

وقال التنوخي :

صب في الكاسات منها      كالشهاب المتصوب  
فرأيت الراح شرقا      ورأيت الهم مغرب

وقال الثعالبي في مغن :<sup>(١)</sup>

غناؤك يهزم جيش الكروب      وعينك للناس عذر الذنوب  
فوييل القلوب إذ مارنوت      وإما شدوت فويل الجيوب  
وقال أبو حيان التوحيدي بعد أن وصف طرب الجراحى قاضى  
السكرخ على غناء « شعلة » :

لا بد للشقاق من ذكر الوطن      واليأس والسلوة من بعد الحزن  
« فهناك ترى شبية قد ابتلت بالدموع وفؤاداً قد نزا إلى اللهاة مع  
أسف قد ثقب القلب ، وأوهن الروح وجاب الصخر وأذاب الحديد .  
وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة ودموعهم منحدره وشهيقهم قد  
علا رحمة له ورقة عليه ، ومساعدة لحاله ، وهذه صورة إذا استولت على أهل  
مجلس وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك ، لأنه قلبا يخلو إنسان  
من صبوة أو صباية ، أو حسرة على فائت أو فكر فى متمنى أو خوف من  
قطيعة أو رجاء لمنظر ، أو حزن على حال ، وهذه أحوال معروفة والناس

(١) نهاية الأرب ٥ : ١١٥

منها على جديلة معهودة ، (١) .

يتضح لنا مما تقدم أن الشراب والغناء في هذا العصر كانا يرضيان ميولا روحية تتصل بالماضي ، وحاجات نفسية تتصل بالحاضر ، فلا عجب بعد ذلك إذا ما تقبلها المجتمع قبولا حسنا ، فانهمك الناس فيهما انها كما شديد ، ولا عجب أيضا إذا ما اندفع الأدباء تحت تأثير هذا التيار الجارف واستجابوا لرغباتهم الخاصة ، ولرغبات ممدوحيههم وأهل عصرهم عموما فأكثروا من وصف الخمر والغناء ووصف مجالسهما ، وآلاتهما ، وجأهروا بالدعوة إلى ممارستها في شيء كثير جداً من الحواس ، وبالغوا في هذا كله حتى جرحهم إلى الإلحاد والزندقة والاستهتار بالدين .

فالسلامي كان مشغوفا بالخمر والغناء ، ذائبا فيهما ، وكان يحس في قرارة نفسه وهو في جوهما بالخشوع الذي يتتاب العابد في محرابه ، فيدفعه هذا الخشوع إلى الصلاة ، ولكن على أذان الطنابير ، ويدفعه أيضاً إلى الركوع والسجود ، والسكن إلى الكأس أو المزمار .

أليس هذا تقديساً للخمر يذكرونا بطقوس الفرس الوثنية ؟  
أشربا واسقيافتي يصحب الأيا م نفساً كثيرة الأوطار  
والنفوس السكبار تأنف للسادة أن يشربوا بغير السكبار  
في جوار الصبا نحل بيوتا عمرت بالخصون والأقمار  
ونصلي على أذان الطنابير ونصغي لنغمته الأوتار  
بين قوم إمامهم ساجد للكأس أوراكع على المزمار  
وإذا كان السلامي لم يعلن عصيانه لله بصراحة ، فإن زميله ابن الحجاج قد أعلن عصيانه وتمرده عليه بصراحة ما بعدها من صراحة ، ثم زاد على

(١) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ١٦٨ - ١٦٩

ذلك فأعلن ولاءه وطاعته للشيطان إذ يقول : (١)

يا خليلي قد عطشت وفي الخمر رى للحائم العطشان  
فاسقياني محض التي نطق الوحى بتحريمها من القرآن  
والتي ليس للتأول فيها مذهب غير طاعة الشيطان

\* \* \*

فاسقياني بين الدنان إلى أن تريانى كبعض تلك الدنان  
اسقياني في المهرجان ولو كان لخمس بقين من رمضان  
اسقياني فقد رأيت بعينى فى قرار الجحيم أين مكاني  
مقعداً بعد خفتى فى نهوضى أخرسا بعد كثرة الهديان  
وإذ يقول أيضاً : (٢)

أمسلم؟ قلت نعم ظاهرى وباطنى فى الخمر نستورى  
من أجل هذا أنا منذ جئتما ما بين سكران ومخمور  
فأسعد بيوم العيد واجلس له فى خلوة جلسة مسرور  
وضح فيه بالدنان التي تخمر بين البم والزير  
واستحضر العود ووجه به حتى نصلى بالطناير  
الركعة الأولى سريجية وركعة التسليم ما خورى  
وهى صلاة العيد لا يستوى تجوزى فيها وتقصيرى  
والله لو كنت لها حاضرأ لخير العالم تكبيرى

ولو وقف ابن الحجاج فى زندقته عند هذا الحد لقلنا إنه عاص ، متمرد  
ربما تاب إلى الله وأتاب ، ولكنّه يمعن فى عصيانه وتمرده إلى النهاية ،  
فيرفض أن يتخذ من القرآن قسماً ، بل نراه يتخذ من الوجوه البيض

(١) اليتيمة ٢ : ٢٤٢ (٢) نفس المصدر ٢ : ٢٤٣

ومن شرب الرىّ من خمر الثنايا ، . . . ومن الخمر قسما ، وذلك حين  
يقول : (١)

فأقسم لا بياسين وطه ولا بالذاريات ولا الحديد  
ولسكن بالوجوه البيض مثل الآ هلة تحت أغصان القدود  
وشرب الرىّ من خمر الثنايا وشم المسك من ورد الحدود  
وبالخمر التي كانت لعاد ولسكن بعد محنتهم جهود  
مدام في قديم الدهر كانت تعد لكل جبار عنيد

إنها وثنية فارسية ، قد رفعت رأسها ومشت على قدميها في هذا العصر  
بعد أن كانت تتامل وتحاول أن تنهض فلا يسعها النهوض أيام كان للعرب  
سلطان في هذه الديار ، أما وقد أصبح السلطان بيد ملوك من الفرس كانوا  
يمدحون أو يهتأون بمثل هذا القصيد فيشجعون قائليه ويشيرونهم عليه ، فإن  
الشعراء مضطرون إلى أن يجاروا نزعاتهم الفارسية ويعبروا عنها بما يرضيها  
من القول . لهذا نرى ابن الججاج وغيره من أدباء العصر يطلعون في كل  
مناسبة على ممدوحهم ومهنتهم بشعر ماجن يدعوهم فيه إلى استقبال اللذات  
والقصف والخلاعة بين الراح وعزف القيان ، من ذلك قول ابن بابك من  
قصيدة في فخر الدولة :

قد رقم النسيروز وشى الربا فارقم حواشى جامك الخسروانى  
واقبل اللذات واستدعها باللهو والقصف وعزف القيان  
واجتل وجه الراح فى روضة تبسم عن مثل وجوه الغوانى  
وقول أبى العلاء الأسدى من قصيدة فى الصاحب :

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٧٠

فأقم رسمنا صبيحة زيرو ز به ربع أنسنا مأهول

بكووس مملوءة من مدام أنت فيها لمن حساهاعدول

وقول الصابي من قصيدة عيدية في الوزير المهلبي :

وللفطر رسم للسرور وسنة ومثلك من أحيا لنا سنة الفطر

ولا بد فيه من سماع وقهوة نقضت بها الأوطار من لذة السكر

نواصل قصفا بين يوم وليلة دراكا فنستوى الذى فات في الشهر

أين هذا من قول البحترى في المتوكل يوم العيد ؟ : (١)

بالبرصم وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفطر

\* \* \*

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت إلى المصلى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر

ووقفت في برد النبي مذكراً بالله تنذر تارة وتبشر

ومواعظ شفت الصدور من الذي يعتادها وشفأؤها متعذر

صلوا ورامك آخذين بعصبة من ربهم وبذمة لا تخفر

لا شك في أن الفرق بين القولين بعيد، كالفرق ما بين الإسلام

ووثنية الفرس .

لا نريد من هذا كله أن نرمي أهل العصر بالكفر ، والإلحاد والخروج

على الدين عامدين متعمدين ، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين ، ولكننا

نريد أن نقول إن مفهوم الدين عندهم قد استحال وتبدل ، بما شاب حياتهم

الروحية من نزعات وأهواء هي وليدة التراث الفارسي الذي حي من جديد ،

(١) ديوان البحترى ١ : ١٨

وصدى للحياة الاجتماعية التي خضعوا لها حينذاك ، الأمر الذي جعل مثلهم  
الأعلى في الحياة : خمرآ ولحنا وساقيا وقصفا ولهوآ وخلاعة .

وإلا فكيف نفهم قول القائل ؟ : (١)

وليس العيش إلا شرب راح  
وكأس يعدل الساقون فيها  
وشدو صغيرة كالخشف يحدى  
بصوت غنائها الرطل الكبير

وقول القائل : (٢)

عدل الحبيب فمن يجور  
عوضت من عيس تدو  
وشربت ما وسع الصغير  
نبتت ندمان وقعد  
والبدر في أفق السما  
هبوا فقعد عيب الرقي  
وأشار إبليس فقل  
صرعى بمعركة ته  
نوار روضتنا خدو  
والعيش أستر ما يكو  
هبوا إلى شرب المدا  
طاف السقاة بها كما  
عذراء يكتمها المزاج

(١) البيهقي ٢ : ٢٤٠ (٢) نفس المصدر ٢ : ١٧٦

وتظن تحت حبايبها خدأ تقبله ثغور  
حتى سجدنا والإمام أمامنا مثنى وزير

\* \* \*

وهكذا انتشر الشراب والغناء في المجتمع البويهى لما قدمناه من أسباب  
فكان أثرهما في الحياة الأدبية عظيماً. هذا ولما كان الحديث في أدب الخمر  
والغناء طويلاً لا ينتهى حتى ينتهى منه ، اكتفينا بهذا القدر .

## ٢ - الغزل بالغلبلان والجوارى :

أما الغزل بالغلبلان فقد كان من الأغراض التى وجدت فى القرن الثانى  
الهجرى كنتيجة لشيوع عادة اللواط بين طائفة من المجتمع كأبى نواس  
وأضرابه من المهتمكين . وعادة اللواط هذه - كما يرى القدماء - فارسية ،  
أتت من المشرق مع جيوش الغباسيين التى جاءت من خراسان .  
وقد علل الجاحظ سبب حدوث هذه العادة عند الخراسانيين ، فعزاه  
إلى خروج الأجناد فى البعث مع الغلبلان فقال : « وذلك حين سن أبو مسلم  
الأيخروج النساء مع الجنود خلافاً لبنى أمية الذين كانوا يسمعون بخروج النساء  
مع العسكر ، فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار ، وعند  
اللباس والتستر ، وهم جنود فحول تقمع أبصارهم على خد كخد المرأة ،  
وردف كردفها وساق كساقها ، تولدت هذه الفاحشة » . (١)

كذلك يعلل الجاحظ شيوع عادة اللواط بين الفرس ، وهو تعليل  
طريف ولكنه غير صحيح من حيث إنه يجعل مبدأ حدوث هذه العادة  
عندهم مقروناً بالنظام الذى سنه أبو مسلم ، بينما يذهب « ول دورانت »

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٣٥

مؤلف « قصة الحضارة » إلى أن اللواط عادة فارسية قديمة بدليل ماورد في « الأفيستا » من تشديد في العقوبة التي قررتها اللواط ، إذ هي تؤكد في أكثر من موضع « أن اللواط جريرة لاغفران لها ، ولا يستطيع شيء في الوجود أن يكفر عنها » (١)

وعلى أية حال فقد تسربت عادة اللواط إلى المجتمع الإسلامي عن طريق الفرس بصورة تدريجية ، ثم ساعد على انتشارها كثرة الرقيق من الغلمان ، وكثرة دور اللهو ومجالس الشراب ، ولما كان ، مع ذلك ، لم يكن لهذه العادة شأن يذكر طوال العصور التي كانت السيادة فيها للروح العربي ، ولهذا لم يكن هناك ما يدعو الفقهاء الأولين إلى الكلام فيها ، أما في القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء في اللواط بالغلمان اختلافا بينا فأراد بعضهم أن يعتبره كالزنا ، وأراد آخرون أن يفرقوا بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك ، وقالوا إن الحد لا يلزم الأول بخلاف الثاني والأكثرين على أنه لا حد فيه بل هو يوجب التعزير من القاضي . (٢)

ولعل هذا الموقف الغريب من الفقهاء إزاء اللواط يدل دلالة قاطعة على تأثرهم بالروح الفارسية الذي سيطر على المجتمع البويهى آنذاك ، والذي أشرنا إليه غير مرة فيما تقدم .

ومها يكن فقد شاعت عادة اللواط في هذا العصر كغيرها من العادات الفارسية بحيث أصبح حب الغلمان والتولع بهم شأن العامة والخاصة ، فكاننا سببا في حدوث قصص غرامية شائقة ، من ذلك ما يروى عن ابن داوود أنه كان يهوى أحد الفتيان هوى أفضى به إلى التلف ، وما يروى أيضا عن عز الدولة ببختيار الملك البويهى أنه أسر له في إحدى المواقع غلام فجن عليه .

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٥٨ (٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٣٤



جنونا ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ، حتى زعم أن فجيعة هذا الغلام فوق فجيعة بالمملكة ، وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم .

كل ذلك قد ظهر أثره ، وانعكس صداه في الأدب حتى كان الغزل الذي قيل في التوجع من هوى الغلمان يعادل ما قيل في التوجع من هوى النساء على الأقل (١) ، فقد انجرف الأدب بهذا التيار فأكثروا من القول في هذا الباب حتى إنه ليندر أن نجد بينهم من لم يقل شعراً في غلام ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، فقصر تشبيهه على الغلمان دون النساء كأبي الحسن السلامي ونصر بن أحمد الخبز أرزي ، فقد كان كلاهما ميالاً إلى الغلمان أكثر من القول فيهم .

فالسلامي كان يتفنن في تشبيهه بغلمان البدو والعيارين والأزراك وغيرهم كما كان يتفنن في الوسائل التي تمكنه من إغوائهم . فمن ذلك قوله من قصيدة شذب فيها بغلام تركي ويصف لنا فيها كيف استطاع أن يخدعه :

علقت مفترس الضراغم فارساً رحب المدى والصدر والميدان  
قر من الأتراك تشهد أنه الخود الحصان على أقب حصان  
ألفت طرته وغرته وما كان الدجى والصبح يأتلفان  
ورمى بلحظيه القلوب وسهمه فعجبت كيف تشابه السهمان  
بطل حمائله كعارضه وحا جبه الأزج كقوسه المرنان  
حييته فدنا وأمطر راحتي قبلا فليت في مكان بناني  
وخدعته بالكأس حتى ارتاض لي ودرأت عنى الحد بالكتمان

(١) الحضارة الإسلامية ١ : ١٢٥

أما نصر الخبز أرزى فقد كانت حرفته خبز خبز الأرز في دكانه بمربد  
البصرة ، وكان يخبز وينشد أشعاره المقصورة على الغزل والناس يزدحمون  
عليه ويتطفرون باستماع شعره ويتعجبون من حاله وأمره ، وكان أحداث  
البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم ويحفظون كلامه لقرب مأخذه  
وسهولته (١) ، ومن قوله في غلام :

وددت أنى بكفه قلم أو أنى مدة على قلبه  
يأخذنى مرة ويلثمنى إن علقته منه شعرة بقمه

وقوله :

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما  
أنى زارآ من غير وعد وقال لى  
فازال نجم الكأس بينى وبينه  
فطورآ على تقبيل نرجس ناظر  
بأكرم من مولى تمشى إلى عبد  
أصونك عن تعليق قلبك بالوعد  
يدور بأفلاك السعادة والسعد  
وطورآ على تعريض تفاحة الخد

ومن الغريب فى هذا الأمر أن ذوى المناصب الكبرى فى الدولة لم  
يكونوا يتخرجون من التغزل بالغلبلان وإظهار العشق لهم والولع بهم  
كالصاحب والصابى والوزير المهلبى وأمثالهم من الملوك والأمراء ،  
فالصاحب كان يهوى من الفتيان من كان أغن الصوت ، غناجآ ، أثنغ  
السين ، وذلك حين يقول :

وشادن قلت له ما اسمكا فقال لى بالغنج عبات  
فصرت من لثغته أثنغا فقلت أين السكاث والطا  
أما الصابى فقد كان يحب الغلبلان السود ، وهو من أجل ذلك يدافع  
عن السواد :

(١) اليتيمة ٢ : ١٣٢

أبصرت في درسه، وقد أحببته      رشدى ولم أحفل بمن قد ينكر  
يا لائمي أعلى السواد تلومني؟      من لونه وبه عليك المفخر  
دع لي السواد وخذي ياضك إنني      أدري بما آتى وما أنخير  
مشوى البصيرة في الفؤاد سواده      والعين بالأسود منها تبصر  
والدين أنت مناظر فيه بذا      وكذلك في الدنيا بهذا تبصر

وأغرب من ذلك بكثير أن نرى ذوى المناصب الدينية لا يقولون  
للمستهار أو عبثا بالغلبلان عن غيرهم . فالقاضي التنوخى وابن خلاد والمفجع  
البصرى وغيرهم من القضاة والفقهاء والمحدثين كانوا يشاركون أهل عصرهم  
في الميل إلى الغلبلان والتغزل بهم والشكوى مما يلقون من هوام .  
فقد كان ابن خلاد القاضي وهو من جملة القضاة الموسومين بمداخلة  
الوزراء والروساء يحب غلاما من أبناء الديلم فقال فيه :

يامن لصب قلسق      بات يراعى الفلساكا  
جار به مساط      يجور فيمن ملكا  
يهرأ من عاشقه      يضحك منه إن بكى

\* \* \*

فقلت يا أحسن من      تبصر عيني من لساكا؟  
فقال لي بغنة      إليك لا أجرحكا  
تبا القاض يبتغى      من المعاصى دركا  
فقلت والله الذى      صيرنى عبدا لكا  
ما إن أردت ريبة      ولم أرد سوء بكا  
وأنت فى قولك ذا      أشم بمن أشركا

وكان المفجع البصرى وهو صاحب ابن دريد والقائم مقامه بالبصرة

في التأليف والإملاء مستهتراً ، يغوى الصبيان بالجامع ، وله قصيدة في هذا المعنى منها هذه الأبيات :

ألا يا جامع البصرة لا خربك الله  
وسقى صحنك المزن من الغيث فرواه  
فكم من عاشق فيك يرى ما يتمناه  
وكم ظلي من الإنس مليح فيك مرعاه  
نصينا الفخ بالعلم له فيك فصدناه  
بقرآن قرأناه وتفسير روينا  
وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه  
فازالت يد الأيا م حتى لان متناه  
وحتى ثبت السرج عليه فركبناه

ولعل مما يدل على انتشار هذه العادة بين الناس في هذا العصر وجود الغلمان الذين كانوا يعملون بأجر ، فلا يصلون عشاقهم إلا إذا هدموا لهم الدراهم الوافية . يدل على ذلك قول ابن سكرة في أحد الغلمان :

أحببت بدماً ما له مشبهه في الحسن لولا أنه جافي  
أحور في مقلته حجة للعين والشين مع القاف  
وفي ارتجاج الردف داع إلى نون وياه قبل ما كاف  
سألته الوصل فلم يحتشم وقال قدم نقدك الوافي

وقوله في غلام أعجمي :

إني بليت بشادن غنج حسن الشمائل وافر السكفل  
يبغي الدراهم وهي معوزة عندي فحبي غير متصل

يتبين لنا بما تقدم أن حب العلمان والتغزل بهم قد أصبحا من الأمور المألوفة في المجتمع البويهى حتى عند أشد الناس تزمتا ووقارا وهذا يعنى أن عادة اللواط لم تكن تعتبر في نظر المجتمع من الرذائل التى تحط بالكرامة أو تسيء إلى الأخلاق العامة ، ولهذا أخرجها الأدباء من معاني الهجاء فى هذا العصر ، بحيث لم نعث على واحد منهم كان يهجو خصومه بها كما كان يفعل أسلافهم من قبل . فأبو نواس على شغفه الشديد بالعلمان وإكثاره من التغزل بهم كان إذا أراد أن يؤلم خصومه ويوجعهم هجأهم باللواط لعله أن المجتمع كان يستنكر هذه العادة أشد الاستنكار ويسخط على أصحابها أشد السخط فهو حين أراد أن ينتقم من قطرب النحوى وأبى عبيدة معمر بن المثنى هجأهما بذلك فآلمهما وأفزعهما ، فقال فى الأول : (١)

قل للأمين جزاك الله صالحا لا تجمع الدهر بين السخل والذيب  
السخل غير وهم الذئب غفلته والذئب يعلم ما فى السخل من طيب  
وقال فى الثانى : (٢)

صلى الآله على لوط وشيعته أبى عبيدة قل بآله آمينا  
فأنت عندى بلا شك بقيتهم منذ احتملت وقد جاوزت سبعينا

\* \* \*

وكما كان لسكرة العلمان وميل الناس إليهم أثر قوى فى الأدب كذلك كان لكثرة الجوارى اللاتى ملكت بهن القصور والمحلات العامة أثر قوى فى الأدب ، لاسيما أولئك الجوارى اللواتى خلبن العقول واختلسن القلوب بجمالهن وسحرهن حيناً ، وغنائهن ومهارتهن فى هذا الغناء حيناً آخر ، إذ كثير ما كن يسيطرن على أسيادهن فيمتلكن قلوبهم وعواطفهم وكثيراً ما

(٢) نفس المصدر ص ١٧٦

(١) ديوان أبى نواس ص ١٧٥

كن يسرّرن صدور عشاقهن والمعجبين بهن بالصباية والوجد واللوعة ، فكان ذلك سبباً في كثرة الشعر الذى قيل في وصف الجوارى واليهام بهن ، كقول الوزير المهلبى في جاريته « تجنى » :

مرت فلم تثن طرفها تها يحسدها الغصن في تنهيا  
تلك «تجنى» التي جننت بها أعاذنى الله من تجنيها

وقول الصابى في إحدى الجوارى :

إلى الله أشكوا ما لقيت من الهوى بجارية أمسى بها القلب يلهج  
إذا امتزجت أنفاسنا بالترامنا توهمت أن الروح بالروح تمزج  
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة ووجدى ما بين الجوانح يلعج  
أضفت إلى النفس التي بين أضاهى بأنفاسها نفساً إلى الصدر تولج  
فإن قيل لى اختر أيما شئت منها فإنى إلى النفس الجديدة أحوج

وقد هام بعض الشعراء بالجوارى السود ، كما هام بعضهم بالغلخمان السود ، فأحبوهن ودافعوا عن هذا الحب . من ذلك قول الشريف الرضى في سوداء : (١)

أحبك يالون الشباب لأننى رأيتكما فى القلب والعين توأما  
سواد يود البدر لو كان رقعة بجلدته أو شق فى وجهه فما  
لبغض عندى الصبح ما كان مشرقاً وحبب عندى الليل ما كان مظلماً  
سكنت سواد القلب إذ كنت شبيهه فلم أدر من عز من القاب منكما  
وما كان نسهم الطرف لولا سواده ليبلغ حبات القلوب إذا رى  
إذا كنت تهوى الظبى ألمى فلا تعب جئونى على الظبى الذى كله ألمى

(١) ديوان الشريف ٢ : ٧٥٥

وقول السلامي :

ورب غانية بيضاء تصحبنى من العتاب كؤوسا ليس تنساغ  
أشتاق طرتها أم صدغها ومعى من كلها طرر سود وأصداغ ؟  
كأننا لا أتاح الله فرقتنا بالعبية المسك ، باز تحته زاغ

ومهما يكن فقد شاع حب الغلمان والجوارى في هذا العصر بين العامة  
والخاصة بحيث إننا لم نعثر على رجل أحب امرأة حرة حبا أفضى به إلى  
الهبام أو التلف ، كما كان يحدث لمن أحبوا الفتيان والجوارى ، فكان من أثر  
هذه الظاهرة أن شاع التغزل بالغلمان والجوارى ، وحل محل  
التغزل بالحرائر .

\* \* \*

### ٣ - أدب المقاذر والفحش

نستطيع أن نقول إن تلك الصور الأدبية التي ذكرناها فيما تقدم على أنها  
تمثل جانبا من حياة العيب والمجون في المجتمع البوهي هي من النوع الذي  
يمكن أن يحتمل ويستساغ على نحو ما ، ولكن الذي لا يمكن أن يحتمل  
ولا يمكن أن يستسيغه ذوق ، ولا يجرى به قلم ، هو هذا الأدب المماجن الذي  
يندى له الجبين خجلا ، ويتعثر به اللسان حياء ، هو هذا الأدب الخليع  
الذي يتناول وصف العورات والسوءات والمقاذر بأشجع الألفاظ وأصرحها  
وأفحش المعاني وأقبحها .

لقد كان المجتمع البوهي في أخلاقه وتقاليده وذوقه بدعاً بين المجتمعات  
فكان أدبه الذي نتج عن ذلك بدعاً بين الآداب في أساليبه وفي ألفاظه

وفي معانيه .

فقد كان هناك تفسخ عام في الأخلاق وانحطاط عام في الذوق ، قد تردد صداهما في الحياة الأدبية فأنتجا أدباً قذراً ، بشعاً ، يمجج الذوق وينسكره الخلق وتشمئز منه النفوس .

إنها حالة اجتماعية شاذة ، تلك التي أنتجت هذا النوع الماخن من الأدب الذي نقرأه في كل ما أثر عن ابن الحجاج وابن سكرة ، وفيما أثر عن كبار الأدباء وصغارهم من أدب ، كالصاحب بن عباد والصابي والمذاني والخوارزمي والأحنف العسكيري وأبي دلف الخزرجي وأبي الحسن الجوهري وأمثالهم . ولقد يعجب القارىء ولا ينقضى عجبه ، حين يقرأ هذه الآثار الأدبية الخليعة فيسائل نفسه ، كيف كان الناس يستسيغون مثل هذا الأدب القذر ؟ وكيف كانوا ينظرون إلى قائله ؟ وماذا كان لون الشعور الذي ينتابهم وهم يصغون إليه ؟ ولسكن عجبه هذا يزداد ويتضاعف إذا ما علم أن العامة والخاصة من الناس كانوا يعجبون بهذا الأدب أشد الإعجاب ، يطربون له كل الطرب ، وأنهم كانوا يشنون أحسن الثناء على هذا الزمان الذي جاد بابن سكرة وابن الحجاج ، وكان بمثلها قبل ذلك ضنيناً شحيحاً .

وإذا كنت في شك من هذا فاقرأ ما قاله الثعالبي في ابن الحجاج وفي شعره إذ يقول :

« وهو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف ولا يبني  
جل قوله إلا على سخف ، فإنه من سحرة الشعر وعجائب العصر . »  
ثم يقول في صدد الكلام على شعره :

«...ولكنه على علاته تنفك الفضلاء بشار شعره وتستملح الكبراء ببينات  
طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتمشون فرط رفقه



وقدعه ، ومنهم من يغلو في الميل إلى ما يضحك ويمتع من نواذره .  
ومهما يكن فقد انتشر هذا الأدب الماجن وتغلغل في الأوساط  
الاجتماعية المختلفة ونفق فيها ، ونستطيع أن نقدر مدى هذا الانتشار  
والتغلغل والنفاق في المجتمع إذا عرفنا أن ابن الحجاج هذا كان يمدح الملوك  
والأمراء والوزراء والرؤساء فلم يخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله ونتائج  
فحشه ، وهو - مع ذلك - كان عندهم مقبول الجملة غالى مهر الكلام ، موفور  
الخط من الإكرام والإينعام ، مجاب إلى مقترحه من الصلات الجسام . وكان  
طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكماً الصبي على أهله  
ويعيش في أكنافهم عيشة راضية .<sup>(١)</sup>

وماله عظيم الدلالة على شيوع هذا الفن واستساغة الناس إياه أننا نجد  
كثيراً من ذوى المناصب الكبرى في الدولة لا يتخرجون من إظهار الكلام  
القبيح في المجالس العامة والخاصة ولا يتورعون من استعمال أبشع الألفاظ  
وأفح المعاني فيما ينظمون أو يكتبون .

فقد كان الوزير حامد بن العباس « لا يرد لسانه عن أحد البتة وكان  
إذا غضب شتم ، وكان يقول : نحن في السواد إذا غلبنا خصومنا قلنا قد نلنا  
أمهاتهم »<sup>(٢)</sup> ويحكى عن الوزير سليمان بن الحسن أنه أظهر « من سخف  
الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجل  
الوزراء عنه » :<sup>(٣)</sup>

وكان صاحب بن عباد الوزير المشهور على جلالته قدره يستعمل

(١) اليتيمة ٢ : ٢١١ (٢) نشوار المحاضرة ٨ : ٤٩ - ٥٥

(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٩

في شعره أفحش الأوصاف في هجائه ومجونه. (١) وكذلك كان الصابي المحتشم إذا هجا أتى بالفاظ فاحشة مقذعة من ألفاظ المقاذر والمجون. (٢) وكان الوزير ابن سعدان على جده ووقاره يطلب إلى أبي حيان أن يجعل إحدى آياليه مجرنية ليأخذ من الهزل بنصيب وافر ، فيمضى أبو حيان في فنون من الأحاديث الخليعة شعراً ونثراً ومثلاً حتى إذا انتهى قال له الوزير :  
« قدم هذا الفن على غيره وما ظننت أن هذا يطرد في مجالس واحد ، وربما عيب هذا النمط كل العيب وذلك ظلم لأن النفس تحتاج إلى بشر . . .  
لئلا يلحقها كلال الجد ولتقتبس نشاطاً في المستأنف ولتستعد لقبول ما يرد عليها فتسمع . » (٣)

وأفطح من هذا كله أن النساء لم يكن بمنزل عن هذا الجو القذر إذ سرت إليهن عدوى الإفحاش ، فترددت ألفاظه في أشعارهن ، فقد كانت بهمدان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية خطبها أبو علي كاتب بكر فلما ألح عليها وألحف ، كتبت إليه بيتين يمنعنا الحياء من ذكرهما .  
واسكن الصاحب - راوى هذه القصة - يعجب بهذين البيتين ويدفعه هذا الإعجاب إلى أن يقول :

« وهذه - والله - في هذين البيتين أشعر من كبشة أم عمرو والخنساء  
أخت صخر ومن كعوب الهذلية وليلي الأخيلىة . » (٤)  
ونعجب نحن من هذا المعجب ومن هذا الذي أعجب به عجباً لا ينقضى !

\*\*\*

(١) البيهقي ٣ : ١٠١ وما بعدها (٢) نفس المصدر ٢ : ٦٢ ، ٦٥

ومعجم الأدباء ٢ : ٨٨ - ٨٩

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٦٠ (٤) البيهقي ٣ : ٨٥

لا يزيد أن نطيل في إيراد الأدلة التي تدل بوضوح وجلال على رواج الخلاعة والمجون والعبث في مختلف البيئات الاجتماعية والتي تدل على شغف الناس على اختلاف طبقاتهم بهذا النوع من الشعر الذي يصور انحلال الاخلاق وفساد الذوق في الحياة الاجتماعية هذا العصر ، وإنما نريد أن نمر مسرعين لموقف وقفة قصيرة عند المحان الحقيقيين من الشعراء الذين عاشوا في هذه البيئة العابثة فتأثروا بظواهرها وتأثروا بآيها واستجابوا لها استجابة قوية فكان شعرهم صورة صادقة ومرآة صافية لما كان في بيئتهم العامة من استهتار وفحش وإفداع . ذلك أن هذه الحياة الاجتماعية العارضة من الحشمة ، الخالية من الجذ ، الممعة في السخف ، كانت سببا مباشرا في ظهور أعظم شاعرين ماجنين بين شعراء العربية على الإطلاق هما أبو عبد الله الحسين ابن أحمد بن الحجاج وأبو الحسن محمد بن سكرة الهاشمي ، فقد كان كلاهما ماجنا ، خايع العذار وكان كلاهما فرد زمانه في فنه الذي اشتهر به .

أما ابن الحجاج فهو من أولاد العمال والكتاب . كان أول أمره يشتغل بالكتابة ، فكتب بين يدي أبي إسحق إبراهيم الصابي في أيام حداثة ، ثم أتى له من المعيشة بالشعر ما عدل إليه وعول عليه وكان أكسب له مما كان متشاغلا به . ثم ضمن فرائض الصدقات بسقى الفرات ، وأخيرا عين في أيام عز الدولة بختيار محتسبا على مدينة بغداد (١) فقال وهو يتولى الحسبة من قصيدة في أبي الفتح بن العميد وكان قد هجر النبيذ بعد القبض على بختيار وكان ابن بقرمة الوزير قد شرب . (٢)

حقى على الأستاذ قد وجبا      فإليه قعد أصبحت منتسبا

(١) المنتظم ٧ : ٢١٦ وتاريخ الصابي ص ٤٣٠

(٢) القسمة ٢ : ٢٤٤

مولاي ترك الشرب ينكره      من كان في بغداد محتسبا  
إن كان من غم الأمير فلم      وزيره بالأمس قد شربا  
إن الملوك إذا هم اقتتلوا      أصبحت فيهم كاب من غالبا  
فلذلك أسكر غير مكثرت      وألف مع خيشومي الذنبا

وكان ابن الحجاج هذا شاعراً شاعياً ، بل زعيماً للشعراء الشعبيين بلا نزاع ، وكان يعتبر قريناً لأمرى القيس ، فقد كان كلاهما زعيماً لطريقة جديدة في الشعر ، وكان كلاهما محترماً لهذه الطريقة الجديدة في الشعر ، وكان كلاهما أيضاً موضع التقدير والإعجاب عند أهل زمانه . ثم إنها كانا في درجة واحدة ، ليس بينهما مثلها . . . كذلك قال القدماء . وكذلك نقول نحن إذا ما قرأنا شعرهما الآن .

وليس هناك - بعد ذلك - ما يضير تاريخ الأدب إذا تعارض في أحكامه مع النقد الأدبي فجعل من ابن الحجاج في القرن الرابع قريناً لأمرى القيس في العصر الجاهلي ، وجعل من شعر ابن الحجاج مثلاً أعلى لنوع من الشعر بعينه ، قد اقتضته ظروف الاجتماع وطبيعة الحياة . فتاريخ الأدب لا يعنيه في الدرجة الأولى إلا أن يسجل الظواهر الأدبية ويشرحها ثم يربطها بعلمها الاجتماعي والتاريخية والإقليمية ، ولا يهمه بعد ذلك إن كانت هذه الظواهر خيراً أو شراً ، حقاً أو باطلاً . . . الخ ، فهو يقرر ما هو كائن ، لا ما يجب أن يكون .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بأس على الثعالبي مؤرخ أدب هذه الفترة إذا قال فيه : « إنه فرد زمانه في فنه الذي شهر به ، وإنه لم يسبق إلى طريقته ، ولم يلحق شأوه في نمطه ، ولم يركب كاتمداره على ما يريد من المعاني التي تقع في طرزه مع سلاسة الألفاظ وعدوبتها وانتظامها في سلك الملاحظة والبلاغة

وإن كانت مفصحة عن السخافة ، مشوبة بلغات الخلديين والمكدين وأهل الشطارة .

ولا بأس أيضاً على الصابي إذا ما وصف شعر ابن الحجاج بما يقرب من وصف الثعالي إياه إذ قال : « . . . وقد اختار الرضى أبو الحسن الموسوى من شعره السليم قطعة كبيرة في غاية الحسن والجودة والصنعة والرقّة . » (١) وعلى أية حال فقد كان ديوان شعره الضخم « أسير في الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال » ، كما يقول الثعالي ، إذ كثيراً ما يبيع بخمسين ديناراً إلى سبعين . وهو يقع في عشر مجلدات .

\* \* \*

وأما ابن سكرة فهو كما يقول الثعالي « شاعر متسع الباع في أنواع الإبداع فائق في قول الملمح والظarf ، أحد الفحول الأفراد ، جار في ميدان المجون والسخف ما أراد » ، وكان منحرفاً عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكان خبيث اللسان يتقى سفيهه . (٢)

ويقال إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت ، منها في قيمة سوداء يقال لها « خمرة » أكثر من عشرة آلاف بيت .

بعد هذا التعريف الموجز بهذين الشاعرين أود أن أتساءل فأقول : أكان هذان الشاعران ماجنين خليعين حقاً ؟ أكان هذا الشعر القذر يصدر عن ميل ذاتي متأصل في طبيعتيهما ؟ وبعبارة أخرى :

هل كان هذان الشاعران يحسان في قرارة نفسيهما بأنهما في حاجة ملحّة إلى الإفصاح والإبانة عن شعور باللذة عنيف ، وميل إلى التهتك شديد ؟ أم أنهما كانا خاضعين في ذلك لمؤثرات خارجية ، تدفعهما إلى التنظيم دفعاً ،

(١) تاريخ هلال الصابي ص ٤٣٠ . (٢) ابن الاثير ٧ : ١٧٤

وتضطرهما إلى القول اضطراباً ، وتقذف بهما في بحر خضم من المقاذر  
قذفاً ، دون أن يكون لهما في ذلك إرادة أو رأى ؟

والحق إننا نظلم الشعارين ظلماً عظيماً ، ونبتعد عن الصواب بعداً كبيراً  
إذا قلنا إنهما كانا مطبوعين على المجون ، كما كان أبو نواس مثلاً مطبوعاً على  
المجون ، ذلك أن أبانواس في مجونه وفي تصويره لهذا المجون كان مدفوعاً  
بعامل ذاتي ، يحافظ داخلي ، مصدرهما نفس الشاعر وطبيعته . أما ابن الحجاج  
وابن سكرة في مجونهما وفي تعبيرهما عن هذا المجون فقد كانا في الدرجة  
الأولى متأثرين بعوامل خارجية ، مصدرها الحياة الاجتماعية ، فشانهما في  
ذلك شأن الممثل الهزلي الذي فرضت عليه مهنته إجادة الفصول المضحكة ،  
والفكاهات السارة على خشبة المسرح ليرضى النظارة ، وليبعث فيهم البشر  
والانشراح ، حتى إذا انتهى من عمله ، وانقطعت صلته بالملاعب والرواد كان  
أكثر الناس جداً ووقاراً .

وإذن فأنا أزعم أن هذين الشعارين كانا يمثلان فصولا هزلية على مسرح  
الحياة العامة ، وكانت هذه الفصول تبعث في السامعين لذة وسرورا ، فتفوز  
بالرضى والإعجاب منهم ، واسكنها كانت فصولا هزلية من نوع آخر ، من  
نوع ثقيل ، سخي ، قذر ، أوحى به طبيعة الحياة الاجتماعية لطبيعة الشعراء  
ذلك أن تيارها الجارف كان أقوى من أن يقارم أو يغلب ، ولهذا لم يكن  
لأحد منهم قبل لأن يقف في طريقه .

وتلك - كما لا يخفى - دعوة تحتاج إلى دليل . والدليل - كما يبدو  
لي - يمكن أن يلتمس في حياة هذين الشعارين الخاصة نفسها ، كما يمكن  
أن يلتمس في الشعر الذي أثر عنهما . فالأخبار التي رواها المعاصرون على  
قلتها تشير إلى أن ابن الحجاج كان وقوراً ، وكان حياً بدليل مارواه أبو حيان

التوحيدى من كلام أبي الفتح بن العميد حينما خاطب ابن الحجاج قائلاً : « يا أبا عبد الله ، لقد والله تهت عجبا منك ، فأما عجبى بك فقد تقدم ، لقد كنت أفلى ديوانك ، فأتمنى لقاءك وأقول : من صاحب هذا الكلام أطيش طائش ، وأخف خفيف ، وأغرر غارم ، وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب وكيف يقارب من ينسأخ من ملابس الكتتاب وأصحاب الآداب حتى شاهدتك الآن ، فتمالك على وقارك وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك ، وتناسب حركاتك ، وفرط حيائك ، وناظر مام وجهك ، وتعادل كلك وبعضك ، وإنك لمن عجائب خالق الله ، وطرف عباده . والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ، مع التنافى الذى بين شعرك وبينك فى جدك . »

أليس فى هذا النص ما يدل دلالة صريحة على أن نفس الشاعر لم تكن هى المصدر الذى انبعث عنه هذا الشعر الخالص ؟ وإلا فكيف يكون الإنسان حيا مفرطاً فى الحياء ، وقوراً مسرفاً فى الوقار ، جادا مبالغاً فى الجدى ، ثم يصدر عنه مثل هذا السخف ، وهذا الهزل ، وهذه القذارة ؟ إنه تناقض ما بعده تناقض ، وإنه تناف ما بعده تناف بين ابن الحجاج الشاعر الماجن وبين ابن الحجاج الرجل الوقور الحى الجاد .

وإذا صح ما قاله بعض النقاد من أن الأدب مرآة لنفس الأديب تنعكس فيها خليجاته ومشاعره ، وتترأى فيها نزعاته وأهواؤه ، وإذا صح ما قاله أبو الفتح بن العميد فى ابن الحجاج من أنه عجيبة من عجائب خالق الله وطرفة من طرف عباده لما بينه وبين شعره من تناف وتنافر ، أقول : إذا صح هذا كله فكيف نفس صدور شعر ابن الحجاج عن ابن الحجاج نفسه ؟ ليس هناك من تحليل لهذه الظاهرة الأدبية غير تعليلها بأنها صورة

لمجتمع ابن الحجاج الماجن الهازل ، أو « تمثيل » على مسرح الحياة العامة  
يتصد منه الريح والفائدة . ذلك أن حياة ابن الحجاج المادية - كما مر بنا  
قبل قليل - كانت قائمة على بيع هذا الشعر لمن ينفق عندهم من الكبراء  
والفضلاء ورجال الدولة . فقد كان ابن الحجاج يحترف الكتابة في حدائمه ، ثم  
تركها فاشتغل بالشعر السخيف لأنه وجدته أكسب له مما كان متشاغلا به ،  
ولكن لماذا نكلف أنفسنا مشقة التذليل وابن الحجاج نفسه يعترف بأنه  
اتخذ الهزل والمجون وسيلة للارتزاق والعيش في هذه الحياة ، وذلك  
حين يقول :

بالله يا أحمد بن عمرو      تعرف للناس مثل شعري ؟  
شعر يفيض الكنيف منه      من جانبي خاطري ونجوى  
نسيمه منتن المعاني      كأنه فلتة بججر  
لو جدت شعري رأيت فيه      كواكب الليل كيف تسرى  
وإنما هزله مجون      يمشى به في المعاش أمرى

وبالإضافة إلى هذا وذلك فإن ابن الحجاج في شعره يشير إلى أن التزامه  
للسخف ضرورة ملحة من ضرورات الحياة القاسية التي زال فيها الوفاق  
والاحتشام إذ لا يستطيع العاقل أن يطبق المقام فيها دون أن يمارس هذه  
المقاذر ، ويشير في شعره أيضا إلى أنه مضطر إلى أن يملأ شعره بالهزل  
والمجون اضطراراً ، لماذا ؟ أي دفع به عن نفسه وماله ووجهه عادية الخصوم  
ولينال به الحظوة عند الرؤساء ، وذوى السلطان أيضا ، وذلك حين  
يقول :

وشعري سخفه لا بد منه      فقد طبنا وزال الاحتشام  
وهل دار تكون بلا كنيف      فيمكن عاقلا فيها المقام ؟



و حين يقول وقد لامه أحد الرؤساء على سخره .

سیدی شکرک عندی مثل شکرى لإلهى

سیدی سخرى الذى قد صار یأتى بالدواهى

أنت تدرى أنه یدفع عن مالى وجاهى

ألا يدل هذا كله على أن ابن الحجاج كان ممثلاً قد اضطرته ظروف  
مادية قاسية ونفس منهكة ضعيفة إلى اتخاذ هذا الشعر السخيف حرفة للارتزاق  
في الحياة ووسيلة لنيل الحظوة والجاه عند ذوى السلطان ؟

\* \* \*

وأما ابن سكرة الهاشمى فقد كان ديناً ، يصلى ويصوم ويتفكر في  
العقاب والثواب ، ويشهد على أنه كان يصلى مارواه الثعالبي عن الواسطي  
من أنه « حلف بطلاق امرأته أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره في  
هيجاء « خمره » ولما شعرت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفقت زوجها  
من صلاة الصبح تجميئه بالدواة والقرطاس ، وتازم مصلاه لزوم الغريم  
غير الكريم فلا تفارقه ما لم يقرض ولو بيتاً في ذكرها وهجائها» (١)  
وبدل على أنه كما ان يصوم قوله :

أما الصيام فشيء لست أعدهم      مدى الزمان وإن بيت إفطارا  
وقوله :

وهنوا بالصيام فقلت مهلاً      فإني طول دهرى في صيام

وهل فطر لمن يمسى ويصبح      يؤمل فضل أقوات اللئام

وفي شعره أيضاً ما يدل على أنه كما ان يتذكر الموت والبعث فيجزع  
لذلك ويفزع ويلوم نفسه ويعنفها أشد اللوم والتعنيف ، ويطلب إليها أن

تتوب وترعوى كقوله :

محمد ما أعددت للقبر والبلى      وللمسكين الواقفين على القبر؟  
وأنت مصرّ لا تراجع توبة      ولا ترعوى عما يذمّ من الأمر  
تبليت على خمر تعاقر ذنبا      وتصيح مخموراً مريضاً من الخمر  
سأتيك يوم لا تحاول دفعه      فقدم له زاداً إلى البعث والحشر

\* \* \*

كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن هذين الشاعرين لم يكونا في شعرهما الماجن يصدران عن طبع أصيل ، وإنما كانا يصدران فيه عن طبع وتكلف استجابة لظروف خارجية .

ولعلّي أكرت ، وأطلت في هذا الكلام ، ولكنني أبحث لنفسي هذا الاسترسال لأوضح ما قلته سابقاً من أن أدب المجون حتى عند أكبر الشعراء الماجنين كان صدى من أصداء البيئة الاجتماعية وأثر من آثار نظامها الفاسد الذي أشرنا إليه أكثر من مرة ، ولأشير أيضاً إلى أن أدب المجون في هذا العصر كان يمثل ظاهرة اجتماعية عامة ، بينما كان أدب المجون في العصور السابقة يمثل ظاهرة اجتماعية خاصة مقصورة على طائفة مستهترة ضئيلة العدد قد نبذها المجتمع وأخرجها من حظيرته ، وحكم على أفرادها بالمروق والخروج على تقاليدهم .

\* \* \*

وبعد ، فقد كان من الضروري أن أخوض في هذا المستنقع الأسن الذي تملأه الأفذار ، وتفوح منه الروائح الكريهة ، وتترامى فيه الأجساد والعورات والسررات ، عارية مكشوفة ، وهي في أوضاع وأشكال ومواقف تقشعر منها الأبدان ، وتتقرز منها النفوس ، ويعافها الذوق السليم ، ويأبأها

الخلق الكريم .

أقول كان لا بد لي من أن أخوض في هذا المستمتع القدر من الأدب الخليع لأعرض بعض نماذجه التي كان يعتبرها الشعالي وغير الشعالي من المعاصرين ، من الملح الخالية من الفحش المفرط ، الخالية بالحسن المفرط ،<sup>(١)</sup> لنرى كيف حالت الحال وتبدلت عند هؤلاء القوم ، وكيف فسد الذوق وتبدل الحس ، وكيف تغير مفهوم الأخلاق حتى وصلت إلى هذا الدرك الأسفل من الانحلال الفظيع ولكن الحياء والخجل والإشفاق على المروءة والذوق السليم من أن يصابا بسوء تمنعني كلها من أن أثبت بعض هذه النماذج الخليعة التي وصفها الشعالي بأنها خالية من الفحش المفرط وبأنها خالية بالحسن المفرط وبأنها تسر النفس وتعيد الأنس . ولهذا اضطررت أن أكتفي بذكر مطالعها فقط والإشارة إلى مكانها من كتاب القيمة ليرجع إليها من يجب الاطلاع على نماذج من هذا الأدب الفريد في بابه .

قال الشعالي اتخذ ابن الحجاج دعوة كبيرة في أيام عز الدولة ودعا إليها أقواما شتى من رجال الدولة فقال :<sup>(٢)</sup>

قل للأمير المرتجي من جسامتي فقد نجما  
وقال :<sup>(٣)</sup>

يا صاح فاشرب أو اسقني من الشراب العكبري  
وقال أيضا وهي : مما أخرج من خرافاته في مجونه ومفاحشاته ، :<sup>(٤)</sup>  
سرى متعرضا طيف الخيال فسوف لامحالة بالمحال

(١) القيمة ٢ : ٢٢٢ (٢) القيمة ٢ : ٢٢٢ (٣) نفس المصدر ٢ : ٢٤٨

(٤) نفس المصدر ٢ : ٢٤٥

وقال ابن سكرة في قينة كان يعشقها : (١)

عشقت للحين قينة عطفت قلبي بالحسن كل منعطف

وما من ريب في أن من يقرأ هذه النماذج المفصوحة وما شاكلها من ادب المجون يجد أنها تدل بوضوح على نزعة إباحية قوية كانت قد تملك المجتمع في هذا العصر فانطلق الشعراء تحت تأثيرها في هذا السخف .

ولعل سبب ذلك يعود - أيضا - إلى ظهور الفحش المستبشع في المدن الشرقية وسيطرته على المجتمع من جديد بعد أن أخذته الروح العربية في العصور السابقة. (٢)

وقد يؤيد وجود هذه النزعة الإباحية عند الفرس ما أثر عن إيران القديمة من نقوش حائطية تحوى كثيراً من مناظر الحب ، ورسوم الرجال والنساء في مواقف قد تصل إلى حد كبير من الإباحية ، كما أثر عن إيران الإسلامية مثل هذه النقوش الإباحية على حيطان القصور وجدران الحمامات. (٣)

ويؤيد وجود هذه النزعة الإباحية أيضا أن تعاليم زردشت كانت تسمح باتخاذ الخليلات والمحظيات ، كما كانت أخلاق الفرس وأدابهم لا ترى في فجور النساء وزنا المتزوجات ممنه جرمين غير قابلين للغفران مالم يقتترن بإجهاض الحمل. (٤)

\*\*\*

وقبل أن أنتهى من هذا الموضوع أود أن أشير إلى أن تعليل طغيان

(١) القيمة ٢ : ١٩٦ (٢) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٨

(٣) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص ٦٢، ٦٣ ومطالع البدر للغزولى ٢ : ٧، ٩

(٤) قصة الحضارة الفارسية ص ٥٨ و ٦١

المجرون على المجتمع البويهي تعليلاً تاريخياً أمر فيه شيء من التطرف الذي لا يتفق مع الروح العلمي ، ذلك أنه وإن استطاع أن يضع أيدينا على منبع المجرون ومصدره فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا الأسباب المباشرة التي أدت إلى تحطيم المقاييس الخلقية والأوضاع الاجتماعية السائدة من جهة ، وظهور مقاييس جديدة مكانها جعلت الاسترسال في هذا المجرون شيئاً مألوفاً عند الناس من جهة أخرى .

وهذه الأسباب المباشرة كما يبدو لي هي : كثرة الحروب واتصالها ، وسوء الحالة الاقتصادية ، وضعف الوازع الديني في النفوس .

أما الحروب فقد كانت نتيجة لاضطراب الحالة السياسية والإدارية - كما مر بنا - ولهذا كانت فارس والعراق ميداناً لحروب طاحنة متصلة طارال العصر البويهي والعصر الذي سبقه أيضاً . وللحروب - كما لا يخفى - آثار سيئة في حياة الشعوب المادية والمعنوية لما يتخللها من ظلم واغتصاب واعتماد على الحريات ، وانتهاك للمحارم ، ولما يعقبها من خراب ودمار . ففي الحروب الحديثة مثلاً تضجى الأمم بكل قواها المعنوية والمادية في سبيل النصر ، ولهذا نلاحظ بعد كل حرب من هذه الحروب العامة تفسخاً في الأخلاق ، وتغيراً محسوساً في التقاليد والاعتبارات الاجتماعية أما في الحروب القديمة فقد كانت النتائج أسوأ وأفظع لأن الغالب كان يبيع لنفسه أن يتصرف بالمغلوب كما يجب ويهوى ، ولهذا وجد التفسخ الخلقى مجالاً واسعاً وتربة خصبة في البلاد التي أنهكتها مثل هذه الحروب .

ولعل الحديث الذي ذكره المقدسى - وهو منحول من غير شك - يصور لنا آراء الناس حينذاك في الحكم البويهي والحروب البويهيّة ، حيث كانوا يعتبرونها سبباً فيما نالهم من مصائب في أموالهم وأعراضهم ودينهم

قال المقدسي: « وقرأت في بعض الكتب بفارس حديثاً بإسناد إلى النبي (ص): كأتى أنظر إلى شأن الديلم في أمتي وقد أغاروا على أموالهم وخربوا المساجد وهتكوا الحرم وأضعفوا الإسلام وأزالوا النعم وهزمو الجيوش ولا يغلبهم غير أمر الله. » (١)

وأما سوء الحائنة الاقتصادية فقد كان أثرها من آثار النظام المالي الفاسد الذي أدى إلى الغنى الفاحش في جانب والفقير المدقع في جانب آخر، فأنعدم التوازن الاجتماعي بين الطبقات، ولا شك أن المجتمع الذي يبنى على هذه الظاهرة يكون عرضة للأدواء الاجتماعية الفتاكة التي تعمل على تفسخه وانحلاله، فالفراغ من جد الحياة يحمل الأغنياء على الهزل والعبث، وكثرة المال عندهم تدفعهم إلى الاستكثار من وسائل اللذة، والإسراف في تطلبتها، والفقير المدقع يضطر الفقراء والصعاليك غالباً إلى التضحية بالكرامة وعزة النفس، ويشجعهم على الاستهتار بالتقاليد الاجتماعية. وأكثر ما يكون ذلك في المدن حيث يكون الصراع بين الناس على أشده حول الرزق والجاه والنفوذ.

في مثل هذه المجتمعات يندك صرح الأخلاق ويتعطل مفعول المثل العليا وذلك ما حصل بالضبط في المجتمع البويهى حيث كان كل شيء ينال بالمال وكل شيء يعرض من أجل المال، إذ أصبحت للمال قوة عظيمة حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى... (٢)

وأما ضعف الوازع الديني في النفوس فقد كان نتيجة لظهور البدع

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٧٢ (٢) الحضارة الإسلامية ٢: ١٥١

الدينية التي تخالف روح الإسلام، كالصوفية وما صاحبها من « نزعة قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما في هذه الدنيا حتى بالشرعية »، والإسماعيلية وما تفرع عنها من مذاهب « ليست إسلامية حقاً... تبيح المحظورات وتضع من الشرائع وأصحابها، (١) فمكثر من أجل ذلك كله: المنتهون والمهيدون والمدعون بالالوهية والقائلون بالحلول، وكثير أيضاً من يصدق هؤلاء جميعاً ويتبعهم، كما كثير من يحتقر الدين ويحاهر بهذا الاحتقار على نحو لم يسبق له نظير في عصر من العصور.

كل هذه العوامل وما تقدمها مجتمعة، جديرة بأن تحطم المقاييس الخلقية، وتفسد الذوق العام في المجتمع، فتهدم الفرصة الملائمة لانتشار المحون على اختلاف أنواعه من ولع بالغلغان، وعبث بالجوارى، وحانات ومواخير، ودور لهو، وغناء، وبغاء، وألفاظ بذئية مقذعة. وكل هذه العوامل مجتمعة أيضاً خليقة بأن تجعل الناس بين منعم يتطلب اللذة وفقير يبتغي المال، وبائس مكروب ينشد السلوى والعزاء.



(١) الحضارة الإسلامية ٢: ٢٥، ٦١

## خاتمة

### في خصائص الأدب البويهى

لابد لنا في هذا المقام من أن نشير إلى أن الأدب العربي حينما انتقل من جزيرة العرب إلى البلاد المفتوحة قد تأثر بصورة تدريجية بالحياة الحضريّة والعلمية ، فاتسم من أجل ذلك برقة الألفاظ ، وسهولة العبارة ، والإبداع في التصوير ، والإغراب في الخيال ، واستنباط الجديد والدقيق من المعاني ، ونحو ذلك من الخصائص التي خاض فيها الخائضون قديماً وحديثاً ، فأشبهوها بحثاً ودرساً . ولكن حينما انقسمت المملكة الإسلامية في أوائل القرن الرابع دولا وإمارات مستقلة ، ثم تبع هذا الانقسام ظهور الآداب الإقليمية ، انتقلت تلك الخصائص الفنية إلى هذه الآداب عن طريق الإرث . هذا ، ولما كنا نريد في هذه الخاتمة أن نبين الخصائص الفنية التي يمكن أن تتخذ دليلا على وجود أثر الشخصية الإقليمية في الأدب البويهى آثرنا عدم التعرض لهذه الخصائص العامة التي لا يميز بها أدب إقليمى عن أدب إقليمى آخر ، ومن أجل هذا سنقتصر كلامنا على تلك الخصائص التي ظهرت في الأدب البويهى قبل غيره ، أو التي امتاز بها دون سواه . ولكن قبل أن نبدأ كلامنا هذا لابد لنا من أن نتذكر ما قلناه في فصل سابق من أن الأدب البويهى - لأسباب ذكرناها - كان على نوعين : أحدهما أدب أرسطو قراطي رفيع ، وثانيهما أدب شعبي ، وأن هذين النوعين من الأدب كانا مختلفين في الصياغة والمعاني ولهذا نرى لزوماً علينا أن نتكلم على خصائص كل منهما على انفراد . بعد هذا نستطيع أن نلخص خصائص الأدب البويهى الرفيع في أمرين



اثنين : في هذا التأنيق الشديد في الأسلوب ، وفي هذه المبالغة المفرطة في المعاني .

أما التأنيق في الأسلوب فصدره الإسراف في استعمال السجع والمحسنات البديعية كالجناس والطباق ، فهذه العناصر ، وإن كانت معروفة لدى القدماء إلا أنهم لم يسرفوا فيها إسراف أدباء العصر البويهى ، إذ لم يكد يبدأ القرن الرابع حتى رأينا السجع يعم جميع الرسائل السلطانية مصحوباً بالجناس والطباق ، فكان ذلك مبدءاً لظهور الأسلوب المحلى بالسجع والبديع في الأدب العربى على يد أبى الفضل محمد بن العميد المتوفى عام ٣٦٠ ، فقد كان هذا الكتاب أول من نحا هذا النحو في كتاباته ، ولهذا يعد أستاذاً لهذه الطريقة الجديدة في الكتابة ، ثم تابعه على ذلك بقية الكتاب ممن تلبذوا عليه ، كالصاحب ، أو قلدره كالبيديع والنخوارزمى والصائى والشعالى وغيرهم . وقد يدل على ذلك ما أثر عنه من رسائل وفصول اهتم فيها كثيراً بالسجع والبيديع فمن ذلك قوله من رسالة وجهها إلى ابن بلكا : (١)

« كتابى ، وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة أيسرهما . يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأذن ذلك يحبط أعمالك ويسحق كل ما يرمى لك ، لاجرم إنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك ، .

وعلى هذا النحو من السجع والبيديع يمضى إلى آخر الرسالة . وعلى هذا فإن الأسلوب الأدبى الأنيق ظهر - أول ما ظهر - فى بلاد فارسية ، وعلى يدي كاتب فارسى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بقية الممالك

(١) البيهيمه ٣ : ١٠

الإسلامية عن طريق الاحتذاء والتقليد . ولا شك في أن هذا الأمر إن دل على شيء فإنما يدل على أن مصدر الأناقة في الأدب فارسي ، كما يدل على أثر الشخصية الإقليمية في الأدب البويهى .

وعلى أية حال فقد أغرم الأدباء في العصر البويهى بالسجع المصحوب بالجناس والطباق إغراماً شديداً ، فالتموه في كل ما يكتبون .

فالساحب بن عباد مثلاً كان ولوعاً بالسجع ، كلفه به إلى حد الإفراط فيه ، وصفه أبو حيان فقال (١) : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعاً تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتي بها ويستعملها ولا يعيباً بجميع ما وصفت من عاقبتها . ثم قال - نقلاً عن ابن العميد - : « إن الساحب خرج من الرى متوجهاً إلى أصفهان ومنزله « وراين » ، وهى قرية كالمدينة « فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا شيء إلا ليكتب إلينا : كتاني هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار » . (٢)

ومهما يمكن أن يقال في كلام التوحيد وما فيه من تندر على الساحب وسخرية منه فإنه من الثابت قطعاً أن ميل الساحب هذا إلى السجع كان شديداً ، ورسائله وفصوله كلها تدل على ذلك ، فن قوله في رقعة استنارة : (٣)

« غداً يا سيدى ينحسر الصيام وتطيب المدام ، فلا بد من أن نقيم

(٢) معجم الأدباء . ٦ : ٢٢٠

(١) معجم الأدباء . ٦ : ٢٠٧

(٣) اليتيمة ٣ : ٨٠

أسواق الأانس نافقة ، وننشر أعلام السرور خافقة ، فبالفتوة فإنها قسم للظراف ، يفرض حسن الإسعاف لما بادرته ولو على جناح الرياح ، .  
وكان الصابي كالأصاحب ميالا إلى السجع ، مكثرا منه في رسائله ، قال ابن خفاجة : « من كتاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخل به وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي <sup>(١)</sup> » ، فهو حين يكتب رسالة عن معز الدولة عند ظفره ببعض أعدائه يغرق في استخدام السجع ، فيقول فيها : (٢)

« فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبعد صيته بعد الخمول وطاع سعده بعد الأفول ، وجمعت عنده الأموال ووطئت عقبه الرجال ، وتضرمت بحسده جوانح الأكفاء ، وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته وأدركته شقوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت في الغي أشطانه فنصب أشراكه وحبائله ، وأعمل مكايده ومخائله .

أما إذا انتقلنا إلى الرسائل الإخوانية فإننا نجد التناق في الأسلوب الأدبي يصل إلى ذروته ، نجد ذلك مثلا في رسائل كاتب كتاب بكر الخوارزمي أو بديع الزمان الهمداني ، ويكفينا دليلا على ذلك هذه القطعة التي أسرف فيها الخوارزمي في استعمال السجع والجناس والطباق إسرافاً شديداً ، وهذه القطعة هي :

« . . . ويصب في سمي من خبر انحسام دواعي هذه المحنة ، ما يعيد شبابي الذي ولي ، ويطرد شبي الذي تجلى ، فحق لمن شاب من سماع ما يسوءه ، أن يشب من سماع ما يسره ، وحق لجسم هدمه الغم الأمسي ، أن يبنيه الفرح اليومي ، وحق للدهر أن يكف فقد بالغ في العقاب وتناهى

(١) ديوان خطب ابن نباتة الفارقي ص ١٦

(٢) رسائل الصابي ص ٣٤

في العتاب ، وحق لصفوفه أن تنصرف فقد أشفت وشففت ، واكتفت وكفت ، وزادت على ما في الإمكان وأوفت . . . (١)

وأما المبالغة المفرطة في المعاني فقد ظهرت واضحة كل الوضوح في هذه الاستعارات البعيدة ، وفي هذه الكثرة من التشبيهات ، وفي عبارات التفخيم والتعظيم والتمجيد ، ثم في هذه التهويلات التي لا حد لها ، كقول  
الصاحب : (٢)

« مجلسنا يا سيدى مفتقر إليك ، معول في إغنائه عليك ، وقد أبت  
واحه أن تصفو إلا أن تناولها يمينك ، وأقسم غناؤه لا طاب أو تعيه أذناك  
فأما خدود نارنجيه فقد احمرت خجلا لا بطانك ، وعيون زرجسه فقد حدقت  
تأميلا للقائك . . الخ »

وقول الخوارزمي من رسالة كتبها إلى أحد تلاميذه عن قصيدة بعث  
بها إليه :

« وردت القصيدة الغراء ، بل الدرة العذراء ، بل الهدية العظيمة ،  
بل الشمس السكرية ، بل الياقوتة اليتيمة ، بل فريدة الدر ، بل غرة الغر ،  
بل شمس السكرام ، وغريبة الأيام ، بل الخطاب الجزل والمنطق الفصل ،  
بل الحسن والإحسان ، بل التبيين والتبيان ، بل واحدة الفصائد وخاتمة  
القلائد ، وآبدة الأوابد . . . بل روح المعاني والمباني ، وهي كل  
الأوزان والقوافي . . الخ . . وعلى هذا النحو من التهويل يمضى إلى آخر  
رسالته .

وقول الصابي عن الوزير ابن بقرية موجهاً إلى قاضي القضاة :  
« وصل كتاب قاضي القضاة بالألفاظ التي لو ما زجت البحر لأعذبتة ،

(٢) البيهقي ٣ : ٨٠

(١) رسائل الخوارزمي ص ١٧

والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحتها وأذهبته ، (١)  
وهكذا كان أدباء العصر البويهى يسجعون ويحانسون ويطابقون  
ويبالغون ويهلون ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى أصبح الأسلوب  
المحلى بالسجع والبديع ، المبني على المبالغة والتهويل من خصائص الأدب  
البويهى دون سواه .

ولقد قدر لهذا الاتجاه الأدبى أن يسود ويشيع مع ما كان فيه من زيغ  
وانحراف عن الأساليب الأدبية المقبولة ، إذ استساخه الناس وأقبلوا عليه  
وعدلوا عن سواه ، ذلك لأن السكثرة الغالبة من الأدباء كانوا يغشون هذه  
البيئات المترفة التي نشأ فيها هذا الأسلوب الأنيق ويعيشون في أكنافها  
وينفقون في أسواقها ، فما كان لهم إلا أن يتذوقوا الأشياء بذوقها ويخرجوا  
أدبهم على غرار الأدب الذى ينتجه أساتذتهم من أدباء القصور . فكان من  
أثر ذلك أن تكون ذوق أدبى عام يعجب بالتجنيس اللطيف ، ويستحسن  
الاستعارة البعيدة ، يطرب للازدواج ويكلف بالسجعة التي تنحل بموقعها  
عروة الملك ، أما المعانى التي لم توجد الألفاظ إلا من أجلها ، ولم تخلق  
ضروب البيان إلا لأدائها كما هي في نفس الأديب فإنها لم تكن من الأهمية  
بحيث تظفر بعناية هؤلاء القوم . ولم لا يكون الأمر كذلك ، وحياتهم  
خالية من المعانى الخطيرة ، عامرة بالأعراض والزخارف ١٤

ومن الغريب أن يسرى هذا الذوق الأدبى إلى المؤلفين فيسيطر على  
لغة التأليف في هذا العصر ، فقد كان المؤلفون ينجحون في كتبهم نحو الأدباء  
في كتاباتهم من حيث العناية بالحلية اللفظية والمبالغات والتهويلات مما أدى  
إلى غموض المعانى ، بل إلى إفسادها في كثير من الأحيان . فأوصاف الشعراء

(١) البيهية ٢ : ٢٧٧

والكتاب في كتاب كاليثيمة قد تشابهت والتبست وعميت لأن المؤلف أسرف في أسجاعه ومبالغاته واستعاراته ومجازاته ، فكان من أجل ذلك أكثر أدباء اليتيمة : أفراداً ودرراً ، وصدوراً ، وغرراً ، ونوادراً .  
فإن العميد : « عين المشرق ، وأوحد العصر في السكتابة والضارب في الآداب بالسهم الفائزة »

والصاحب بن عباد : « صدر المشرق وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ونادرة عطاردي في البلاغة » .

والجرجاني : « فرد الزمان ، ونادرة الفلك ، ودرة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر »

والهمداني : « نادرة الفلك ، وبكر عطاردي ، وفرد الدهر ، وغرة العصر »  
والخوارزمي : « باقعة الدهر ، وبحر الأدب ، وعلم النظم والنثر » .  
وعلى هذا النحو يمضي في سرد تراجم الكتاب والشعراء في كتابه .

وأغرب من ذلك بكثير أن يؤلف المقدسي كتاباً في الجغرافية فيلتزم فيه السجع أكثر من أصحاب السجع أنفسهم ، فإذا أراد مثلاً أن يصف جرجان قال :

« ولكن اسمع الآن ، هو مصر حره شديد مع كرب وذبان ...  
ومن حلها من بلده فليعدد الأكتفان ، فإن بها منجلا يحصد الأبدان ، وتراهم على رأس الجمل يوم النحر » حزبان ،<sup>(١)</sup> فمجروح ومضروب وحيران ، ولا يفارقهم هرج وقتل وجيشان ، جيش من الديلم والآخر من ترك سامان ، وتعصب وحش عليه الفریقان ، وتشيع مفرط مع خلق قرآن ... فهذا ما أتقنته من وصف جرجان . »

(١) لاحظ : كيف ضحى المقدسي بالنحو في سبيل المحافظة على السجع .

وليس من شك في أن ظهور هذا المذهب الأدبي وشيوعه في المهضبة الإيرانية وما جاورها من السهول قبل غيرها من البلاد الإسلامية أمر يبعث في نفس الباحث دهشاً واستغراباً ويشير فيها فضولاً وتساوياً ، ترى ما الذي حمل الأدباء على أن يتأنقوا ويجودوا في أساليبهم وأن يبالغوا ويهولوا في معانيهم ؟ أهو التأنق في المعيشة ؟ أهر الإمعان في هذا التأنق ؟ قد يكون ذلك صحيحاً ، فقد ذهب غير واحد من الباحثين المحدثين هذا المذهب في تفسير هذه الظاهرة ، منهم أستاذنا الجليل أحمد أمين بك (١) والأستاذ خليل مردم (٢) . ولسكني - مع ذلك - أشعر بعدم الاطمئنان إلى هذا التفسير . لا ، بل يساورني الشك في صحته ، ثم يدفني هذا الشك إلى التساؤل فأقول :

أيـمكن أن يكون كد الذهن وإجهاد الخاطر وترويض النفس في تصيد التجنيس والطباق والسجع والمجاز والمبالغة نوعاً أو أنواعاً من الترف ترضى النفوس اللاهية ؟ . ثم . . . أيصح أن تكون ألفاظ اللغة وأساليبها من السهولة واليسر بحيث يستطيع أن يعيث بها هؤلاء المنعمون كما يعبثون بأدوات الزينة والترف في قصورهم ؟

لا أظن الأمر كذلك ، إذ أن الفرق كبير بين تأنق الإنسان في معيشته وتأنقه في أسلوبه الأدبي ، فهو إذا تأنق في طعامه وشرابه ولباسه وسكنه وأسرف في تأنقه ، لا يتكلف مشقة ولا جهداً لأنه يعتمد في ذلك على غيره ، يعتمد على هؤلاء الخدم والحشم والأعوان ، ثم على هذا المال المسكندس في خزائنه ، ولسكنه إذا أراد أن يتأنق في أسلوبه الأدبي ، فالأمر على العكس من ذلك تماماً ، إذ أنه في هذه الحالة محتاج إلى تسكف عناء الحفظ والدرس

---

(١) في كتابه ظهر الإسلام ص ١٣٣ (٢) في رسالته عن ابن العميد

والاطلاع ، ثم هو محتاج - بعد ذلك - إلى كد الدهن وإجهاد الخاطر ليجتلب  
الفاظاً تتشابه أواخرها أو تتفق حروفها وتختلف معانيها ، أو تختلف  
حروفها وتتضاد معانيها لتتحقق له هذه المحسنات البديعية من سجع  
وجناس وطباق .

شتان إذن بين الحالتين : حالة الرجل متأثقاً في عيشه ، وحالة الرجل  
متأثقاً في أسلوبه الأدبي ، فهو في الأولى يلهو ويعبت وينعم ليحقق لنفسه  
لذائذ رخيصة من أيسر سبيل ، وهو في الثانية يجهد ويكدح ويشقى ليحقق  
لها لذة فنية رفيعة من أشق سبيل فإذا كان هذا صحيحاً - وما أظنه إلا كذلك -  
فإنه من غير المعقول أن يكون التأثق في المعيشة داعياً إلى التأثق في الأسلوب  
الأدبي لما بينهما من تناقض صريح في الوسيلة والغاية .

وبعد ، فإذا كنا لانظمين إلى تفسير هذه الظاهرة على هذا النحو فكيف  
نفسرها إذن؟ وإلى أي الأسباب نرجعها؟

أكبر ظني أن سبب هذه الظاهرة الأدبية يتصل اتصالاً وثيقاً بطبيعة  
الشعب الفارسي ، أعني بذوقه الفني الذي يكلف بالزخرفة كلِّها شديداً ، إذ  
أنه من المعروف أن هذا الشعب « فنان ذو غريزة زخرفية قوية » (١)  
نستطيع أن نلخصها بوضوح في جميع ما أنتج الفنان الفارسي من  
ضروب الفن .

وإن نظرة عامة إلى الفنون الفارسية ، مثل العمارة والتصوير والخزف  
والتجليد والسجاد والمنسوجات وغيرها من التحف الفنية لتصور لنا ميل  
الفنان الفارسي الشديد إلى الزخرفة ، تصويراً دقيقاً ، إذ أنه كان يتخذ من  
الرسوم الحيوانية والنباتية والهندسية ومن الصور الأدمية والنقوش الكتابية

(١) الدكتور زكي حسن - الفنون الإيرانية ص ٣٣٤



عناصر زخرفية يعتمد عليها اعتماداً كلياً في تجميل فنه وتزيينه . (١) مما يدل على أن الزخرفة حفظ مشترك بين الفنون الفارسية جميعها .

فإذا أضفنا إلى هذا كله أن الأدب البويهى في جملمته كان فارسياً في نشأته وفي روحه لأنه نما وترعرع في ظل شعب فارسى وحضارة فارسية ، فإنه من الطبيعى أن يتأثر منشئوه بهذا الميل العام إلى الزخرفة عند الفرس ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الفنانين ، فيسكثروا من السجع والجناس والطباق باعتبارها عناصر زخرفية تنكسب أديهم جمالاً وزينة .

يتضح من هذا الذى قدمناه أن الفنان الفارسى والأديب الفارسى أو المتأثر بالروح الفارسية كان كلاهما يزخرف في فنه ابتغاء الحلية والزينة والجمال ، وكان كلاهما أيضاً يصدر في هذه الزخرفة عن واد واحد ، هو هذا الذوق الفنى العام الذى تخضع له جميع الفنون الفارسية .

ولعل مما يدل على تأثير الفنان والأديب في زخرفتهما بهذا الذوق الفنى العام دون سواه أننا نجد العناصر الزخرفية فى الفن والأدب قائمة على أسس واحدة من التوازن والتوافق والتماثل والتقابل والتكرار ذلك أننا إذا تأملنا التحف الفنية الإيرانية الإسلامية من سجاد أو منسوجات أو خزف أو خشب أو تحف معدنية أو جلد أو جص رأينا فى أغلب الأحيان موضوعات زخرفية مكونة من عناصر مجمعة فى توافق وتوازن جنباً إلى جنب ومكررة فى أشرطة أو مناطق متعددة الأشكال . فمن أمثلة ذلك ، أن الزخارف الآدمية والحيوانية كانت فى الطرز الفنية الإيرانية الإسلامية حلقات فى سلسلة متصلة ، وكانت توضع فى دوائر أو أشرطة أو أشكال هندسية أخرى منفردة ، أو متوازية أو متدايرة أو متتابعة ، فيتحقق بهذه

(١) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص ٣٠٦ وما بعدها

الأوضاع التوازن والتماثل والتقابل والتكرار ، تلك المبادئ التي أغرم بها  
الفنان الإيراني في رسمه وزخرفته . (١)

هذا من ناحية الفن ، أما من ناحية الأدب فإننا إذا تأملنا أية قطعة  
أدبية من إنشاء أديب كالبديع أو الخوارزمي أو غيرهما من أدباء العصر  
البويهى ، رأينا عناصرها الزخرفية تهدف دائماً إلى تحقيق مبادئ التوازن  
والتماثل والتقابل والتكرار كلها أو بعضها ، ذلك أن السجع والجناس بما  
فيها من وحدة النغم والصوت والقافية يحققان توازناً وتوافقاً وتماثلاً ، وأن  
الطباق بما فيه من معان متضادة يحقق تقابلاً ، وأن الإكثار من هذه العناصر  
يحقق تكراراً ملحوظاً في القطعة الأدبية ، فإذا هي كقطعة من  
السجاد المزخرف أو كقطعة موسيقية ذات نغم رتيب . ويكفى دليلاً على  
ذلك أن ننقل هذه القطعة من إنشاء البديع : (٢)

« ولسكننا نقول : العرب أوفى وأوفر ، وأوفى وأوقر ، وأنكى وأنكر  
وأعلى وأعلم ، وأسمى وأسمح وأعطى وأعطف وألطى وألطف وأحصى  
وأحصف ... الخ »

هكذا نعلم كلف الأدباء بالتأنيق والتجويد في الألفاظ ، أما غلوهم في  
المعاني ومبالغتهم وتهويلهم فيها فنعللها أيضاً بأنها صدى لميل الفرس إلى الغلو  
في كل شيء ، فقد كانوا منذ القديم مغالين في خضوعهم لذوى السلاطن حتى  
عبدوا الملوك ، وكانوا مغالين في ترفهم وزينتهم فامتلكوا المنازل الجميلة  
والقصور الفخمة والحدائق الغناء التي تسكر وتتسع أحياناً حتى تصبح  
حظيرة للصيد والقنص أو مأوى لمختلف الحيوانات ، وامتلكوا فاخر الأثاث  
والرياش ، وامتلكوا الموائد المصفحة برفائق الذهب والفضة ، والأرائك

(١) الفنون الإيرانية للدكتور زكى حسن ص ٢١٢

(٢) رسائل البديع الهمداني ص ٢٧٩

المغطاة بأبهى الأغطية وأجملها ، ومدوا البسط والسجاجيد الرخوة ذات النسيج اللين والألوان البهيجة الشبيهة بألوان الأرض والسماء ، وشربوا في كؤوس من ذهب ، وزينوا موائدهم ومناضدهم بالأصص الجميلة .<sup>(١)</sup>

وكانوا مغالين أيضاً في رعاية « آداب السلوك » ، فإذا تقابل نظيران احتضن الواحد منهما الآخر عنقاً وقبلة في شفتيه ، أما إذا قابل أحدهم من هو أعلى منه مرتبة وقدراً فعليه أن ينحني له انحناءة كبيرة كلها خشوع واحترام ، فإذا قابل من هو دونه قدم له وجنته ليقبلها فإذا تقابل مع فرد من عامة الناس حتى له رأسه قليلاً في دعة وهدوء .<sup>(٢)</sup>

هكذا كان الفرس يميلون كل الميل إلى المبالغة والغلو والإسراف في كل شيء ، فلما اتصلوا بالأمة العربية بعد الفتح الإسلامي واتخذوا لغتها أداة للتعبير عن مشاعرهم وخواطرهم وأفكارهم انعكس هذا الميل فيما أنتجوا من أدب ولا سيما في المديح ، ثم جاراهم في ذلك بقية الأدباء من العرب وغير العرب ، ولهذا رأينا ظاهرة المبالغة والتحويل في المعاني الأدبية بادية للعيان منذ القرن الثاني الهجري ، نجد أثر ذلك واضحاً عند شاعر كيشار بن برد أو مسلم بن الوليد أو أبي نواس أو غيرهم . مثال ذلك قول أبي نواس<sup>(٣)</sup> في همدح الرشيد :

ملك تصور في القلوب مثاله      فيكأنه لم يخجل منه مكان  
حتى الذي في الرحم لم يك صورة      لفؤاده من خوفه خفقان  
ولسكن ما كاد يحل القرن الرابع حتى      صارت المبالغات أساساً للقول

(١) قصة الحضارة الفارسية ص ٦٦ (٢) المصدر السابق ص ٥٧  
(٣) ولأبي نواس بيت مشهور أشد إمعاناً في المبالغة من هذين البيتين وهو :  
وأخفت أهل الشرك حتى إنه      لتخافك النطف التي لم تخلق

وارتفع بها الأدباء إلى ما كان يمقت قبلا من غلو وإغراق ، وما ذلك إلا لأن البقية الباقية من الروح العربي والذوق العربي قد ذهبت بنهب الدولة العباسية ، وحل محلها روح فارسي ، وذوق فارسي في هذه البلاد ، كنتيجة لعودة السلطان الفارسي من جديد ، وقد ذكرنا في الفصول السابقة أمثلة كثيرة لذلك .

وبعد ، أليس في هذا كله ما يدل على أن ظاهرة الأسلوب المحلى بالسجع والبديع ، المبني على المبالغة والتحويل ، هي أثر من آثار الشخصية الإقليمية في الأدب العربي بعد أن انتقل من جزيرة العرب وحل في ديار ليست من خياره ، وعاش بين أناس ليسوا من أهله ؟

\*\*\*

أما الأدب البويهبي الشعبي فقد كان خالياً من الصنعة اللفظية ، فلا زخر فقولا عبارات تجري مجرى الأمثال أو الحكم ، كما كان خالياً من المعاني العميقة والخيال الدقيق ، فلا مبالغة ، ولا تهويل ، ولا مجازات ولا استعارات بعيدة أو تشبيهات كثيرة ، وإنما كان أدبا بسيطا ، ساذجا في أساليبه ومعانيه ببساطة هذه الحياة الاعتيادية وسذاجتها ، ذلك لأنه كان يصور حياة الداهم والعامية من أقرب سبيل وبأبسط عبارة ، ولهذا كان من الطبيعي أن تنتقل إليه كثير من الألفاظ والاصطلاحات والمعاني العامية . نجد ذلك واضحا في أشعار ابن الحجاج وابن سكرة ، وفي أشعار الصعاليك وغيرهم وفي هذه الكثرة الهائلة من الأسمار والقصص الشعبية ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، ولسكننا نكتفي بهذا المثال من قصيدة « السوسى » :

الحمد لله ليس لي بخت ولا ثياب يضمها تحت  
سيان بيبي لمن تأمله والمهمة الصحصحان والمرت

أمنت في بيتي اللصوص فما للص فيه فوق ولا تحت  
فمنزلي مطبق بلا حرس صفر من الصفر حيثما درت  
إبريقى الكوز إن غسلت يدي  
والطين سعدي وداري الطست  
وعاجل الشيب حين صيرني فرزدقي المشيب إذ شبت  
ومهما يكن فإن ظاهرة الأدب الشعبي في العصر البويهي إن هي إلا  
أثر لتأقلم الأدب العربي وتأثره بالحياة الاجتماعية التي أصبحت للعامة فيها شأن  
كبير في الأدب. وهذه ميزة أخرى للأدب البويهي يمتاز بها عن غيره من  
الأدب الإقليمية.



Türkiye Diyanet Vakfı  
İslâm Araştırmaları Merkezi  
Kütüphanesi  
Prof. Dr. Nihad M. ÇETİN Bilgisi